أعلام العراق

يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير
وتراجم نوابغ الألوسيين وتآبين العلماء والأدباء



تصنيف العلاّمة
محمد بهجة الأثري

الدار العربية للموسوعات

أعلام العراق

يتضمن سيرة الإمام الألوسي الكبير
وتراجم نوابغ الألوسيين
وتآبين العلماء والأدباء

تصنيف العلاّمة

محمد بهجة الأثري

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الاولى: 1926م - 1345 هـ
الطبعة الثانية: 2002م - 1422 هـ

كافة المراسلات تعنون باسم:

الدار العربية للموسوعات
ص.ب: 511 - الحازمية - هاتف: 05/952594 فاكس: 05/459982
هاتف نقال: 03/388363 - 03/525066
بيروت - لبنان

أعلام العراق

الإهداء

إلى

المجمع العلمي العربي الجليل

هذه زهرة اقتطفتها من رياض الشباب وآثرت أن

أقدمها إليك والهدايا على مقدار مهديها

محمد بهجة الأثري

محمد بهجة الأثري

المقدمة

في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ـ بعد أن تدهور العراق إلى الحضيض الأسفل بحين من الدهر مذكور ـ نشأت في عاصمة عواصم الدولة العباسية بالأمس فئة نبيلة شعرت بحاجة الأمة إلى العلم فشمَّرت عن ساعد الجد والاجتهاد وولت وجهها شطره واستحثت مطايا هممها نحو كعبة الآداب آناء الليل وأطراف النهار، ودأبت في سبيل السعي والعمل، من غير أن يعروها فتور أو كلل، حتى أعادت لنا ذكريات تلك العزة وذلك المجد: عزة أيام بغداد الزاهرة في العهد العباسي المجيد، ومجد دار السلام ـ مهد الحضارة ومركز العلم ـ التي أضاءت بأنوار معارفها أرجاء المعمورة وأوربة «المتمدنة اليوم!» في ظلال من الجهل دامس، وأحيت ما اندرس من رسوم العلم، وشادت ما عفّته أعاصير الجهل والخمول من معالم الآداب، ورفعت منار مجدنا الغابر، وعزنا الداثر، في ربوع الرافدين ومغاني العراق ـ فازدادت صحائف التاريخ العراقي بل العربي الإسلامي أجمع بما خلدوا من الأيادي البيضاء. والمآثر الغراء. . . .

ولئن كان في العراق اليوم رجال يذكرون فهم ولا ريب غرس ذلك السلف الصالح، أو كان العراق اليوم أثر لنهضة أدبية فهم ولا شك واضعو أُسسها بل العامل الوحيد في تكوينها.

الدار العربية للموسوعات



الأسرة الألوسية

أنجبت دار السلام في هاتيك الأعوام، أسراً عديدة رفيعة العماد كريمة المحتد: نبغ بينها رجال بروزا في حلائب العلم والأدب، وضربوا في كل من فنونها بسهو وافر. وكان لهم من علو الكعب وطول الباع ونباهة الشأن وبراعة الأدب ما أذاع صيت هذا القطر في الآفاق، ونشر ذكره في الأصقاع والبقاع ومن هذه الأسر: «الأسرة الألوسِيّة» و«السُّوَيْدِيَة» و«الحيدرية» و«الرحبية» و«الشاوية الحِمْيَرية» وغيرها؛ فقد كان لها من الصيت الطائر، والشهرة الواسعة ما لا يدانيه شيء. حتى إذا دار الزمان، وتغير كل أمر عما عليه كان؛ أخذت شهرة بعض هؤلاء تتلاشى وتضمحل لاضمحلال أبنائهم أو عدم وجود من يسدّ مسدهم منهم، أو ينشر آثارهم ويرفع ذكرهم. اللَّهم إلاّ «الأسرة الألوسية» ذات المجد الشامخ، والشرف الباذخ، والعز الأقعس، والخيم الأنفس، والمحتد العريق، والفضل الأتلد العتيق. فقد تقدمت تقدماً باهراً، وتضاعفت إلى تعاقب الليالي والأيام شهرتها، حتى جابت الأصقاع، وملأت الأودية والبقاع، وكاد لم يبق أحد لم يسمع أو لم يعرف عنها شيئاً. ذلك بفضل نبوغ أبنائها، وسيرهم على سنن العلم، وسعيهم عند انتشار المطابع في نشر آثارهم المحبرة، وبث ثمرات قرائحهم الناضجة. ولَعَمْري إنهم لو حادوا عن سَنَن سلافهم ومالوا عنه إلى الطريق الأميل ولم يجدّوا في سبيل التأليف والنشر لاندثر اسم «ألوس» وقبر مع من رفع ذكر ألوس، وكان كأن لم يكن شيئاً مذكوراً!

نسبتها ونسبها:

تنسب هذه الأسرة إلى (أَلُوس) بالقصر على الأصح، وهي قرية على الفرات، قرب عانات، يقال أن سابور ذا الأكتاف كان بناها؛ وينسب إليها من القدماء محمد بن حصن بن خالد بن قيس أبو عبد الله البغدادي الألوسي الطرطوسي، والمؤيد الألوسي الشاعر المتوفَّى سنة 557 هـ الذي اتهمه المقتفي لأمر الله بمالأة السلطان ومكاتبته فأمر بحبسه في خبر ليس هذا محل ذكره[1].

ولو رجعنا إلى تاريخها القديم لوجدناها بغدادية السِنخ لا ألوسِيّةً. وإنما انتسبت إلى ألوس لأن أحد أجدادنا (على ما يقال والله أعلم) فرَّ إليها من وجه هولاكو التتري حينما دهم بغداد وفتك بأهلها، ومنذ نحو ثلثمائة سنة رجع أبناؤه إلى بغداد ولبثوا فيها حتى الآن. ولكنني لست من هذا الخبر على يقين تام، وإنما ذكره بعض أدباء العصر فتابعناهم عليه في ترجمتنا لأستاذنا الإمام الألوسيّ التي تناقلتها الصحف والمجلات، ولم أسمع من أبناء هذه الأسرة ما يؤيّده، ولعل ما ذكر في (حديقة الورود) هو أصح ما يعتمد عليه في تحقيق هذا الأمر. قال ما ملخصه:ـ

«. . . كان كثير من أسلاف شيخنا (يعني به أبا الثناء الألوسي صاحب تفسير روح المعاني) من قبل ساكنين في بغداد وذلك زمن العَّلامة الشيخ إسماعيل المفتي الألوسي ـ كان مفتي بغداد في أواخر المائة الحادية عشر، وكان ذا شهرة عظيمة، واستعفى عن الإفتاء، وذهب إلى الأستانة، وعظم فيها، ووجهت إليه عدة أراضي وجزائر في عانات وألوس وغيرهما، فتوطن عانات، وسكن بعض ذريته فيها وبعض منهم في ألوس ـ وفي تلك الأوقات ارتحل من كان ساكناً بها في بغداد من أسلاف

(1) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (ج 1 ص 326) ط مصر.

شيخنا إلى الحديثة وألوس ثم في سنة السبعين قريباً منها من المائة الثانية عشر جاء السيد محمود (الخطيب بن السيد درويش) إلى بغداد واتخذها وطناً وتوفي فيها في أوائل المائة الثالثة عشر ودفن هو وزوجته في مقبرة الشيخ أحمد الموصلي قرب مقبرة الشيخ معروف. . .».

و(**الألُوسيون**) سادة أشراف، محبوكو الأطراف، ضموا إلى زينة النسب، حلية الأدب، فتفيأوا في الشرف مكاناً عليّا:

ما عذر من ضربت به أعراقه ... حتى بَلغْنَ إلى النبيّ محمدﷺ

أن لا يمدَّ إلى المكارم باعه ... وينال غايات العلى والسؤدد

مترقياً حتى تكون ذيولُهُ ... أبد الزمان عمائماً للفرقد

وهم ـ على ثبوت نسبهم ـ من أبعد الناس عن التفاخر بالأَنساب. ولعمري إن انتسابهم إلى العلم ليكفيهم، ومحك النسب العمل:

إنْ فاتكم أصل امرىءٍ ففعاله ... تنبيكم عن أصله المتناهي

ومن مأثور كلام أبي الثناء محيي مجدهم التليد، ومشيد أركان فضلهم الطريف، قوله في روح المعاني عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: ـ «. . . فالحزم اللائق بالنسيب أن يتقي الله ويكتسب من الخصال الحميدة ما لو كانت في غير نسيب لكفته ليكون قد زاد على الزبد شهدا، وعلّق على جيد الحسناء عقدا؛ ولا يكتفي بمجرد الانتساب إلى جدود سلفوا، ليقال له: نعم الجدود ولكن بئسَ ما خلفوا. . . وافتخار المرء بوصف أبيه، نحو افتخار الكوسج بلحية أخيه. . .».



وقد نظم نسبَهم عبد الباقي العمري الشهير مبتدئاً بالسيد محمود أبي الثناء وذلك قوله: ـ

السيد (المحمود) في الأفعال ... سليل (عبد الله) ذي الأفضال
أبوه (محمود) بن (درويش) الذي ... ينمى (لعاشور) غياث اللائذ!
ابن (محمد) سليل (ناصر ... للدين) ينمى (للحسين) الطاهر
ابن (علي) بم (الحسين) المعتزي ... إلى (كمال الدين) ذي التعزّز
سليل (شمس الدين) ذي التبيين ... ابن (محمد) بن (شمس الدين)
سليل (حارس) لشمس الدين ... يعزى وذا نجل (شهاب الدين)
ابن (أبي القاسم) طاهر النسب ... ابن (أمير) ذاك باهر الحسب
ابن (محمد) إلى (بيدار) ... يعزى كما قد جاء في الأخبار
وجاء من بعد أبيه (عيسى) ... (محمد) بن (أحمد) بن (موسى)
و(أحمد) من بعده (محمد) ... و(أحمد الأعرج) فهو السيد
ينمى إلى الشهير (بالمبرقع ... موسى) إلى (الجواد) فانْمِهِ وَعِ
ابن (الرضى) أبوه (موسى الكاظم) ... أبوه (جعفر) الإمام العالم
ابن (محمد) الإمام (الباقر) ... سليل (زين العابدين) الطاهر
نجل (الحسين) السبط عالي الهمم ... ريحانة الهادي شفيع الأمم
نجل (علي) الصهر ذي المفاخر ... حاز العلا من كابر عن كابر
وأمه (فاطمة) البتول ... بضعة (طه) المجتبى الرسول
صلى عليه الملك الوهابُ ... ما اتصلت بين الورى الأنسابُ

السيد عبد الله بهاء الدين الألوسي
1830 م ـ 1246 هـ

هو أول من عرف من الأسرة الألوسية في العراق بالفضل والزهد. وقد ترجم له ابنُهُ في «غرائب الاغتراب» ترجمة مقتضبة جداً. خلاصتها: ـ «أنه درس نحو أربعين سنة في مدرسة أبي حنيفة النعمان، وكان يذهب إليها ماشياً وكان مع ذلك يدرس في (مدرسة المولَخَانة) التي جعلها داود باشا خاناً وسوقاً، ونقل التدريس إلى بعض منها يسمى اليوم (بالآصفية). ودرس نحو أربع سنين في مدرسة درس بها. ووعظ وخل الشباب غير مماذِق، في جامع محمد الفضل[1] ابن إسماعيل بن جعفر الصادق. وحج قبل أن يتزوج ثلاث مرات، وذهب إلى مصر لزيارة أخيه (السيد حسن) فوجده يوم دخل قد مات.. وكان نقيّ الذات، بهيّ الصفات، زكي الأعراق، وافي الوفاء، لا يخل بحقوق الأخلاء. ترشح بالصلاة جلدته، وتشْرح الصدورَ رؤيته، ما رأته عيون الأسحار إلا قائماً، وما أبصرته مواسم الأبرار إلا صائماً...».

وتوفي رحمه الله تعالى في الطاعون سنة 1246 هـ، وأعقب ثلاثة أبناء كانوا نجوماً وضاءة وبدوراً شارقة في سماء العلم والأدب. وهم ـ

---

(1) كتب في هامش الغرائب ـ هو أخو السيد سلطان علي الصغير فهما ابنا إسماعيل وما دعاه بعض الكذابين أن علياً هذا أبو أحمد الرفاعي بهتان

السيد محمود شهاب الدين، والسيد عبد الرحمن، والسيد عبد الحميد. والأولان من (صالحة) بنت العالم الأديب الشاعر الشيخ حسن العُشاريّ صاحب الديوان المعروف باسمه المتوفى في حدود الألف والمائتين[1].

وها نحن نترجم لكلٍ منهم بادئين بالثاني فالثالث لقصر الكلام عليهما، ثم الأول لتشعب أطراف القول وطول ذيوله عليه. والله المستعان.

(1) توفي في البصرة وكان أرسله الوزير سليمان باشا الكبير مدرساً إليها. وله مؤلفات في الفقه والنحو وديوان شعر. ومنه نسخة (بخط أستاذنا المرحوم علاء الدين الألوسي) في الخزانة النعمانية بمرجانة.

- 1 -
السيد عبد الرحمن الألوسي
1867 م - 1284 هـ

هو واعظ بغداد الكبير، وفَيْصلها العدل. له خبرة بالتفسير والحديث والفقه، ومشاركة بالعلوم النقلية. أخذ عن شقيقه الإمام أبي الثناء، وصرف غالب عمره في التعليم والإرشاد، ولا أعلم أنه ألف شيئاً. وقد جلس في جامع الشيخ صَنْدل أكبر جامع في الكرخ للوعظ والتدريس وخطب فيه إلى وفاته، وكان قد بلغ الغاية في حسن الوعظ والنصح والتذكير والترغيب والترهيب.

إذا ما رقى للوعظ ذروة منبرٍ لخطبته، فالكل مصغٍ ومنصتُ

وكان محمود السيرة، طيب السريرة، يحب الفقراء، ولا يميل إلى الأمراء، ذا كلمة نافذة، وإشارة متبعة، محبوباً لدى الخاصة والعامة فكانوا - ولا سيما عوام الكرخ - يركنون إليه في فصل القضايا، وحلّ المشكلات، ولا يعدلون بقوله قولاً، ولا يرون كفعله فعلا، حتى قيل إن الحكومة كانت تشكو انصراف الأهلين عنها بكليتها!

وقد كان الولاة - ولا سيما نامق باشا الوالي والمشير على خطة العراق - يستدْنونه منهم، ويخطبون وده، ولكنه لم يكن بالذي يألفهم ويرغب في صحبتهم أو يميل إليهم. . .

توفي رحمة الله بعلة الباسور الثلاثاء 13 ربيع الثاني سنة 1284 هـ فاحتفلت الحكومة والأهلون بجنازته احتفالاً مهيباً. ودفن قرب أخيه بمقبرة الكرخي. وأبّنه السيد عبد الغفار الأخرس ومحمد سعيد النجفي وغيرهما من الشعراء بجمع كثيف على نحو الحفلات التي تقام اليوم.

❁ ❁ ❁

وإليك مثالاً من نثرة نقلاً عن إحدى مجاميع أستاذنا العلامة السيد علاء الدين الألوسي، قال يقرظ كتاباً: -

بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا هو الدر المختار، من كنز دقائق الأفكار، إلى مناهج معالم الأبرار. والبحر الرائق، المتموّج بالحقائق. والروض النضير، الزاهر بأنضر الأزاهير. وتنوير الأبصار والبصائر، العادم للأشياء والنظائر. وهداية القاري، إلى فتح الباري. والجوهرة المفردة، في العقود المنضدة. والبدر المنير، في أفلاك التحريز. والعذب النير، السائغ في أفواه النحارير؛ واستخرجته الفكرة الوقادة، بذبالة مصباح الشريعة، وفاضت به القريحة النقادة، السائلة بمعين المعاني البديعة. وفتحت أكمامه يد الروية البيضاء، وأشرقت من مطلع الفطنة الغراء.. من الفاضل الذي استغنى بشمس بصيرته، عن نور بصره، واكتفى بإشراق فكرته، عن مشاهدة نظره. الذي أبصر دقيق المعاني من وراء حجاب، وشاهد جمال غواني الحقائق من تحت نقاب. الذي أنسى تذكرة داود بقانون فضله، وتعرّى عن مَعَرّة المَعَرّيّ إذا تجلبت بصفيق فضله، ومتين عقله. فهو صدر الشريعة، حيث تنقى جمال النقاية، وللحق أقوى ذريعة، إذ استجنّ بماله من منيع الوقاية، جامع العلوم العقلية والنقلية، والحاوي للدقائق الفرعية والأصلية، مصطفى الأفاضيل، ومنتقى كل كامل، فكك تقويم نظامه العويصات، وسهل بتدقيقاته صعب المشكلات، ذي الفضل الجليل الجلي، جناب الملا مصطفى أفندي الموصلي، لا زال مقلداً من جواهر نظامه جيد

الدهر، ومنظماً شمل الفضل المشتت في كل عصر. فلقد أبدع، فيما أودع، فيما حبر، وتخصص، فيما لخص. وأطرب، فيما أطنب، . وأعجز، فيما أوجز. فللَّه دره من فاضل كأن النظم طوع لسانه والعلم حشو جنَانه، والذكاء دثاره، والفطنة شعاره، وفقه الله تعالى لنيل آماله، وزاده من فيض فضله وأفضاله.

- 2 -
السيد عبد الحميد الألوسي
1906 م - 1324 هـ

هو العالم المتصوف الأديب الشاعر الضرير. ولد في بغداد سنة 1232 هـ ولم يكد يبلغ عاماً من عمره حتى دامه الجُدَريِّ فذهب بنور عينيه، وتركه أعمى لا يبصر من حوله، ولكنه اعتاض بتوقيد نور البصيرة عن نور البصر. فكان منذ طفولته آية في النباهة والذكاء وتوقد الذهن، وتذكر عنه عجائب وغرائب لا يكاد يصدقها العقل. ولا بدع فإن الأعمى قلّ أن يوجد بليداً، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكيّ فطن يدرك الرموز ولا تخفى عليه الأحاجي. والسبب في ذلك «أن ذهن الأعمى وفكره يجتمعان عليه، ولا يعودان متشعبين بما يراه؛ ونحن نرى الإنسان إذا أراد أنْ يتذكر شيئاً نسيه - أغمض عينيه، وفكر؛ فيقع على ما شرد من حافظته» ولله قول أبي العلاء:

سواد العين زار سواد قلبي ليتفقا على فهم الأمور

- وحفظ القرآن وهو ابن ست سنين على ما يقول! ثم قرأ طرفاً من النحو والصرف وغيرهما على أبيه، ولازمه إلى أن توفي فاضطر إلى مراجعة بعض المشايخ ثم لازم أخاه الكبير الإمام أبا الثناء الألوسي، وتأدب بأدبه، وتخرج به، في المنقول والمعقول، والفروع والأصول،

فأجازه بثبته المسلسل عن مشايخه وحرر له إجازة بخطه وختمها بختمه (وذلك في 6 شهر ربيع الأول سنة 1266 هـ) فتصدر حينئذٍ للأفادة والوعظ. وكان طلق اللسان، فصيح البيان، قويّ الجنان. فاتفق أن حضر وعظه في جامع «داود باشا الكبير» الوزير علي رضا باشا والي بغداد وجماعة من الأمراء والكبراء والأعيان فأعجبوا بذلاقته؛ وقوة عارضته، فنصبه الوزير المذكور مدرساً في «المدرسة النجيبية» ببغداد، براتب وافر، وأقطعه أراضي لتسد عوزه، وتكفيه المؤونة، فانتفع به الطلاب انتفاعاً كبيراً.

وقد كان منذ صغره ميّالاً إلى التصوف، ثم ما عتم أن توغل - ولله الأمر - في مآزق المتصوفة الوعرة، ومضايقهم المظلمة فسلك الطريقة القادرية، فالنقشبندية، فالرفاعية؛ وأُجيز بها. ثم صار له في الطرائق الثلاث أتباع ومريدون ادعو فيه (الولاية) وذكروا له (الكرامات) و(الخوارق). وتلك شنشنة عرفناهما لهؤلاء من عهد غير قريب. أصلحهم الله! ولكن أحد مشايخي حدثني عنه فقال: إن السيد عبد الحميد وإن كان من أهل التصوف والطرائق إلا أنه لم يسمع عنه ما يخالف ظاهر الشريعة ولا ما يتكلف في تأويله كما حكى عن بعض المتصوفة الأقدمين كالحلاّج وابن عربي وابن سبعين ومن على شاكلتهم ممن حكيت عنهم المقالات الزائغة التي خرقوا بها سياج الدين. وأضلوا كثيراً من المسلمين.

ثم إنه انزوى في بيته في الرصافة أربعين عاماً أو أكثر، ولم يخرج منه إلا لصلاة الجمعة والعيدين. فكان يزوره أتباعه ومريدوه، وتفد إليه الجماعات من الخاصة والعامة تقبل وترجو دعاؤه - إلى أن توفي صبيحة يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى 1324 هـ عقيب مرض لازمه نحو عشرة أيام. ودفن في مقبرة الجنيد في الكرخ مقابلاً للباب الخارج من سور

صحن مرقده[1]. فرثاه الأدباء نظماً ونثراً، وأرخوا عام وفاته بتواريخ عديدة، منها قول بعضهم:

قد نفث الروح بتاريخه: (هنيء بالرضوان عبد الحميد)

ويقال إن بعض تلاميذه جمع بعد وفاته كتاباً فيما عثر عليه من نظمه ونثره وإجازاته وما أجيز به، وما قيل في مدحه ورثائه، وأسماه «الدر النضيد. من كلام السيد عبد الحميد».

❀ ❀ ❀

ولم يؤلف السيد عبد الحميد ـ فيما أعلم ـ غير كتاب واحد في العقائد اسمه «نثر اللآلي. في شرح نظم الأمالي» شرع في إملائه غرة شهر رمضان سنة 1271 هـ وفرغ منه في غرة السنة الثانية والسبعين على ما ذكر في آخره فتكون مدة تأليفه وإملائه أربعة أشهر. وقد اعترض فيه على مواضع عديدة من شرح العلامة ملا عليّ القاري.. وطبع في مطبعة الشابندر ببغداد سنة 1330 هـ فجاء في 292 صفحة ما عدا التقاريظ.

❀ ❀ ❀

وكان رحمه الله شاعراً مطبوعاً رقيق الشعر جيد التغزل حسن الأسلوب عذب الألفاظ. **ومن شعره قوله في مدح أحد مشايخه:**

تنوح حمامات اللوىٰ وأنوحُ ... وأكتم سرّى في الهوى وتبوح

وتُعجم إن رامت أداء مرامها ... ولي منطق فيما أورم فصيح

لها مقلة عند التنائي قريرة ... ولي مدمع يوم الفراق سَفُوح

وأنّى لذات الطوق طوق على الجوى ... وجفن إذا شح السَّحاب سَمُوح

تروح وتغدو في أمان من الهوى ... وأغدو كئيباً بالهوى وأروح

---

(1) أعقب أربعة أولاد: 1 ـ شمس الدين. 2 ـ لبيب. 3 ـ حسني. 4 ـ شوقي. وتصدر الأول للتدريس بعد وفاة أبيه وشغل عدة مناصب شرعية.

وأخبار وجدي في انام شهيرة … وعن سقمي إن الغرام صحيح (؟)
صبور على مر الغرام وعذبه … أبيٌّ ولكن الغرامَ لَحوحُ
أحاول كتمان اشتياقي تصبراً … وأُخفي ولكن الغرام فضوح
إذا تم أقسام الجمال بحيِّزٍ … فإن جميل الصبر عنه قبيح
وأن أجهد العُذّال فيَّ بنصحهم … تصاممت خوفاً أن يلج نَصُوح
فللَّه صبٌّ لا يبلّ غليله … وإنسان عين بالدموع سَبُوحُ
غريق بفيض الدمع متقد الحشا … ومن نوحه أضحى الحمام ينوح
معنّى أذاب الشوق مضنى فؤاده … أسير بأشطان العناء طريح
يريق بروق الأبرقين إذا بدا … لبرق الثنايا طرفه لطموح
وبي أهيف يهوى البعاد ووكره … سويداء قلبي وهو عنه نزوح
لواحظه قد حرمت نيل وصله … ولكنّها قتلَ الشجيّ تُبيحُ
به صدحت في الناس كل خريدة … فهنّ به قيس الهوى وذريح
لقد حاز من فن البلاغة ماغدا … يحاكيه ضوء الصبح حين يلوح
كما حاز قطب العارفين أبو الرضى … مناقبَ فيها للغموض وضوح
فتى كله عفو ولطفٌ وعفةٌ … وعن زلّة الشاني الحسود صفوح
سرى سره في الخافِقَيْن وفيضُه … فأثنى عليه أبكم وفصيحُ
ومجلى تجلّى الحق مظهر سره … فمن فيضه للعالمين فُتوح! . .
حليمٌ وهل كالحلم في المرء زينة … سَمُوح وذو الشأن الجليل سَمُوح
وفارس فضل لإيجاريه عارف … وأنّى يجاري العاديات جَمُوح
وغوث! إذا ماشحَّ غيث بسحه … بأمثاله صَرْف الزمان شحيح
له همة في النازلات علية … ورأيٌ لدى الخطب المُلِمّ رجيح
يفوح بأفواه العدى نشر فضله … كما فاح نشراً في المجامر شيحُ
لَكَ الله مولى عن مساوٍ منزه … وهل يستوي ذو علة وصحيح؟
عن الغيب تروي شرح كل حقيقة؟ … فكم لك عن متن الغيوب شروح
لقد عطر الأرجاء منك فضائل … فوصفك مسك في الأنام يفوح
وحزت من الرحمن سرّاً أقله … يضيق عليه الكون وهو فسيح

وأعربت عن مكنون كل خفية فما مختفٍ إلا لديك صريحُ!
مزاياك في هذا الزمان كأنها صباح بأحلاك الظلام صبيح
فأنت لأسرار الطرائق مَعْدِنٌ وأنت لأشباح الحقائق روح

وبدر منير ليس يلفىٰ سراره
وبحر محيط بالعلوم طفوح

وقال يمدح أخاه الإمام أبا الثناء:

قفا واسألا عن مهجتي الغادةَ العذْرا ولا تقبلا يا صاحبيَّ لها عُذْرا
في من هواها ما يرى الصبر دونه هباءً وأنىّ يستطاع لها صبرا؟
ألا ذكرا (أسما) بنجد عهودنا زمان وصال لم نكن نعهد الهجرا
وهل بعد دهرٍ يا (هذيم) تذكرٌ لناءٍ فلا هجراً، وأنىّ له الذكرى؟
سرى طيف (أسما) طارقاً فاستفزني وقد أضرحت أحشاؤها في الحشا جمرا
يذكرني أيام نجد وصفوها جزى الله نجداً ما تذكرتها خيراً
وروَّى صداها وابل السحب هاطلا فأحيا الحَيَا أرجاء أحيائها القفرا
ألا بلغا نجداً على ذاتِ بيننا سلاماً وخُصَّا من رباها حمى (عفرا)
فإن فراش الطرف ما زال حائماً عليها كطير حام ملتمساً وكرا
وليلة أنّتْ والسماء كأنها مصابة رزءٍ تندب النجم والبدرا
رثتها الغوادي فاستهلت عيونُها من الدمع عقدا قلد البر والبحرا
تبدت فشمنا البرق لاح مبرقعاً وشكس الضحى قد ألبست حُلّة حمرا
أدارت كؤوساً من لجين حلت بها يتيمة عنقود حكى لونها التبرا
وتطربنا والليل أرخى سدوله (إميمٌ)، و(أسما) لم تزل توقظ السكرى
تُعللنا طوراً وطوراً تعلّنا حديثاً وريقاً أخجلا السحر والخمرا
إلى حيث غار النجم في ظهر أدهم ووافى بريد النور ممتطيّا شقرا
وكاد ضياء الصبح أن يفضح الدجى وكان عمود الفجر أن يهتك السترا
وجيش (النجاشي) شنَّ غارة مدبر وأقبل يطوي البيد في جنده (كسرى)
وشتت شملَ (الزنج) بالبيض (قيصرٌ) فأصبح وفد (الروم) مستولياً قهرا

فلما رأت أن قد بدا النور وانثنى ... على أثر الديجور يختبط الغبرا
بكت ليلنا الماضي بلؤلؤ أدمع ... فطوراً لها نظمٌ، ونثرٌ لها طورا
وفارقت الصب الكئيب وبادرت ... تداري على المشي الخلاخل والعطرا
فلم أنسَ ذاك الأُنس ليلةَ أسفرت ... وعاينتُ من لألآء غرتها الفجرا
فمن شاهَد الياقوت قبل شفاهها؟ ... ومِنْ قبل ذاك الثغر مَنْ عرف الدرا
بروحي فتاة كالقناة إذا انثنت ... وهيفاء عَذْرا قد تولعتِ الغَدرا
لعمرك ما أدري ببيض لحاظها ... أصابت فؤادي أم بصعدتها السمرا؟
حواجبها مثل القسيّ إذا رَنَت ... رمت أسهماً هيهات مجروحها يبرا
تحاول ذليّ في هواها وربّما ... يقود الهوى للذل ذا عزة حُرّا
وتوعدني هجراً طويلاً ومن يكن ... حماه (شهاب الدين) لم يَخْف الهجرا
أخي الحبر (محمود) السجايا (أبو الثنا) ... وعلامة الدنيا وواسطة الأخرى
هو الغيث يروى عن بدائع فكره ... هو البحر إلا أنه يقذف الدرا
إليه رواة العلم من كل جانب ... تخدُّ من البَيْد أسبَابَها القفرا
تروّي صداها من بحار علومه ... وماذا على الظآن أن يقصد البحرا؟
به الدين أضحى ساطع النور زاهراً ... كذلك رياض العلم ساطعة زهرا
إذا ما دجا في العلم ليلُ خفية ... تجلت لها أنوار آرائه فَوْرا
لقد شاد مجداً ساد كل معاصر ... وفاز بما أنشأ لأسلافه ذكرا
أقام لبيت الحمد أعلى دعائم ... فأصبح بيت الحمد مرتفعاً قدرا
إذا بخل الغيث الهتون بمائة ... كفانا ندى كفَّيْه عن وكفه دهرا
له الجود لو حل الحصى الصلد حَلَّه ... وأنزله من مرسلات الحيا قطرا
ورأىٌ رمى سرَّ العيوب فلم يدع ... وإن بالغت في كتم غيبتها سرا
فماذا يقول الواصفون بوصفه ... وقد أعجزت أوصافه النظم والنثرا؟
فيا مَعْدِنَ الآداب والفضلِ والتقى ... وعيلم علم طبق السهل والوعرا
ويا واحدَ الدنيا وإنسانَ عينها ... وناظرها الرائي وآيتها الكبرىٰ
يميناً لأَنت الصبح إن عسعس الدجى ... ويسر البريا حين تلتمس اليسرا
فلو عَرَفَ (الرازي) معارفك التي ... مع العرف قد ضمت للقبك (الفخرا)

وضلَّ الحكيم الفيلسوف لأنه ... على جهله عدَّ العقول لنا عشرا
لقد عطَّر الأرجاء منك فضائل ... فوصفك في الأقطار مسك زكا نشرا
فدونك عقداً يخجل النظم نظمه ... وخود رضت (!) منك القبول لها مهرا
وسامح فدتك النفس عبداً مشوشاً ... دهاه من الأيام ما أشغل الفكرا
ومُنَّ على الداعي بصفح أبا الثنا ... وجُدْ وٱعْفُ واسمح منةً واقبل العذرا
فلا زلت بحراً بالفضائل زاخراً ... ولا زلت يا رب النهى في العلى بدرا

وله من قصيدة:

هيهات! هل تلج الملامة سمع ذي ... ولهٍ أسير لا يروم سراحا؟
أم كيف يسلم مسلم من فتنة ... والله قد ملأ الوجود ملاحا؟
كم كل ذي قدّ ولحظ فاتك ... للفتك جرَّد ذابلا وصفاحا
كالغصن أو كالظبي أو كالبدر أوْ ... كالشمس أو كالصبح لما لاحا
يبدو بخدّ مصقل وبمبسم ... فيريك ورداً أحمراً وأقاحا
ومراشفاً مثل العقيق ووجنة ... مثل الشقيق ومنظراً وضاحا

«أبو الثناء»
الإمام السيد محمود شكري الألوسي
1854 م ـ 1270 هـ

هو طود العلم، وعَضُد الدين، وفحل البلاغة، وأمير البيان، وعين الأعيان وإنسان عين الزمان. انفسخت في العلم خُطاه فأذعن له المحب والمغتاظ، وأرزم سحاب أدبه فروّى الغياض والرياض، فهو ابن العلم وأبوه، وعم الأدب وأخوه، وله من المكانة الرفيعة والمقام المحمود ما يغنى عن الإشادة بذكره. والإطالة في اطرائه.

ولد السيد محمود قبيل ظهر رابع عشر شعبان سنة (1217 هـ) بالكرخ فـ «تكملت العليا بميلاد محمود». و«إثر ما فطم من ارتضاع الألبان شرع يتحسى دَرَّ قراءة القرآن؛ وقبل أن يبلغ من تسدية ما بين الدفتين الأمنية طوى على نول قلبه رداء حفظ الآجرومية، وفي أثناء ذلك، حفظ ألفية ابن مالك؛ وقرأ غاية الاختصار في فقه الشافعية. وحفظ في علم الفرائض المنظومة الرحبية: كل ذلك عند والده وكان قبل أن يبلغ السنة السابعة من عمره. ثم إنه لم يزل يقرأ عنده، ويحسو دَرَّه وشهده، حتى استوفى الغرض من علم العربية وحصل طرفاً جليلاً من فقهَيْ الحنفية والشافعية، وأحاط خبراً ببعض الرسائل المنطقية، والكتب الحديثة، وكان يزقّه العلم ليلاً ونهاراً. ويزفه أن ونى سرا وجهارا». ولما بلغ العاشرة من عمره. أذن له بالأخذ من غيره فأتم دروسه على كثير من علماء عصره. منهم: الفاضل عبد العزيز الشواف، والعّلامة

السيد محمد أمين الحليّ. والعالم المحدث الحافظ السلفي الجليل الشيخ علي السُّوَيْديّ، والشيخ خالد النقشبندي، والعالم الأديب المتفنن النحرير علاء الدين عليّ الموصلي وقد استجاز هؤلاء وغيرهم في علوم اللغة والدين والآداب والفقه والحديث وغيرها من المنقول والمعقول. وكانت خاتمة إجازاته على يد الشيخ علاء الدين ـ وكان قد لازمه نحو 14 عاماً ـ في يوم مشهود حضره جلة العلماء والأدباء والوجهاء. وكان ممن حضر ذلك الاحتفال المرحوم رأس التجار الحاج نعمان الپاچچي فأعجب به غاية الإعجاب، واقترح ـ بعد أن طوي بساط الاجتماع ـ أن يكون مدرساً في مدرسته في محلة (سَبْع أبكار) المعروفة في التاريخ بمحلة (نهر المعلى) فأجاب اقتراحه، وأقبل على مهمته، فتأججت نيران قلوب حساده فلم يطفئها إلا خروجه منها[1]. ثم أن عمرّ الحاج أمين شقيق النعمان مدرسة ومسجداً في محله (رأس القرية) فنصبه هنالك برغم الحاسدين مدرساً له وواعظاً وخطيباً فأفاد الناس بغزارة علمه وزواجر مواعظه وخطبه ما شاء الله أن يفيدهم ويثقفهم.

ولما اجتاحت سادةَ الكرخ جائحة الطاعون (سنة 1246 هـ) قضى والده فيمن قضى، وسار فيمن سار من أهل بيته «فليس الزمن له جلد النَمِر، وجعل يكرّ عليه ويفرّ. وجرت له أمور، منها السماء تمور. ووقعت مواد، تشيب لذكرها لم المداد.»[2] فاضطر إلى هجر سكنى داره بالكرخ؛ وسكن في جوار مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني (الجيلاني) في الرُّصافة.

وكان في زمن أبيه محافظ كتب مدرسة الشهيد علي باشا التي كان والده فيها ثالث المدرسين.

---

(1) راجع مقامته (الأهوال من الأخوال) تجد تفصيل ذلك.

(2) التفصيل في مقامته (قطف الزهر من روض الصبر).

وفي شهر رمضان (سنة 1250 هـ) دعي للوعظ في جامع الكيلاني (الجيلاني) فأجاب مكرهاً، واتفق أن حضر درسه وسمع وعظه الوزير علي رضا باشا والي بغداد فدهش واستغرب وأعجب بحسن بيانه. وقوة عارضته وفصاحة لسانه، وعلقت به نفسه، فدعاه إلى زيارته في العيد، فلبى دعوته ولزمه ما شاءت له أوقاته، وأعاد إليه (وظائفه) التي اغتصبت منه اغتصابا. وفي أثناء ذلك شرح (البرهان في إطاعة السلطان) فقدمه إليه فأجازه عليه بتولية أوقاف مدرسة مرجان وهي مشروطة لأعلم أهل البلد، وجلب له رتبة «تدريس الأستانة» من السلطان، ثم نصبه مفتياً للحنفية ـ وكان قد وعده بذلك يوم سمع وعظه ـ فهنأه الشعراء بقصائد رنانة أثبتت في مجموعة (حديقة الورود).

وفي هذا الحين أخذ يكتب تفسيره «روح المعاني» في أوقات الفراغ. وابتاع داراً من أكبر دور بغداد ملاصقة لجامع (الشيخ عبد الله العاقوليّ) في الرصافة حيث تسكن أسرته اليوم وجعل قسماً منها مأوى لروَّاد العلم فقصده من أطراف العراق وكردستان، وتهافت عليه الطلاب تهافت الظلماء على الشراب، فكان يتدرسهم ويواسيهم كما كان يدر على سائليه ما نالته يده من الذهب، وما بلغ إليه علمه من الفضل والأدب. وتخرج فريق من أهل الفضل به فذاع صيته في الآفاق وراسله أكابر الكتاب والعلماء. ومدحته الأدباء والشعراء. فأبلغ آيات المديح وأبرع جمل الثناء. وممن بالغوا في إطرائه ومدحه الشعراء المشاهير: عبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري وأحمد عزت باشا العمري وعبد الحميد الأطرقچي وصالح التميمي وغيرهم.

ثم لم يزل ذلك الوزير يُعلى شأنه ويقدمه حتى قلّده من أيادي السلطان (بنشان) وذلك بعد أن وردت عدة أسئلة من إيران، أحجم عنها علماء الزمان فنهض هو للإجابة عنها فكان أبا حسن تلك القضية. وفارس حلبتها المجلي عن إشكالاتها ورموزها كل خفية.

ثم اتفق أن نقل علي رضا باشا إلى (دِمَشْق) وعين بدله على بغداد محمد نجيب باشا والي دمشق فأساء معاملة أبي الثناء بإغراء مبغضيه، وسعاية حاسديه حتى عزله عن منصب الإفتاء فانقطع لإتمام التفسير. ثم رفع عنه وقف مرجان، «فأسبلت عليه سُجف الأحزان، وقطع العوز نياط قلبه، فصار عُثَبْثة أثاثه وفويرة كتبه. حتى كاد يأكل الحصير. ويشرب عليه مداد التفسير!». وما كانت هذه الإساءات لتشفى غلَّ الوالي ووغره على أبي الثناء بل ما برح يكيده ويضيق عليه الخناق ويتربص به السوء. فمن ذلك أنه دعى ـ قبل انفصاله من الإفتاء ـ من قبل السلطان لحضور وليمة ختان أشباله «فأفهمه إشارة إنه إن خرج من البلد، تردى بخناق الكمد، ثم أشار عليه بالاعتذار، وعرض تعذر السفر لبعد الدار، مع الاشتغال بالتفسير، والقيام بمصالح الوزير، فكتب حسبما أشار، وكتب الوالي أيضاً إلا أنه أولج الليل بالنهار» ومع ذا أوصل كتابه على يد (الباليوز الإفرنسي) فأهوى به ذلك إلى وخيم المهاوي، فكان من ذلك ما كان من عزله عن الإفتاء وسلب أوقاف مرجان من يده فاشتداد العسر والضر عليه أن ورد أحمد بك ابن الوزير المذكور فنظر إليه بعين اللطف وأعزه فهان عليه في الجملة الأمر. حتى إذا انفصل الوزير محمد نجيب وصار أمر الولاية إلى عبد الكريم باشا ولم يحصل له ما ينقذه من غائلة العيال لم يجد بداً من ركوب غارب الاغتراب ليعرض حاله على أنظار الدولة وكان قد أتم تفسيره، فاصطحبه وسيلة إلى بلوغ مراده.

ففي غرة جمادى ستة من سنة (1267 هـ) قلقل ركابه عن حمى بغداد ومعه سليمان بك الكاتب التركي الشهير والد الصدر محمود شوكت باشا. ومصطفى بك الرَبَعي، والنواب إقبال الدولة. والوالي عبد الكريم باشا وقد نُقل هذا من الزوراء إلى آمد السوداء ـ فمر بالموصل فجزيرة ابن عمر فآمد فارزن الروم (أرضروم) فسيواس فتوقات فسامسون فالقُسْطَنطينيّة. وكان كلما مر ببلده تهافت عليه أعيانها وعلماؤها لرؤيته والاقتباس من شوارده، وكثيراً ما جرت بينه وبينهم مباحثات ومطارحات

علمية تكفل بتفصيلها كتابه «غرائب الاغتراب».

وأول من التقى به في القسطنطينية شيخ الإسلام (عارف حكمة) صاحب خزانة الكتب الشهيرة في المدينة المنورة فعرض عليه تفسيره وما جاء من أجله فأنكر منه ما رآه من انصراف نفسه عنه لما كان قد سبقه إليه من وشايات الحساد ثم ما لبث أن زال هذا العارض وحل القبول محله، ودارت بينهما مباحث علمية، ومناقشات أدبية، ومحاورات فنية، دلت على سعة اطلاعها وغزارة مادتهما وتوسعهما في علوم الدين والأدب، وأجاز كل صاحبه.

وبعد نزوله دار الضيافة السلطانية أُمر بكتابة مذكرة عن حاله وما يرجوه إلى الصدر الأعظم وكان إذ ذاك مصطفى رشيد باشا. فكتبها في اليوم الثالث وألحق بها ورقة كتب فيها بيتين مضمناً لهما شطراً من شعر أبي فراس الحمداني وهما: -

قصدت من الزوراء صدراً معظما	وقد سامني ضر وقد ساءني دهر
فقلت لنفسي والرجاءموفر:	«لنا الصدر دون العالمين أو القبر»

❁ ❁ ❁

فأعجبت الصدر أيما إعجاب وبعد لأي ما صدرت إرادة السلطان عبد المجيد بإعطائه مبلغ(25000) «قرش استنبولي» وله مثلها أو ما يزيد عليها في كل عام من بيت المال. ووجه إليه قضاء أرزن الروم فلم يقبله، وأنعم عليه صاحبه شيخ الإسلام بخمسين ألف قرش استنبولي من خالص ماله.

ثم آب إلى وطنه بعد أن غاب عنه مدة 21 شهراً يحفّه الجلال والوقار، فهنأه الأدباء والشعراء بقصائد عامرة، وسروا بقدوم قطب رحاهم سروراً عظيماً... وقد فصل رحلته هذه في ثلاثة كتب سيأتي

ذكرها. وما زال بيته مثابةً للناس وأمنا إلى أن توفي يوم السبت 25 ذي القعدة سنة 1270 هـ بالحمى النافض التي اعترته في إيابه من مطر شديد أصابه في الزاب، فعزّ على الناس موته، وهالهم فقده، وأسفوا عليه أسفاً عظيم، ورثاه الشعراء في كل صُقع بقصائد مشجية مثلوا فيها الأسى والحزن (وقد عنى بجمع ذلك مع ما قيل في مدحه بعض تلاميذه في كتاب كبير أسموه «حديقة الورود في منائح أبي الثناء محمود»). ودفن في مقبرة معروف الكرخي على يسار الذاهب إلى مسجده تاركاً خلفه ذكراً حسناً وذرية طيبة وأنجالاً كراماً حفظوا مجد بيته إلى يومنا هذا.

وأولاده هم: (عبد الله). (عبد الباقي). (نعمان). (محمد حامد). (شاكر). وسنأتي على تراجمهم وتراجم من نبغ أنجالهم إنْشاء الله تعالى.



صفاته:

وصفه أحد أفاضل تلاميذه فقال: ـ

«كان أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمه. وذكائه وفهمه. نادرة الأدوار وفلك المجد والشرف الذي له على قطب الكمال مدار، بصفاء الذهن والقريحة. ونهاية الفطنة. وسرعة الخاطر. وحروة المنطق. وعذوبة التقرير. وحسن التحرير. وشرف الطبع. وكرم الأخلاق. وقوة الحافظة وبلاغة الإنشاء. وقول الحق واتباع الصدق. وحب السنن. وتجنب المنن. وحسن السير. وحلم السريرة. وبهاء المنظر. وكمال المخبر: أخذ بيد العلم عندما زالت به القدم وكاد يهوي في مهاوى العدم. حتى جاء مجدداً. وللدين الحنيفي مسدداً.

«وكان كامل الوجاهة عظيم الهيبة جليل الوقار. كثير الصدقات والصلاة والاستغفار. حاوياً لفضائل يعجز عن ذكرها الناقل. وأين الثريا

من يد المتطاول؟ وقد رسخ في كل منقبة علية. ومهر في جميع العلوم نقلياً وعقلياً على السوية. بيد أنه كان جلّ ميله إلى خدمة كتاب الله تعالى القديم. وحديث جده عليه أفضل الصلاة والتسليم. غواصاً في دقائقهما ومستخرجاً درر حقائقهما. وكان سلوكه في تفسيره أمراً عجيباً. وسراً من الأسرار غريباً. فإن نهاره كان للإفتاء والتدريس. وأول ليله لمنادمة مستفيد وجليس. فيكتب في أواخر الليل منه وريقات، فيعطيها صباحاً للكتاب الذين وظفهم في داره فلا يكملونها تبييضاً إلا بنحو عشر ساعات.. وكان في غاية الحرص على تزايد علمه. وتوفير نصيبه منه وسهمه. لا يفترُ عن اقتناص الفوائد برهة. ولا يغفُلُ عن استخراج الدقائق والازدياد من الفضائل لحظة. فهو - وإن رأيته يسامر أحبته - مشغول الفكر بحلّ المشكلات أو ماشياً لمسجده فهو متفكر بحل المعضلات. ولا يعتريه كسل أو ملال. ولا يتشوش بسعة أو مرض أو ضيق حال.. وكان كثيراً ما ينشد:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي   من وصل غانيةٍ وطيب عناقِ

وكان عالماً باختلاف المذاهب. مطلعاً على الملل والنحل والغرائب. سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب. إلا أنه في كثير من المسائل يقلد الإمام الأعظم، بل كان في آخر أمره يميل إلى الاجتهاد، كأمثاله من العلماء النقاد. وكان حسن الثياب والمنظر. جليل المخبر. حسن الصورة. نقي السريرة. أبيض مشرباً بحمرة. ليس بالقصير ولا الطويل ولا النحيل».

وقال أيضاً:

«كان نسيج وحده في النثر وقوة التحرير. وغزارة الإملاء وجزالة التعبير. وكلامه عفو الساعة. وفيض القريحة. ومسارعة القلم. ومسابقة اليد. كأنما جميع المعاني حاضرة لديه. والعبارات مسطورة بين عينيه. فهو ينتخب منها ما يشاء ويختار ما تقر به عيون العلماء والبلغاء. وقد

أملى كثيراً من الخطب والرسائل. والفتاوى والمسائل. وذهب أكثر ذلك شذر مذر. ولم تظفر الأيدي إلا بقطرة من بحر. وكان إذا تكلم لا يمل له كلام. وإذا تحاور حير الإفهام. ذا حافظة عجيبة. وفكرة غريبة. وكثيراً ما كنت أسمعه يقول: «ما استودعت ذهني شيئاً فخانني. ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني». وكان له خط كأنه اللؤلؤ والمرجان. أو العقود في أجياد الحسان. . . . . إلخ»:

مؤلفاته:

1 ـ (روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وهو أعظم مؤلفاته شأناً وأجلها قدراً. في تسعة مجلدات ضخام. طبع في مطبعة بولاق بمصر سنة 1301 على نفقة ابنه العالم المصلح الشهير السيد نعمان خير الدين. ولعل ما كتبه عنه الأستاذ السيد محمد بدر الدين الحلبي في(التعليم والإرشاد) هو أصح وصف ينطبق عليه. قال:

. . أخذ الألوسي تفسيرُه من تفسير الإمام فخر الدين إلا أنه حذف منه كثيراً من الزوائد، وأضاف إليه وأحسن غاية الإحسان ـ شيئاً من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم وإن لم يميز بين ما قوي سنده من هذه الأقاويل وما هي، فبقي في الأمر بعض لبس وإشكال؛ وأضاف إليه جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة، فلم يكتفِ رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم وتطبيقها على ما أدتهم إليه عقولهم منها عملاً بقاعدتهم المنشودة عندهم من وجوب تأويل النقل إذا عارض العقل حتى يرجع إلى العقل، فأضاف إلى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرّفوا بها القرآن عن ظاهره إلى معان لا تدل الألفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس ـ فجاء كتابهُ جامعاً للطرق الثلاثة: طريقة السلف، وطريقة المتكلمين، وطريقة المتصوفة. إلا أن طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتمييز صحيحها من سقيمها، ولذلك كان ككتب الحديث التي لا يبين

فيها سند الحديث وحال رجاله لا تقع الثقة به سيما إذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح بينهما بوجه من وجوه الترجيح».

2 ـ **(الأجوبة العراقية. عن الأسئلة الإيرانية)** يحتوي على ثلاثين مسألة مهمة (في التفسير واللغة والفقه والعقائد والكلام والمنطق والهيئة وغير ذلك) وردت من إيران ولم يجب عنها أحدٌ سواه. ولقد أجاد عبد الباقي العمري في المقارنة بين الأسئلة والأجوبة أيما إجادة، وذلك حيث يقول:

إن السؤال والجواب مثلما قد قيل في التمثيل أنثى وذكر

وقد طبع الكتاب في (مطبعة مكتب الصنائع) في القسطنطينية سنة 1317 هـ على نفقة اللوذعي الحافظ الشهير المرحوم (ملاّ عثمان الموصلي). وطبع أيضاً على ما رأيت في بعض الفهارس على هامش كتاب خواتم الحكم المسمى بحل الرموز وكشف الكنوز لعلي دده المولوي.

3 ـ **(نهج السلامة. إلى مباحث الإمامة)** رد على الشيعة بليغ. كتب منه وهو مريض نحو عشرين كراسة فعاجلته المنية قبل أن يتمه.

4 ـ **(الأجوبة العراقية. عن أسئلة اللاهورية)** ذبٌّ عن أصحاب النبيّ البررة. أجازه عليه السلطان محمود جائزة عظيمة. وطبع في المطبعة الحميدية ببغداد سنة 1301 بعناية ابنه السيد شاكر.

5 ـ **(النفحات القدسية. في الرد على الأمامية)** لم أقف عليه.

6 ـ **(شرح البرهان. في إطاعة السلطان)**: مخطوط.

7 ـ **الطراز المُذْهَب. في شرح قصيدة مدح الباز الأشهب)** لعبد الباقي العمريّ مطلعها:

جلّ ستر به الضريح تجلّلْ إذْ حوى الفخر مجملاً ومُفَصَّلْ!!

طبع بمطبعة الفلاح بمصر سنة 1313 على نفقة الحافظ الموصلي

أيضاً. وقد كان ـ وهو هو ـ في غنى عن التعرض لمثل هذه الأمور.

8 ـ **(شرح القصيدة العينية)** في مدح الأُمام علي رضي الله عنه لناظمها عبد الباقي العمري: مطبوع على الحجر.

9 ـ **(الفيض الوارد. على روض مرثية مولانا خالد)** «طبع بالمحروسة بالمطبعة الكستلية سنة 1278 هـ».

10 ـ **(غرائب الاغتراب. ونزهة الألباب. في الذهاب والإقامة والإيهاب)** وهو الرحلة الكبرى الجامعة لتراجم الرجال والأبحاث العلمية والأدبية التي جرت بينه وبين (عارف حكمة) وقد استوفى ما كان له في إقامته في القسطنطينية وأعرض عن أشياء «لم يمكنه ذكرها إلى يوم القيامة» ولعل ذلك لأسباب سياسية. قاتل الله السياسة وأعراضها: وقد طبع في مطبعة الشابندر ببغداد سنة 1317 هـ.

11 ـ **(نشوة الشمول، في السفر إلى أسلامبول)**.

12 ـ **(نشوة المدام، في العود إلى مدينة السلام)**.

فصل فيهما رحلته ذهاباً وإياباً وطبعا في مطبعة الولاية ببغداد الأول في سنة 1291 والثاني في سنة 1293 هـ.

13 ـ **(كشف الطرة. عن الغرة)** مختصر درة الغواص وشرحها: وهو كتاب لغوي مهم ألفه في أثناء إقامته في القسطنطينية. وطبع سنة 1301 هـ في المطبعة الحفْنية في دمشق.

14 ـ **(شهي النغم. في ترجمة شيخ الإسلام وولّي النعم)** وهو أحمد عارف حكمة. وقد لخصته وأضفت إليه ما وصلني عنه وعن خزانته العامرة في المدينة المنورة[1].

---

(1) نشر أخيراً في المجلد الثاني من مجلة الزهراء بمصر لمنشئها الأستاذ الكبير السيد محب الدين الخطيب.

15 ـ **(الفوائد السنية. من الحواشي الكلنبوية)** في الآداب والمناظرة: وهي مختصر حاشيةٍ مطنبة جداً للكلنبوي على حاشية مير أبي الفتح على الحنفية في الآداب، اختصرها في القسطنطينية في أثناء تقرئته ابنه عبد الباقي حاشية مير، وكتبها على هامش النسخة ثم جردها ابنه السيد نعمان وجمعها حفظاً لها من الضياع.

16 ـ **(دقائق التفسير)** مجموعة فريدة في بابها ذكرها في ص 431 من غرائب الاغتراب، وأطلعني عليها شيخي المرحوم الإمام السيد محمود شكري حفيد المترجم له وهي في ضمن المجمعة الوسطى لجده هذا.

17 ـ **(شجرة الأنوار. ونوار الأزهار)** ألفها في القسطنطينية وجمع فيها ما شاء الله أن يجمع من ذرية الزهراء. ذكرها في ص 22 من الغرائب.

18 ـ **(سُفرة الزاد. لسفرة الجهاد)** طبع في مطبعة دار السلام ببغداد سنة 1333.

19 ـ **(بلوغ المرام. من حلّ كلام ابن عصام)** ألفه في صباه حين ذهابه إلى أُلوس.

20 ـ **(شرح سلم العروج)**: في المنطق.

21 ـ **(حاشية شرح القطر)** في النحو. كتبها في صباه ولم يتمها ثم جاء ابنه السيد نعمان فأتمها. وطبعت في القدس سنة 1320 هـ.

22 ـ **(مقامات الألوسي)** عدة مقامات حقيقية وخيالية. طبعت في كربلاء ناقصة ومغلوطة.

وله رحمة الله علاوة على ما ذكر حواشٍ وتعليقات ورسائل وفتاوي كثيرة انتهبت كثيراً منها أيدي الضياع. وأنتسخ بيده كتباً جمة. وجمع مجاميع مهمة، يجد الباحث شيئاً منها في الخزانة النعمانية وخزائن كتب أحفاده.

إنشاؤه وأمثلة منه:

ما الحريري في مقاماته، ولا الصاحب في سجعاته، أستغفر الله! بل ما ابن العميد في ترسلاته، والموفق عبد اللطيف في وصيفاته؛ أشدَّ للقلوب خلبا، وأكثر بالألباب لعبا، مما يطرزه أبو الثناء، من بدائع الإنشاء.

إذا كان لكل من هؤلاء المنشئين وغيرهم ممن هم في طبقتهم العليا أسلوبٌ خاص به إذا حاد عنه ربما أبهم عليه الأمر، والتوى القصد، وخانه الإمكان؛ فجدير بأبي الثناء - وقد برّز في جميع أبواب الأنشاء - أن يفضل على هؤلاء أجمعين ويُعدَّ في الرعيل الأول بين أئمة الإنشاء المجلّين في ميادين الفصاحة وجلائب البراعة. فهو من أقدر الكتاب (لا في عصره فحسب بل في العصور المتقدمة أيضاً) على تكييف مناحي الكتابة، وتصريف عنانها، وإجرائها في ميدانها، فيما كتب وحبّرَ في علوم الدين واللغة والآداب.

فبينما ترْاه في التفسير يدبج بيراعة الرازي، وفي اللغة بقلم الجوهري، إذا به في مقاماته يضارع الحريريّ، وفي الرحلة يبزّ ابن جبير أو النابلسي، ويحسن الوصف في النثر، إحسان ابن المعتز في الشعر. عباراته متناسقة، ومعانيه متساوقة. يشربها السمع كما يُشرب الزلال. فكأنما تأتيه أبيّات الألفاظ ونوافر المعاني صاغرة متى شاء. فيستخدمها كيفما يريد في الإنشاء. بغير أدنى تكلف، ولا أقل تعسف، فإنشاؤه في الحلاوة الضربَ. وفي الرقة غاية العجب. وفيه السحر بكليته. والحسن برمته. والإحسان بأجمعه:

معانٍ كالعيون ملئن سحراً وألفاظ موردّة الخدود

فللّه درّه من كاتب. يصطاد القلوب ببدائع الغرائب. وروائع العجائب:

إن هزّ أقلامه يوماً ليعملها　　أنساك كل كميّ هزّ عامله
وإن أقرَّ على رَقٍّ أنامله　　أقر بالرقِّ كتّاب الأنام لَهُ

وقد كان أبو الثناء على تضلعه في العلم ومكانته السامية في الدين لا يبالي أن يطلق لفكره الحرية التامة ولقلمه العنان في ميدان المَجَانة والفكاهة، والظرافة واللطافة. فيجول ويصول، من غير أحجام. ولا تكول. فيطرب بنكاته النفوس، ويشرح بطرائفه الصدور، من غير ما صَنَّاجةٍ ولا وصنطير. مما أبان عن رقة طبع وخفة روح، وسلامة ذوق. وأبى الله لأبي الثناء أن يكون كأولئك المتفقهة المتقعرة ثقيل الروح، جاف الطبع، شرس الخلق، سقيم الذوق...

وقد كان على شيوع السجع في عصره، وسلطانه القوي على أقلام كتاب مصره، يحاول التفصي من سلطته والخراج عليه أحياناً. على أنه إذا سجع جرى كلامه منسجماً عذباً لا يكاد يجد المرء في تسجيعه شيئاً ما من التكلف والتعسف أبداً. بل إنه بعذوبة مذاقه، وأطراد سياقه، ليكاد يمتلك الشعور. ويخلب الألباب، ويسحر النفوس... ويا ما أبلغ ما وصف به نثره وأسلوبه في الكتابة في مقدمة غرائبه:

قال:

«... وكأني بك تجده - إن شاء الله تعالى - كتاباً نشد إليه الرواحل، وتطوى لنيل المنى من فصوله وأبوابه المنازل. حيث تضمن مباحث لطيفة. ومطالب شريفة. ورسائل تقطَّر ظرفا. ومسائل ترشح لطفا. بنثر قَرُب حتى أطمع. وبعد على المتناول حتى امتنع. كأنه من شرخ الشباب مسروق. ومن لذة وصال الأحباب مخلوق. بل لعمري لو أن كلاماً أذيب به صخر. أو أطفىء بما يرشح من إهابه جمر. أو عُوفي بمعانيه مريض. أو جبر بمبانيه مهيض. لكان هو ذلك الكلام الذي يقود سامعيه من بنى الآداب، إلى السجود. ويجري في شرايين قلب واعيه من ذوي الألباب، جريَ الماء في العود. لكني لم ألتزم في جميعه هذا

النثر. وأي روض كله عطري الزهر. وأصابع الكف؛ غير متساوية في الوصف. وليست كل آية أنْ تَعِ، فاغرة فاها بفصاحة يا أرض ابلعي. وما كل نجم سيار. ولا جميع أجزاء الليل أسحار. على أني كثيراً ما أترك النثر بالكلية، وآتي بدله بعبارة أرجو أن تكون عند المنصف مرضية. وذلك لتكون مائدتي للآذان، ذات ألوان. وأشربتي للأذهان، ذوات خمور وألبان. فالطعام الواحد يُمَلّ، وإن حلا وجلَّ. وأكثر الأسماع اليوم طبيعتها نقية فهيهات أن تصبر على طعام واحد وإن كان من أطعمة شهية. هذا مع أن ذهني بأيدي التجليات. فربما لا تسلمه بيدي لأنسج به بعض الفقرات. وقد يشرد مني ويكون مناط الثريا عني. فاضطر إلى كلام مغسول، ولا أعقل فيه سوى أنه معقول فرحم الله تعالى امرءاً عذر. وقنع منى بما حضر».

وقال يصف القسطنطينية ونساءها والثغر:

«بلدة مونقة الأرجاء. رائقة الأنحاء. ذات تصور تضيق عن تصورها سعة الأذهان، وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان. وربة رياض أريضة، وأهوية صحيحة مرضية. وقد تغنت أطيارها، فتمايلت طرباً أشجارها. وبكت أمطارها، فتضاحكت أزهارها. وطاب روح نسيمها؛ فصح مزاج إقليمها. وليتك رأيت ما فيها من الرياض الأنيقة، والأشجار المتهدلة الوريقة. وقد ساقت إليها أرواح الجنائب. زقاق خمر السحائب. فسقت مروجها مدام الطلّ. فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل. فلما رويت من الصهباء أشجارها. رنّحها مع النسمات المسكية خمارها. فتدانت ولا تداني المحبين. وتعانقت ولا تعانق العاشقين. يلوح من خلاها شقيق. كأنه جمرات من آثار حريق. ويتخللها بهار يبهر ناظره فيرتاح إليه ناظره:

وكأن النرجس الغض بها أعين العين وما فيهن غمض

وجملة أمرها أنها أنموذج الجنة بلا مَيْن. فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ العين. . . .

وأما الثغر وما أدراكَ ما الثغر. فذاك الذي تنشقّ من حلاوة لمىٰ محاسن ثناياه مرارة الخمر. وقد دلع لسانه بالافتخار. فجرى مطلق عنان الفخر في كل مضمار. وتلاسَنَ البحرانِ بلا مرا. فألقم البحر الأسود حجراً بحر مرمرا. وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ نعيما، وملكاً مقيماً، وملكاً عظيما. فالقصور هناك ترفع عن القصور سمه. فوحسنها لقد غدت فلفلة الغيرة منها في است قصور أرض السمسمة. فإن الفرق بين هذه وتلك جبال. فهذه مما تلتذ به الحواس العشر وليس في تلك حظ لسوى الخيال. وقد غدت تسحل ذيول الفخر بأفصح لسان على ساحلَيْ خليج يزرى بالمجرة. وتنقل لرائيها أحاديث غرف الجنان فتملي إذ تُملى الجنان بأنواع المسرّة. وأنها على ما أضمرت من دقائق الحسن في سرائرها ليرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها. وقد غلت مقداراً. وعلت مناراً. وشمخت بأنفها حتى ظن أن لها عند الشعرى العَبور ثارا. وقد اتصلت بها من ورائها جنان. هي فوق ما تتخيله أذهان الإمكان. وأن مبتدأ أمرها لينادي: ليس الخبر كالعيان. وفي كل منها بركةٌ مفعمة من الحسن ببركات. ولها خد كاللجين تحلى بعذار من انعكاس النبات. وحول كل بركة روض نضر. وما من روض إلا ويلتقي فيه ماء الحياة والخضر! وامتداد هاتيك القصور ست ساعات. على ما حدثني به بعض الرواة الثقات.. وأسود غابات (اسلامبول) وبدور بروجها التي ليس لها أفول. ينتقلون إليها إذا بلغت الشمس نصف برج الثور. ولهم إذا بلغت نصف برج العقرب رجوع بعد الإقامة وحور بعد الكور. وفي كلا الأمرين قد يتقدمون. وقد يتأخرون. وربما تجد فيها قوماً مقيمين في الفصول الأربعة لا يرتحلون. وقد اتخذوها منزلاً. واستوطنوها ولم يبغوا عنها حوَلاً.. وعرض الخليج هناك نحو جسر الزوراء أربع مرات. وأنه يزيد على ذلك وينقص في بعض الجهات. والزوارق فيه تزيد على اثني عشر ألفاً. وهي مشحونة لطفاً. ومملوءة ظرفاً. وأنها تحكي فيه الدعاميس. كما أن زوارقه السلطانية تُشبِه

الطواويس. وفيه من السفن النارية عِدّة. قد اتخذت للعبور عُدَّة. وهي من حيث البوائق. آمن بكثير من الزوارق. وفيه من الحيتان اليونسية كثير. ويتحرج من هناك من أكلها كما يتحرج المسلم من أكل الخنزير. وربما يظن الظأن. أنها خنازير الحيتان. وهي تتطارد جهاراً. ليلاً ونهاراً. فماذا عسى تقول في بلدة لا يزال يضحك ثغرها على جميع البلاد. ولا يبرح في العمارة أمرها كل يوم في ازدياد. ويوشك أن تكون جنة يقضي منها العجب. لولا ما ابتليت به من الحريق وقمل الخشب. ولكم نمتُ فيها من القمل على مثل الأسنّة. واعترتني من محن الدهشة من حريقها أعظم محنة. وكلا الأمرين في الساحل قليل. وفي الأرض قطع متجاورات كما نطق به التنزيل. ثم إنها لكثرة الخلق فيها. واختلاف صنوف أهاليها. لا تخلو عمن لو ألقى في البحر المحيط لنجسه. أو كان جزءاً من العدد غير المتناهي لبخسه.

وفيها من النسوان. ما يخيل أنهن حور الجنان. وكلامهن لو تجسد لأزرى بالدر. وفيهن من عادات نساء الأعراب. أنهن يبرزن إلى الأزقة بمجرد نقاب. إلا أنه ألطف من شمائلهن وأدعى للصبوة بهنّ من تمايلهن. فكأنه نسيم همّ أن يتجسد. فعارضه توقد وَجْنة الخد. وربما يقول ظمآن النظر إذا أتى منهلَ مياهِ خدودهن وَوَرَد: الله أكبر؛ كيف نسج الريح على الماء زرد؟ وربما ينشد: إذا ذاق خمرة خدها المتورّد:

رق الزجاج ورقّت الخمر فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قَدَحٌ وكأنما قدح ولا خمر

ومعظمهن حرائر. وإن لم يحتجبن عن النواظر. فعدم الاحتجاب. عادة قديمة فيعرب الأعراب. وهن اللواتي لا شك عفتهن. ولله تعالى در من قال في صفتهن:

هي الحرائر لأربّات أخمرة سود المحاجر لا يقرأن بالسور

❀ ❀ ❀

وقد حققت أن منهن من لا تخرج من بيتهاحتى إلى الحمام. ولا يحوم عليها طائر نظر أهل الأزقة إلى أن تصير وكراً لحمام الحِمام. نعم لا يخلو غيل من (واوي). وأي بلد عريض طويل فيه دعاوي. فالمعول عليه في رداءة البلدة وفضلها. إنما هو عند المنصف حال غالب أهلها. وحال غالب أهل هذه البلدة في الحسن لا يطال. وسيان في ذلك على ما علت النساء والرجال:

قوم زَكُوا نفساً وطابوا مخبرا وتدفقوا جوداً وراقوا منظرا

وقال من مقالة في مدح صناعة الكتابة:

إن من منن الرب أن جعل في مدينة الجسد ملكاً يسمى القلب. منه يصدر النهي والأمر. وبرأيه يظهر الخير والشر. ولما كان ملكاً محجباً، وعُذيقاً في تلك المدينة مرجباً. جعل الله سبحانه له من أشراف مملكته ترجماناً، ونصب له منها سفيراً يسمى لساناً. فغدا يترجم عما فيه، ويبدي من مقاصده ما يبديه. فذاك الأول في تلك المغاني، وهذا منه ـ وعينيك ـ في المحل الثاني:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فلولا شأن اللسان، لشانَ العيُّ أمر التمدن الطبيعي للإنسان. ثم أنه لما كانت فائدته كالمقصورة على إفادة الحاضر، قلما تسري للغائب النائي أو من يأتي من الأواخر. علم عز وجل الإنسان الكتابة، وأزال بها عن فؤاد الإفادة الكآبة. فهي جناح اللسان، ورسوله إلى من نأى في البلدان؛ وأمينه لمن لم تلده بعدُ أرحام الأزمان. فترى أشجار فؤادها نامية، وبحار فرائدها بالنفع طامية. ولذا شرف الباري سبحانه القلم، وسوده جل شأنه بمداد القسم. فقال تبارك آسمه ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾:

كفى معشر الكتاب فخراً وسوددا على الناس أن الله أقسم بالقلم

وقال من مقالة أخرى في مدحها أيضاً:

«أن الإنسان مدنيٌّ طبعاً، محتاج إلى بيان مقاصده وضعاً ورفعاً، وقد جعل الله تعالى اللسان. آلة تتكفل بالإيصال إلى ذلك البيان. فمتى أراد ذلك أخرج بدلاء أنفاسه من قليب القلب، وأجرى في حياض السامع من صافيه وكدره ما أحب. إلا أنه لما كان قد لا يتسنى له سقيُ رياض أسماع النائين، ولا يتيسر له سوق مياه الإفادة إلى حياض أفهام الآتين، بعد حين. جعل سبحانه له الكتابة عوناً، وجلا - جل جلاله - بها عن عين الإفادة غينا. فيفيد بها المرء المرام، القريب والبعيد ومن يأتي من بعده بأعوام. ولذا امتن الله تعالى بها، وقال تبارك اسمه مُنبهاً: ﴿اقراءْ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾. والكتابة والبيان، في النفع فرساً رهان. وقد شاع في البين، أن القلم أحد اللسانين..».

❁ ❁ ❁

وقد بالغ رحمه الله تعالى في إحدى هاتين الرسالتين في شأن الكتابة وأن صاحبها ينال بها الصدور. ثم استدرك ذلك بكلام لطيف ربما يسلي مشاهير كتاب العصر الكرام الذين رماهم الزمان بثالثة الأثافي، وقصَّ منهم القدامىٰ والخوافي. فقال:

«... ثم إنا لا ندعي التلازم بين الكتابة، والعروج بمعارجها عن حضيض الكآبة. فكم من كاتب كئيب نبذ بالعرا، يبكي ابن مقلته في كل آونة من أبي ضوطرى. حظه كمداده، وسواد ثوبه من الدرن أشد من سواده. ومجرى رزقه، أضيق من ثقب قلمه وخرقه. وقد قال من ألم من سوء حاله الألم:

ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي ... ولا يلعم القرطاس واللوح والقلم

ومن الكتاب، من كتابه في الرداءة العجب العُجاب. آثار مواطيء

دجاجة مجنونة على القرطاس، أحسن شكلاً من أشكالها بعين الناس. ومعاني هذيان المحموم، بالنسبة إلى معاني ما تضمنته تسامت النجوم. ومع هذا قد فاق في السمو عُطارد. من حيث أن الجد مساعف له مساعد. **وفي مثلهم قال ابن بسّام:**

تعس الزمان لقد أتى بعُجاب ومحا رسوم الفضل والآداب
وأتى بكتَّاب لو انبسطت يدي فيهم رددتُهم إلى الكتاب

فإذن لا ينبغي للمرء أن يوسط لفاضل العيش فضلَه، بل الحري به يأن يتكل على ربه. وينتظر ما كتب في الأزل له.

فاعتبر نحن قسمنا بينهم تَلْقَهُ حقا وبالحق نزل

❀ ❀ ❀

وقال يحذّر أولاده من الدجاجلة وأبالسة التضليل:

«يا بني! بعض الناس ذئاب، عليهم من جلود الشياه ثياب. فلا تخدعوا بتماوت تغنجت كالهلوك كلمته، ولانت كالصعلوك عريكته. وولع الذبول بقامته فتناطحت تفاحة كتفه ورمانة هامته. وربما لزق ذقنه بصدره، وأصاخ بسمعه نحوه بسره. وحمل سبحة من ذوات الأذناب وجعلها شبكة. وأعمل فيها سبابته تنقر حباتها كما تنقر الحب الديكة. قريب الخطو تحسبه لهون وليس مقيداً يمشي بقيد. فوأبى لقد رأيت في هؤلاء المتماوتين من هو أمر من أبي مُزَّة، وأضر منه بألف ألف مرة.

وقد جربتهم فرأيت منهم خبائث بالمهيمن نستجير

❀ ❀ ❀

شعره:

قال أبو الثناء الشعر إلا أنه لم يكن فيه مطبوعاً. وقد نحله بعض «حطاب الليل» ـ كلويس شيخو منشىء مجلة المشرق ومن على شاكلته ـ

شيئاً من الشعر وهو لغيره كما سننبه على ذلك[1].

فمن شعره قوله مفتتحاً به مقاماته ومستغفراً:

أنا مذنب، أنا مخطيء، أنا عاصي هو غافر، هو راحم، هو عافي
قابلتهنَّ ثلاثة بثلاثة وستغلبن أوصافه أوصافي

ومنه قوله ـ وقد وصف قصراً في الثغر ـ مرتجلاً:

لقد وصف الرحمن للناس جنة فسوّق من كل العباد نفوسا
وما كنت أدري أن في الأرض نحوها إلى أن رأينا منزلاً فيك مأنوساً

وقال أيضاً ـ وقد رأى فيه دمية دقيقة الصنعة ـ مرتجلاً:

هذه الديار يحاكي حسنُها دار السلام
غير أن الحوار فيها قد تجلت من رخام

وقال في مرض موته شاكياً:

ولو أن ما بي من صداع بيذبل لأصبح مصدوع الحُشاشة (يذبل)
إلى الله أشكو إن روض سلامتي لفرط سموم السقم يَذْوىٰ ويَذْبُلُ

وقال أيضاً:

أمولاي إن الناس قد جهلوا أمري فمن قال أدري فهو والله لا يدري!
وأنَّىٰ ولي بيني وبينك حالةٌ تدق على الأفكار حتى على فكري؟

وقال أيضاً:

يا ربّ ما حبي الحياة للذةٍ أقضي بها زمني الخؤون المعتدي
لكنما حبي لذلك رغبة في أن أجدد دين جدّي (أحمدِ)

---

(1) كل ما أشك في نسبته إليه أشير إليه بقولي «ومما ينسب إليه» وكل ما أجزم بكذب نسبته إليه أصرح به تصريحاً.

وأذود عنه من يحاول نقصه ذود الغيور بمزبري وبمذودي
وأبث علماً في معالمه الهدى فأزيل حالك شبهة المتردد
فامنن على جسمي الضعيف بنظرة تشفيه من لأواء سقم مجهد
فالكل عن تشخيص دائي عاجز فمتى أراد علاجه لا يهتدي

وقال أيضاً مضمناً:

لقد لامني الأحباب جهلاً وعنفوا غداة رأوا جسمي تقاسمه الضنى
وقالوا: عقاقير لديك كثيرة فهلا بإحداهنّ داويتَ ذا العنا؟
فقلت لهم والله بالغ أمره «بكل تداوينا فلم يشفَ ما بنا»

ومما ينسب إليه:

ولم تزل العشاق تتخذ الهوا رسولاً بإبلاغ السلام خليلا
وأنى اتخذت الماء يبلغ جيرتى إذا ما جرى عني السلام جزيلا
وحملته من نار شوقى إليهم ولا عج أشجان الفراق حمولا
فعن حملها يعيا النسيم لأنه يهب بهاتيك الطلول عليلا

أيضاً:

وإذا الفتى بلغ السماك بفضله كانت كأعداء النجوم عداه
ورموه عن حسد بكل كريهة لكنهم لا ينقصون علاه

ومما نحله (شيخو) وغيره إياه قوله:

تتحير الشعراء إن سمعوا به في حسن صنعته وفي تأليفه
فكأنه في قربه من فهمهم ونكولهم في العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حسن نباته ونأى عن الأيدي جنى مقطوفه

مع أن هذه الأبيات (للناشي) الشاعر المشهور. وتمامها:

وإذا قرنت أبيّه بمطيعه وقرنته بغريبه وظريفه
ألفيت معناه يطابق لفظه والنظم منه جليله بلطيفه

ونسب إليه بعضهم ـ وقد كتب عنه في مجلة لغة العرب (م 3 ج 2 ص 72) هذه الأبيات:

أرض إذا مرت بها ريح الصبا ... حملت من الأرجاء مسكاً أذفرا
لا تسمعن حديث أرض بعدها ... يروى فكل الصيد في جوف الفرا
فارقتها لا عن رضا وهجرتها ... لا عن قلى ورحلت لا متخيرا
لكنها ضاقت عليّ برحبها ... لما رأيت بها الزمان تكدرا

وادعى أنه يصف بغداد وفراقه إياها. مع أن كل من له أدنى اطلاع على أخبار الشعراء يعلم أن هذه الأبيات من قصيدة هي من غرر القصائد لشرف الدين بن عنين يمدح بها الملك العادل ويستعطفه ويستأذنه في دخول دمشق وكان نفاه عنها حين هجا رؤساءها. ومطلعها:

ما ذا على طيف الأحبة لو سرى ... وعليهمُ لو سامحوني بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة فأعرضوا ... والله يعلم أن ذلك مفترى... إلخ

وقوله: «لا تسمعن حديث أرض بعدها» صوابه: «لا تسمعن حديث ملك بعده». . ومن الغريب أن أبا الثناء كان قد تمثل بهذه الأبيات (في ص 116 ـ 117 من الغرائب) عقيب وصفه للأستانة ثم أضاف إليها أبياتاً أخرى من عنده في مدح السلطان عبد المجيد ولكنه لم ينبه على ذلك لشهرتها وتداولها في كتب الأدب. فجاء هذا فظن أنها له فنحلها إياه ثم ما كفاه ذلك حتى زاد في الطين بلّة، وعلى الطنبور نغمة، فانتخب منها هذه الأبيات وحرف بعضها وادعى على غير أنه يصف بها بغداد وفراقه وإياها! فانظروا يا أولي الألباب.



أولاد السيد محمود «أبو الثناء»:

- 1 -

السيد عبد الله بهاء الدين الألوسي

1874 م - 1291 هـ

عالم جليل، وكاتب قدير، وأديب بارع. نشأ في حجر الفضل والحسب، وارتضع لبان العلم والأدب. حتى ارتوى منه وملأ وطابه.

قرأ القرآن في الخامسة من عمره فأتقنه بأقلّ من سنة قراءةً. وتوسم أبوه فيه النجابة والذكاء فاعتنى به اعتناءً كبيراً ولقنه بنفسه مبادىء العلوم العربية. وعلمه الخط فأتقنه وأجاده وهو صبيّ ولم يزل يلقنه العلم ويرضعه دَرَّ الأدب حتى أدرك الوطر. ولما سافر أبوه إلى القسطنطينية ترك بعده الدرس، وامتد السفر نحو سنتين ولم يقرأ فيهما إلا شيئاً يسيراً. حتى إذا ما آب أبوه شرع في الأخذ عنه فلم يزل مجداً في الطلب، عاكفاً على المطالعة، منقطعاً لاقتطاف ثمرات العلوم، حتى أصبح علماً من (أعلام العراق) يركن إليه في حلّ المشكلات، ويرجع إليه في كشف المعضلات.

من أبيه أبي الثناءِ شهاب الد ... ين محمود قدوة العلماء
كل كبرى من القضايا حواها ... فتراآى نتيجة الكبراء
ومن الكلّيّات حداً ورسماً ... حاز كلاً أحاط بالأجزاء[1]

ولما انتقل والده إلى دار البقاء جزع عليه جزعاً أضرّ به وأورثه خمولا. وبعد مضي زمن عليه أحب أن يعزّز مادته، ويتضطلع في الفنون

(1) الأبيات من قصيدة لعبد الباقي العمري فيه قالها يوم بدا عذاره.

التي لم يدرسها من قبل فركن إلى أحد المشاهير في بغداد فلم يرَ منه ما يشفي ويطفى، فلوى عنه جيده وتركه. ثم جلس للتدريس - وكان نسيج وحده في التقرير وتقريب شوارد المسائل إلى الأذهان - فقصده روّاد العلم وعشاق الأدب، ودرّس ما شاء الله أن يدرّس، واستفاد من علمه الجم وأدبه الغضّ وأسلوبه الجميل وبيانه البليغ كلّ من قرأ عليه ولازمه، ولكن أبت الأقدار إلا أن يحرم العلم وذووه فضله حيث أنه مُني منذ طفولته بالعلل والأوجاع وسدكت به حتى شتتت أفكاره، وأورثته خبالاً؛ تركه هائماً في أودية الأوهام، سابحاً في لجج الوساوس؛ فترك التدريس، وأقبل يلتمس الشفاء، لتلكم الأدواء، من مشايخ الطرائق المبتدعة وكان حسن الاعتقاد بهم فقصد بعض «النقشبندية» في «الطويلة» فاتفق أن هادنته أوجاعه مدة عاد فيها إلى التأليف والتدريس ولكنها أبت أن تمهله يتمتع بالصحة فكّرت عليه كراً، وتركته أسير الفراش. هذا مع ابتلائه بغائلة «العائلة» وإحاطة جيوش المتربة به حيث إنه كما علمت أدركته حرفة الأدب، فداست ساحته النُوَب، فأصبح أبا العجب:

لو كان يدري المرء أن ابنه يحرم بالآداب ما أدَّبه

ولم ير - بعد أن تحمل وصبر - بداً من امتطاء غارب الاغتراب إلى الآستانة لجلب النفع ودفع الضر، فباع جميع ما لديه من كتب وأثاث، وقصدها من طريق الشام، فلما كان في محل يسمى (القعرة) خرجت عليه ثلة من قطاع الطرق فاستباحت جميع ما لديه ونبذته بالعراء عريان حيران لا يهتدي سبيلا، ولولا أن منّ الله تعالى عليه بناس مروا به فأنجوه وعادوا به إلى بغداد لكان من الهالكين في تلك القفار الموحشة والمفاوز المهلكة.

عاد رحمه الله إلى بغداد وهو صفر اليدين لا يملك من فتيل أو نقير فانسدت بوجهه الطرق فبقي في حيرة من أمره لا يحط ولا يرفع ولا يدري كيف يقضي أيامه، إلى أن يلاقي حمامه، حيث أنه كان يمقت التزلف إلى

الحكام والتربع في مناصب الحكومة، وكم قد عرض عليه القضاء وأعرض عنه ورعاً وزهداً؛ ولكنه لما اشتد به الأمر ولم يجد للمعيشة غير ذلك من سبيل، قبل القضاء. وكان آخر أمره أنْ تولى قضاء البصرة وقضى فيها نحو سنتين نهكت فيهما حمّاها جسمه، وأنحلت بدنه، وأضعفت قواه، حتى حملته على مغادرتها فجاء بغداد ولم يبق فيه من رمق. وتوفي بعد نحو عشرين يوماً فجر يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شعبان سنة 1291 هـ. ودفن بوصية منه جوار مرقد الجنيد البغدادي في الكرخ.



كان رحمه الله تعالى عالماً صوفي المشرب، وأديباً عبقرياً لو أتيحت له الصحة التامة لخدم الأدب خدمة كبرى. وكان تقياً نقياً زاهداً عفيفاً ورعاً حاد الذهن، كبير النفس، أبياً شهماً غيوراً، سريع الغضب، سريع الرضى، متواضعاً، محباً للفقراء رؤوفاً بهم عطوفاً عليهم.

وكان في عنفوان شبابه شافعيّ المذهب فلما تقلد القضاء قلّد مذهب الإمام أبي حنيفة وله بذلك أسوة بمن تقدمه من أكابر العلماء[1]. وليس في ذلك كبير أمر كما يتوهم الجامدون من فريق المقلدة على أن

(1) قال القرافي وغيره واللفظ له: يجوز الانتقال من جميع المذاهب بعضها إلى بعض في كل ما لا ينتقض فيه حكم حاكم وذلك في أربعة مواضع: أن يخالف الإجماع أو النص أو القياس الجلي أو القواعد. انتهى. وممن انتقل من مذهب إلى آخر من غير نكير عليه من علماء عصره الشيخ عبد العزيز بن الخزاعي: كان من أكابر المالكية فلما قدم الإمام الشافعي بغداد تبعه وقرأ عليه كتبه ونشر علمه. ومنهم محمد بن عبد الله كان على مذهب الإمام مالك فلما قدم الشافعي إلى مصر انتقل إلى مذهبه ثم رجع. ومنهم أبو جعفر بن نصر الترمذي رأس الشافعية بالعراق: كان حنفياً فلما حج انتقل إلى مذهب الشافعي. ومنهم ابن فارس العالم اللغوي: كان شافعياً ثم انتقل إلى مذهب مالك. ومنهم عماد الدين الواسطي: كان شافعياً ثم صار حنبلياً إلى غيرهم ممن لم يسعهم المقام.

التمذهب بمذهب من المذاهب الأربعة أو غيرها لم ينزل الله به من سلطان. وما التقليد، إلا قيد من القيود، فجدير بالمرء أن يطلق فكره ويستقل به ثم يأخذ بما يصح معه الدليل من دون تشيع لطائفة ما.

وكان نادرة الزمان في صناعة اليد يشتغل أدق الأشغال اليدوية بغاية الدقة والإتقان ويجلد الكتب لنفسه أحسن تجليد...



مؤلفاته:

وله مؤلفات لطيفة. ألفها عند سنوح الفرص واختلاس أيام الصحة وأوقات الفراغ. وهي:

1 ـ (التعطف على التعرف في الأصلين والتصوف) اختصر به شرح العلامة الشيخ محمد أمين السويدي البغدادي أحسن اختصار. ومنه نسخة في الخزانة النعمانية في مرجان ببغداد، بخط ابنه شيخنا الإمام.

2 ـ الواضح: كتاب في النحو حسن الترتيب، لطيف التبويب. سهل العبارة، جميل الإشارة. يدل على حسن ذوقه، وقوة عارضته في تقريب المسائل وتحرير الأبحاث.

(3 ـ 4) متنان في علمي المنطق والبيان.

(5) الروض الخميل. في مدائح الجميل.

وله عدا ذلك شعر لطيف، ومقالات أدبية جمعها ابنه الإمام فاستغرقت جزءاً لطيفاً في نحو (100) صفحة هذا عدا ما اغتالته أيدي الضياع ولم يجمع.

❀ ❀ ❀

وإليك نموذجاً من إنشائه. قال يصف مطراً شديداً متوالياً وفيضان نهر دجلة وقد كتبه إلى أخويه السيد نعمان والسيد عبد الباقي حين ذهابهما إلى ديار بكر:

«... أنه (المطر) عند غروب شمس الأربعاء، تنفّس بفم الشوق الصعداء، ورمى بوجه الأرض حصى من كف السماء. فناداه الليل ـ وقد تحقق أن الدائرة على الأرض ـ: ما رميت إذْ رميت ولكن الله رمى. وحاك الدوىّ بمكوك الريح من سُدى البخار ولحمته شققاً سودا وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض، وطنبها خيمةً خيمةً على أكتاف العراق في الطول والعرض. واشتد الريح والظلام، وشرع جنيُّ الليل يخوف صبي النهار كلما أحسَّ منه بقيام. حتى سلّ الفجر قرضابه الأبيض من غمده الأسود، وأغمد الليل قامه الجوزاء، بعد أن كان بها على النهار يتهدد. فهان الأمر في الجملة وكشفت قناعها غانية السماء. ثم إلى قبيل عصر الخميس، انتصبت حرب الخميس، وأقبلت جيوش السحب منثالة على هذه الأرجاء، وسبحت مدافع الرعد حينما انهالت الغيوم، ولمشيها دوي كعربدة المغموم والمظلوم. حتى إذا توسطت البلد، وعلمت استيلاءَها على كل أحد، تجاوبت أصوات الرعد كأنها مدافع اتصلت أصواتها وتسابقت بالرمي رماتها. وكأنّ البرق يؤجج زخيرها. والصواعق والبردَ قلل وبنادق تدفعها وتثيرها. والغيوم والغبار دخانها الثائر. الذي حجب الأبصار والبصائر. وكأن الملائكة قد رمت أهل الغبراء. لما رأوا اغبرار صحائفهم بنقيع الفجور والفحشاء. فبكت عليهم السماء بدمعها الهتّان. ونادت: ربِّ أكشف الأحزان. عن هذه البلدان. فأين (ابن خفاجة) عن وصف هذا اليوم الأيوم. حيث وصف بَرَداً ألمَّ به فألّم. بقوله:

يا ربّ قطر جامد حلّى به ... نحو الثرى بَرَد تحدر صائب
حصب الأباطح منه ماء جامد ... غشى البلاد به عذاب دائب

فالأرض تضحك عن قلائد أنجم　　نثرت بها والجوُّ جهم قاطب
فكأنما زنت البسيطة تحته　　فأكبّ يرجمها الغمام الحاجب

وبعد سويعة انتصرت لهم الغزالة ففتحت عينها من بين أجفان السحاب. ورمتهم بنبال أشعتها عن قوس حاجب هالتها قبل أن تتوارى بالحجاب. وصرعتهم بقرونها فمزقتهم كل ممزق وفرقتهم أيادي سبأ. فانهزموا خوفاً منها هرولة وخبباً. حتى كأن الغيم خيام بيض وسود لا حبة سائرة، ونياق حمر في سباسب حائرة. وبقي الريح يصفق استهزاءٌ بهم، و«تمزيقا» لهم وعليهم. وابتسمت ثغور الديار، وفاخرت الشهب بما ألبستها الشمس من حلل الأنوار.

وذهبت في اليوم الثاني إلى دجلة، ليشرب فم سمعي الخبرَ من مبتدأه قلّه وجلّه. فرأيتها قد اغرورقت عينها من الفرح بالدموع، وسالت على وجنة الزوراء وتلك الربوع. وتزايد بها الوجد، حتى انقلبت بالضد، وخرج الأمر من الحد، وطغى ذلك النهر وتمرَّد. فجَسَرَ على الجَسْر وقطعه، وجرى أسرع من السهم إلى البحر ليبتلعه، وتزينت سماؤه بكواكب سود، ولا بدع فالغبراء ضد الخضراء وهو منها معدود، وشرعت جواميس «القُففِ» تسبح شرعاً في اللجج، وكأنما اعتراها من سنا الريح الشرقيّ رهج؛ وتنطح بقرون مغاريفها الأمواج، وتقول لها - وقد ترامى بعضها على بعض من الخوف -: ليس إلى النجاة منهاج. وظنَّ الماء أن القفة السوداء الحجر الأسود، فقصدتها الأمواج لتحظى بها وتسعد. أفواجاً أفواجْ، وتسابقت لاستلامها ولا تسابق الحجاج.. ثم أيضاً عاد الرعد والمطر، من يوم الجمعة بعد العصر. وبقي يسقي الأرض رحيقاً من كؤوس الغنج وتلك الأقداح، حتى يوم السبت...[1] فعظمت الأفراح وانقطع ذلك الكرّ والفرّ، عند أذان

(1) بياض في الأصل.

الفجر. ولم يستفد من ذلك أحد إلا الرمان، فإنه قد طفح ماؤه وغدا يتنقط من غيظه على الزمان. وقد تفطر جلده وعاد يرفضّ عرقاً مما يلهب في جوفه من جمرات حبّات تتوقد توقد النيران. واصفر وجه الليمون من وجله. حيث أخبره نسيم الشتاء بحلول أجله...»

ربيع الأول سنة 1274



أولاده:

1 ـ السيد مصطفى زين الدين: ولد سنة 1266 هـ وتخرج على أبيه وولي القضاء في (الكاظمية) و(سُرَّمَنْ رأى ـ سامَرًّا) و(العمارة) و(الاحساء) و(عكا) و(طرابلس الشام) و(القدس) و(طرابلس الغرب) و(مكة المكرمة). وعاد إلى بغداد سنة 1339 هـ. وعين وزير العدلية في الحكومة العراقية[1].

2 ـ السيد محمد عارف حكمة: ولد سنة 1270. وقد سماه جده باسم شيخ الإسلام عارف حكمة صاحب الخزانة الشهيرة في المدينة المنورة متفرساً فيه مزاياه كما قال شيخ الإسلام:

تفرّس والدي فيَّ المزايا   فيوم ولدت لقبني بعارف

وقد أخذ العلم عن أبيه والشيخ أحمد السويدي والشيخ أحمد الداغستاني وعبد الرحمن الكردي النقشبندي والشيخ إسماعيل الموصلي، ودرس عند هذا دراسة تحقيق واتقان مع اشتغاله بالكتابة والسعي في طلب الرزق. وتقلد عدة مناصب في بغداد وأعمالها منها الحلة والسماوة وبندنيج وراوندوز والبيرة، وإمارة فزان من أعمال طرابلس الغرب وهي

---

(1) توفي رحمه الله في 6 ذي القعدة سنة 1344 وقد كان على جانب من حسن الأخلاق عظيم.

آخر مناصبه استعفى منها وعاد إلى (فَرُوق) وبقي فيها إلى أن توفي. وسافر إلى حج بيت الله يوم كان في إمارة بعض أعمال حلب فانكسرت السفينة قرب جُدّة وغرقت فنجاه الله ففاته الحج فأدى العمرة ثم عاد في السنة التالية وحج. ولما كان في فزان حفظ القرآن الكريم، وغيرها مدائح كثيرة فيه[1].

3 ـ السيد محمود شكري: هو أستاذنا الذي وضعنا الكتاب من أجله.

4 ـ السيد حسن رشدي: ولد سنة 1275 وتوفي سنة 1334 هـ. أخذ عن أبيه ولما توفي احوجت الضرورة إلى دخوله في سلك أهل الرسوم فداوم في محاسبة بغداد حتى برع في الحساب، ثم تقلد مناصب عالية في بلاد كثيرة كالسماوة والناصرية والديوانية وكربلاء. وسافر إلى (فَرُوق) وبقي فيها مدة ثم تقلد منصباً في بلاد الروم. ولم يزل يتقلب من منصب إلى منصب إلى أن تولى مالية كركوك ثم حوّل إلى رئاسة مالية سعرد فذهب مكرهاً وتوفي بعد مرور سنة عليه فيها، ودفن في تربة محمد بن المنكدر المحدث المشهور.

5 ـ السيد عمر مسعود: ولد سنة 1280 هـ. وجرى على منهج إخوته. وسلك في الطريقة النقشبندية وزهد وتقشف حتى ترك المنزل وأقام في جامع الحيدرية حيث يدرس أخوه أستاذنا الإمام. ثم جدّ به الشوق إلى حج بيت الله فقصده وابتلى هناك بعلة الإسهال فلم ينْجع فيه دواء. وتوفي بعد عودته إلى بغداد بأيام وذلك سنة 1318 هـ ودفن في مسجد الجنيد البغدادي بجانب والده. ولصديقه الشاعر الشهير معروف الرصافي وغيره مراث فيه أثبتها الأستاذ في مجموعة ترجم فيها لأخوته تراجم مفصلة.

❀ ❀ ❀

---

(1) أعقب ولدين فاضلين: 1 ـ أحمد هاشم. وقد توطن الأستانة منذ صغره وأصبح من نوابغ أدباء الترك الممدودين. 2 ـ عبد الله الموفق: وهو اليوم يدرس الحقوق في باريس.

- 2 -

السيد عبد الباقي الألوسي

1875 م - 1292 هـ

عالم من فضلاء القرن الماضي في العراق. ورث الفضل والنبل من أبيه، وتقدم بجده واجتهاده، وطار في كل مطار.

ولد ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلتْ من صفر سنة 1250 هـ[1]. وقرأ - بعد أن تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب - النحو والصرف والبلاغة والمنطق والآداب والهيئة والاسطرلاب وسائر الرياضي، وأصول الحديث. وتفقه في مذهب أبي حنيفة والشافعيّ على والده وبعض تلاميذه وغيرهم، وحفظ طائفة من المتون منها ألفية ابن مالك في النحو...

وبعد وفاة أبيه لازم العالم المتصوّف الأديب عيسى البندنيجي

---

(1) وقد أرخ ولادته كثير من الشعراء منهم عبد الحميد الأطرقجي والسيد عبد الغفار الأخرس. قال الأول:

طربا يمن سر الورى ميلاده ... وسرى نسيم اللطف في الآفاق

علمت حمامات اللوى بمجيئه ... فتزينت من ذاك بالأطواق

يا سادتي بشراكم فيمن بدا ... متخلفاً بمكارم الأخلاق

فرداً أتى وبه استعنت مؤرخا ... ثم السرور لكم بعبد الباقي

البغداديّ وقرأ عليه الأصلَينِ والتفسير والحديث والمعاني والحساب وسائر العلوم النقلية والعقلية إلى أن أكمل عليه (الجادة) برمتها، فأجازه (في جمادىٰ الأولىٰ سنة 1273 هـ) إجازةً عامة حسب العادة المألوفة وأولم له وليمة كبيرة حضرها العلماء والأدباء وعُليه القوم، وتناشد فيه الشعراء غرر القصائد منهم شاعر العراق الشهير عبد الباقي العمري.

وكان فيه ميل إلى السفر شديد مع صعوبته في ذلك الحين فسافر في صغره مع أبيه إلى القسطنطينية سنة 1267 فراقه مناخها. وامتلك قلبه جمال مبانيها ومحاسن الطبيعة فيها فانتابها بعد ذلك مراراً عديدة؛ وفاز مرة بالمثول لدى السلطان ونال منه أسمى المراتب والمناصب.

وفي سفره الثالث إليها عرّج منها على الحجاز لحج بيت الله الحرام فمرّ بطريقه على (القاهرة) ورغب إليه بعض الفضلاء في تأليف رسالة موجزة في مناسك الحج فأجاب ملتمسه وألفها مرتبة على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وأسماها (أوضح منهج إلى معرفة مناسك الحج) وطبعت في القاهرة.

وتقلب رحمه الله في مناصب سامية، وأنعم عليه السلطان في سفره (سنة 1292) إلى القسطنطينية بمولوية المخرج في أزمير وبالوسام العليّ الشأن. وتقلد عام 1294 قضاء (كركوك)، وآخر ما تقلده قضاء (بتليس) فأورثت جسمه عللاً وأسقاماً حملته إلى مغادرتها إلى وطنه فجاءه وقد أنحل جسمه ونهك قواه المرض فبقي يكابد آلامه حتى توفي صباح السبت (11 صفر سنة 1298 هـ). ودفن بجانب مرقد أبيه المبرور في مقبرة الكرخي. ورثي بقصائد عديدة منها قصيدة لعباس العذاري ولمحمد سعيد التميمي. وأعقب رحمه الله ولدين أفضلهما (السيد عاكف).

مؤلفاته

وله مؤلفات لا بأس بها وهي:

1 ـ (أوضح منهج، إلى معرفة مناسك الحج) وقد مر ذكره.

2 ـ (البهجة البهية، في إعراب الآجرومية) ألفها في صباه.

3 ـ النهجة السوية، في شرح الآجرومية.

4 ـ الفرائد السعدية، في شرح العضدية.

5 ـ (الفرائد الألوسية، على الرسالة الأندلسية) في العروض طبعت سنة 1312 هـ في مطبعة دار السلام ببغداد وعليها تعليقات لشيخنا المرحوم السيد علاء الدين الألوسي.

6 ـ النهجة المرضية، في شرح الرسالة الأندلسية.

7 ـ فيوضات القريحة، شرح الصفيحة.

8 ـ أسعد كتاب في فصل الخطاب.

9 ـ القول الماضي، فيما يجب للمفتي والقاضي.

10 ـ الروضة اليانعة، في بيان السفرة الرابعة ـ وأخبرني حفيده الدكتور إبراهيم عاكف أن له مجموعة فيها أخبار أسفاره، وربما كان له غير ذلك مما لم أعرفه أو لم أسمع به.



السيد عاكف الألوسي
1907م - 1325هـ

ولد السيد عاكف بن العلامة السيد عبد الباقي الألوسي في بغداد سنة 1271 هـ. وتثقف في مدارس الحكومة التركية، وتعلم في صغره مبادىء اللغة العربية والفارسية. وأتقن التركية وبرع في الإنشاء بها. ونشأ وفيه ذكاء وهمة وأكثر أهل الهمم في ذلك العهد كانت تتوجه هممهم إلى الانتظام في سلك الحكومة طمعاً في الحصول على المقامات العالية فالتحق أولاً بدائرة البرق والبريد وعين مديراً لها في بعقوبة. ثم انتظم في (المالية) ثم في (الداخلية) حيث اشتهر ببعد النظر وأصالة الرأي وقوة النفوذ الشخصي، فعين قائم مقام في الحي، فالسماوة، فالقرنة، فالصيّرة، ثم في الشامية مراراً.

وقد كان ساعد الحكومة الأقوى في العراق إذ كان وحده يغني عن حملة مدرّبة وجيش عرمرم: كانت عشائر الشامية أكثر القبائل عصياناً للحكومة وأشدها امتناعاً عن تأدية الضرائب والرسوم وقد أقلقت راحتها وأتعبتها كثيراً فلم يكن في رجال الحكومة من يخضعها ويرغم أنفها من غير حرب وضرب غير هذا البطل المغوار، العظيم الاقتدار، فكانوا كلما عصوا وامتنعوا عن دفع الرسوم رمتهم الحكومة بهذا الداهية فيأتون طائعين، وينقادون خاضعين. ولا تزال سيرته مذكورة بين تلك العشائر إلى يومنا هذا.

وقد كان السيد عاكف ينال أكبر منصب لولا سقوط الحكومة ووقوعه أسيراً بيد الإنكليز غلطاً فقد كانوا يحاولون أسر غير واحد من أمراء الترك العسكريين (اسمه عاكف بك) بلغهم أنه مختف في بغداد، فساقهم القدر إلى المترجم فسجنوه في العمارة ولم يكد أهله يقنعون الإنكليز ببراءته ويطلقون سراحه حتى أتى نعيه رحمه الله عليه. وقد أعقب خمسة أبناء نجباء بقي منهم اليوم: السيد أمين «مهندس». الدكتور إبراهيم عاكف. السيد ظافر «مهندس».

3 ـ العالم المصلح الكبير
العلاّمة السيد نعمان خير الدين الألوسي
1899 م ـ 1317 هـ

مسمى الإصلاح ومفهومه واسع جداً، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأصحاب والاتباع والمريدين والمخاطبين من الناس. ولا يخلو زمان ومكان من أناس فيهم قوة استعداد وميل فطري إلى الإصلاح وتحرير العقول من نير الخرافات والأوهام: يهيبون بأقوامهم إلى الحق ويدعونهم إلى ترك ما وجدوا عليه آبائهم من الخزعبلات والأباطيل...

وهؤلاء ليسوا في التأثير على العقول والنفوس على حد سواء. بل إن تأثيرهم ليختلف ويكون بقدر ما أُوتوا من مقدرة ووجدوا من مجال، وحسبما اختطوا لهم من الخطط التي يسيرون عليها في الدعوة والإرشاد.

فمنهم من يكون فيه استعداد قويّ للإصلاح ولكنه لازدياد شرور بيئته وتغلب الجهل والخمول على أهلها يخشى على حياته فلا يقوى على المجاهرة، بل يضطر إلى المداراة والمماشاة فلا يظهر أثره بل يكمن فيه. أما إصلاحه فيكاد ينحصر في بعض ذوي قرباه ومريديه ولا يتعدى ذلك.

ومنهم من استحكمت مريرته وتعاظمت جرأته فيخاطر بنفسه ولا يبالي بشيء بل يستسهل الصعب، ويستخف الأثقال، فينهض للدعوة ويركب في سبيلها كل صعب وذلول، وجد في الأذهان استعداداً للتلقي أم لم يجد؟ ولكن من استوطأ هذه السبيل لا يلبث أن تفلّ عزيمته ويغلب عل أمره فتذهب أعماله هباءً منثوراً. وندر من وفق لغرضه من اتخذ الصرامة له رائداً. والغضاضة قائداً.

ومنهم لا هذا ولا ذاك: لا يركب مطية الهوس والغرور فيتعسف المجاهل في سبيل الدعوة ثم يطل الدماء، على الأثراء - ولا يقتل ما خلق الله فيه من استعداد وسلامة فطرة، وما وهبه من علم وفضل باتقائه شرور البيئة واستبداد الجاهلين.

بل يكون وسطاً في أمره: يجرؤ علىٰ الدعوة ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل أهل الباطل ولكن بالتي هي أحسن، ثم يبشر وينذر، وييسر ولا يعسر. حتى إذا ما نمت العقول، وقويت المدارك. التف حوله ناس ذوو حول وطول وعرفوا الحق فاتبعوه. فلا يلبثون أن يؤازروه، ويشدوا عضده، ويأخذوا بناصره، وينشروا مبادئه، فينجح ويتم له الأمر، ويعود بعد أن كابد المشاق منصور اللواء مظفراً.

وهذه الطريقة هي الطريقة المثلى في الإصلاح ولا نجاح إلا بسلوكها. وهي وإن كان السير عليها بطيئاً لكنه يكون أرسخ وأحكم، وهي التي جرىٰ عليها نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوته العظمى، وحث أتباعه وأصحابه على سلوكها. ثم جرى عليها جل عقلاء المصلحين من أئمة الدين في تنقية الدين من أوضار المبتدعة وذوي الأهواء والمآرب أولئك الذين غيروا في الظاهر شكله، وقلبوا وضعه، ووضعوا من شأنه بما زادوا من أعراض، وأفسدوا من جواهر، حتى أبرزوه للعيان والأمر لله بهيئة شوهاء منكرة ينفر منها كل من ينظر إليها. وشيخ مشايخنا السيد نعمان الألوسي واحد من أولئك العلماء

المصلحين الذين جمعوا بين الجرأة على الدعوة، والإرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة.

ترجمته:

ولد رحمه الله (12 المحرم سنة 1252): في أرض التعصب الأعمى والجمود الذميم، تحت سماء الجور والاعتساف. ولكنه نشأ بفطرته حر الضمير نيّر البصيرة. وربي على الآداب الإسلامية الفاضلة فشب مسلماً عاقلاً فاضلاً غيوراً على مصالح الأمة والوطن والدين. ولولا أن يتيح الله له من ينمي فيه قوة الاستعداد ويربي في الجملة ملكة الاستقلال فيه (وهو أبوه الإمام أبو الثناء، وتلميذه العالم السلفي السيد أمين الواعظ) لغلبه جمود البيئة، وحشو المعممين، واستحوْذ عليه الخمول، وفسد فيه ما وهبه الله من فطرة سليمة وضمير حر، وضعفت ملكة استقلاله، ووهن منه الحزم والعزم ضرورةً. على أنه بالرغم من اجتنابه ذوي العاهات السارية الفتاكة لم يسلم من العدوى كل السلامة بل سرى إليه أثرها فظهر في بعض مؤلفاته: (غالية المواعظ، والإصابة في منع النساء من الكتابة) ولكن حسبُ من نشأ في هذه البلاد في تلك الأيام الحالكة فخراً - أن يكون مثل السيد نعمان في استقلاله واعتداله، وجرأته على الدعوة ومجاهدة فريق الجمود والتقليد.

وقد تولى في شبابه بفضله ونبله القضاء في بلاد متعددة فسار سيرة مرضية حمد عليها وحبب إلى القلوب. وفيه يقول بعض أدباء (الحلة) يوم تولى قضاءَها:

لتصفُ الشريعة للواردين	فقد جاءها اليوم (نعمانُها)
وقد كان مطروفة عينها	فنال الشفا فيه إنسانُها

❀ ❀ ❀

ثم ترك المناصب خشية أن تشغله عما هو آخذ بإتمامه من تأليف ونشر. وفي سنة 1295 هـ قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ومر بطريقة إليها على مصر القاهرة لطبع (روح المعاني) تفسير أبيه الإمام. فاتفق له أن أطلع على (فتح البيان) تفسير امام المصلح الكبير ناشر ألوية العلم السيد حسن صديق خان ملك بهوبال - وقد طبع في مصر - فراقه وأعجبته آراء صاحبه العلمية والإصلاحية وتمنى أن يتصل به ولو مكاتبة.

فلما وصل مكة طفق يسأل عن الرجل ويبحث عن مؤلفاته فأُتيح له رجل خبير بأحواله (وهو الفاضل الشيخ أحمد بن عيسى النجديّ) فزودّه منها بما زاد إكباره له وإعجابه به واشتياقه إليه. وعند قفوله كتب إليه كتاباً يستجيزه فيه ويذكر له تعلق قلبه به لقيامه بالدعوة إلى مذهب الحق فما كان منه إلا أن أجاب ملتمسه، ثم اتصلت بينهما المراسلة إلى أنْ قطع حبالها الحِمام.

وفي هذه الأثناء كان السيد خير الدين يؤلف كتابه الجليل (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) فلما أتمه (في شهر ربيع الآخر سنة 1297 هـ) قدمه إلى خزانته، ورغب إليه في نشره، فحقق له أمنيته وأصدر أمره بطبعه في دار الطباعة بمصر. ولم يقتصر بتلك الصداقة المتينة على هذه الاستفادة وحدها منه فحسب، بل استفاد أيضاً ما قوي به على نشر مذهب السلف الصالح في العراق وخدمة الأدب والعلم بطبع مؤلفاته ومؤلفات أبيه ومؤاساة الفقراء والمساكين كما يؤخذ من كتابه إليه المنشور في مقدمة الجلاء.

وفي سنة 1300 قصد الآستانة لإعادة ما اغتصبته يد الجور من حقوقه إلى نصابه، فمر على سورية وبلاد الأناضول، واجتمع بعلماء هاتيك الديار، فحاز إعجابهم، وأجاز وأجيز حسب العادة المألوفة. فلما وصلها وألقى فيها عصا التسيار واجتمع بأولي الأمر وأرباب الحل والعقد. عرفوا فضله وأحلوه رحيباً وبالغوا في تكريمه. وأنعم عليه

السلطان عبد الحميد الثاني بمراتب عالية، وأصدر أمره بإعادة مدرسة مرجان إليه. وبعد أن قضى فيها سنتين آب إلى بغداد، وتصدر للتدريس بعنوان (رئيس المدرسين) ونشر مطويّ الفضائل ومكنون العلوم، وحصر أوقاته في التدريس والتصنيف، فكان يذهب إلى المدرسة صباحاً ولا يعود إلى بيته إلا مساءً. وقد هنأته الشعراء بالعَوْد، وأرّخت توجيه المدرسة إليه بقصائد عديدة. منها قول السيد شهاب الموصلي من قصيدة:

وافى وعرفانه والعلم عرفه ... إلى رجال ذوي علم وعرفان
موظفاً قد أتى لكن (بمدرسة) ... قديمة العهد من إنشاء (مرجان)
وظيفة قبله كانت لوالده ... بموجب الشرط شرط الواقف الباني[1]
واليوم قد عاد مقبول الجناب إلى ... بغدادَ باليمن مشمولاً بإحسان
وفي صكوك العلى والعلم أرخه: ... سجل تدريس مرجان لنعمان

❀ ❀ ❀

وكان رحمه الله جوزيّ زمانه في الوعظ، وقد بلغ في حسن التذكير والإرشاد النهاية، فكان في كل سنة يجلس في شهر رمضان للوعظ، في أحد المساجد الواسعة فيقصد من أطراف البلد حتى يغصّ المكان بالمستمعين - فاتفق له (في شهر رمضان سنة 1305) أن استطرد في مجالسه - والحديث ذوي شجون - بحث سماع الموتى، فذكر ما قاله علماء الحنفية في كتبهم الفقهية من عدم سماع الموتى كلامَ الأحياء وأن من حلف لا يكلم زيداً مثلاً فكلمه وهو ميت لا يحنث وعليه فتوى العلماء وهو المرجع لدى المحققين - فقام حشوية بغداد وقعدوا، وأنكروا عليه هذا العزو وأثاروا أفراد جهلة العوام، والمرجفين في مدينة السلام، وكادت تقع فتنة تسوّد وجه التاريخ. ولكنه بدهائه وحلمه سكن

---

(1) يريد أنها مشروطة لا علم أهل البلد.

ثائرتهم. فجمع في اليوم الثاني كل ما لديه من كتب فقهاء المذاهب الأربعة وارتقى كرسيّ الوعظ - وقد احتشدت الجموع - فأعاد البحث وصدع بالبيان ثم أخذ يتناول كتاباً كتاباً فيتلو نصوص العلماء ثم يرمي بها إلى المستمعين ويصرخ: هؤلاء هم علماؤكم فإن كنتم في ريب منهم فدونكموهم وناقشوهم الحساب! حتى إذا ما فرغ نهض واخترق الجموع الثائرة غير وجل ولا هيّاب فأقبلوا عليه يقبلون يديه ويعتذرون إليه من قيامهم بتحريك المرجفين من فريق المقلدة والجامدين. هكذا حدثنا من حضر الواقعة.

ثم ألف رسالة لطيفة جمع فيها ما دبره الفقهاء في هذا الباب وأسماها (الآيات البينات في عدم سماع الأموات).

وكان منذ صباه شغوفاً بالمطالعة وميالاً إلى جمع الكتب النادرة فوفق لتأليف «مكتبة» حافلة تعدّ اليوم من أغنى خزائن كتب بغداد وأحفلها بالمخطوطات النادرة، ثم وَقفها على مدرستِهِ، وعين لها محافظاً يتعهدها رجاء المنفعة بها أبد الدهر، وحبّاً بالذكر الجميل وهو تحت رجام القبر.

وهكذا أمضى عمره: أمضاه بالدرس والتدريس. بالوعظ والإرشاد. بالتأليف والنشر،. بمجاهدة الباطل وفرق الابتداع بجمع الكتب ووقفها في سبيل العلم...

نعم هكذا أمضاه، صابراً ومحتسباً أجره على الله. حتى أتاه اليقين صبيحة يوم الأربعاء السابع من المحرم سنة 1317 هـ ودفن في مدرستِهِ بجانب مرقد مرجان تحت القبة مقابل الباب. فرزىء الإصلاح برجله الفذّ في العراق وفقد العلم ركن نهضته العظيم. وكان نبأ وفاته الوطأة على عار في فضله ونبله. رحمه الله.

صفاته وشمائله:

قدر الله أن يموت السيد نعمان قبل أن أحظى أنا بزيارة هذه الدار بنحو ثلاث سنوات[1] ونصف سنة ولا أراه فأتشرف بوصفه لمن يتوق إلى معرفة صفاته! لذلك: لا تأمل أيها المطالع في كتابي أن أزوّدك منها بشيء طائل غير ما تنسمته من سطور مؤلفاته، ومحادثة أصدقائه ومريديه عنه.

طالعت كتبه ـ وأكثرها في الجدل ـ فرأيت منه عالماً ضليعاً، وأديباً جليلاً، نزيه القلم، أديب النفس، معتصماً يحبوه الجد متنزهاً عن العبث، منصفاً وعدلاً في الحكم، واسع الحلم، شديد التحري للحق ـ كما أخذت منها: أن عقله كان أكبر من علمه، وعلمه أبلغ من إنشائه، وإنشاءه أمتن من نظمه.

وحُدّثْتُ: أنه كان جواداً معطاءً يجود بنفسه لسائله؛ وفيّاً زكيّاً، تقياً نقياً، ورعاً زاهداً، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، حفياً بالأهل وذوي القربى والأصحاب، منشطاً لأهل العلم، مستقيماً في العمل، حلو المفاكهة، لطيف المحاضرة، بشوش الوجه...

وقد رأيت كلمة فيه للأديب أبي النصر يحيي السلاوي في مجلته «الحقائق» ننقلها هنا... قال:

«وقد حظيت بصحبة الأستاذ المشار إليه منذ لقيته بدمشق الشام سنة ثلاثمائة وألف أيام قدومه من العراق قاصداً دار الخلافة المحمية، ثم بالأستانة العلية في السنة التي بعدها فرأيت منه ذاتاً شريفة وخلقاً سمحاً، وعلماً وعملاً حبب إليّ التردد عليه، والانتساب إليه، فجعلت أراقب الفرصة التي تجعل لي حظاً في الاستفادة مما لديه، حتى حضرت

(1) نسجل بهذه المناسبة تاريخ ولادتنا هنا. وقد كانت في أوائل جمادي الآخرة سنة عشرين وثلثمائة وألف من الهجرة.

بين يديه في خلال أوقات متفرقة شيئاً من «حاشية رد المحتار على الدر المختار» لمؤلفها ابن عابدين. وكان بودي أن أتلقى عنه كثيراً من الفنون والعلوم، لولا ما شغلت به من عوارض الغربة والهموم، ولكن سماحة نفسه الكريمة وأخلاقه المشهورة أخلفتني خيراً مما فرط مني لعدم مساعدة الوقت فكان يتنزل لتشريفي، ويتعهدني في الزيارة في منزلي مرة بعد أخرى، ويملي عليّ من معقوله ومنقوله ما أنا له - بحمد الله - شاكر... إلخ».

أما صفته فقد قالوا: كان رَبعةً نحيفاً أبيض اللون يميل إلى الصفرة، وفي أواخر أيامه ثقل سمعه. ولم يزيدوا.. و(رسمه) هذا لا يمثله تمثيلاً صحيحاً لأنه صوّر على حين غفلة منه بعيد نقاهته من مرض نزل به، وهو في سفينة بخارية تمخر به عباب (دجلة) إلى (البصرة) للنزهة، وقضاء دور النقاهة.

مؤلفاته:

1 - جلاء العاينين في محاكمة الأحمدين: أحمد بن تيمية الإمام المجدد العظيم وأحمد بن حجر الهيتميّ أحد متفقهة الشافعية الجامدين. خلق من الجماد - والجماد لا يخلو من الجمود! - فسمي ابن حجر فطابق الاسم المسمى. وكان هذا شديد الطعن في أئمة الإصلاح ولا سيما في رافع لوائهم الإمام ابن تيمية فقد ملأ كتبه من عبارات الازدراء به والطعن فيه ولا سيما خاتمة «فتاواه الحديثية» فإنه شنع فيها عليه تشنيعاً وعزا إليه كل مثلبة وعقيدة فاسدة وآراء كايدة مما هو خلاف ما صرح به الإمام في مؤلفاته الكثيرة. ثم جاء قوم لا يميزون القشر من اللباب، ولا الخطأ من الصواب، فحملهم الجهل بمرويات العلماء على الأخذ بأقواله دون غيره وتمسكوا بها تمسكاً جرهم إلى تفكير كل من حدث بخلاف ما يحدث به ابن حجر!

فلما رأى السيد رحمه الله تفشى تفسيره السيء في طلاب العلم البعيدين عن الوقوف على تفاصيل الأدلة من الكتاب والسنة - لم يجد بداً من تبيان الحق من الضلال وفاءً بالميثاق الذي أخذه الله على العلماء، فأعمل يراعته العسالة في تأليف هذا الكتاب الجليل فجاء كتاباً جامعاً مانعاً يثبت فؤاد المنصف ويجلي عن العين غشاوة الباطل: التزم فيه جانب الأدب والإنصاف، وتجرد عن نزعات التشيع والحب. فحرر المسائل بأدلتها، وضم الأشباه إلى نظائرها، وتحرى العدل، وجانب الجور، حتى كشف عن وجه الحقيقة الحجاب، وميز الخطأ من الصواب، وهنالك عُرف من هو مرتاب! وقد طبع الكتاب (بالمطبعة المصرية ببولاق) سنة 1298 بأمر ملك بهوبال العالم المجدد الشهير السيد حسن صديق خان عليه الرحمة. فجدير بكل مسلم أصيب بداء التقليد أن يدرس ما بين دفَّتي هذا السفر الجليل من المباحث الإصلاحية ويتدبره جيداً، ليصفو جوهر عقله من عرض التقليد الأعمى ويطهر من أوضار الحشويين!

2 - الجواب الفسيح، لما لفقه عبد المسيح: سفر عظيم في مجلدين كبيرين رد به الرسالة المنسوبة لعبد المسيح بن إسحاق الكنديّ التي أجاب بها في زمن المأمون رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشميّ حينما دعاه فيها إلى الإسلام. وكلاهما فيما يظهر مزور، أريد به، ترويج الباطل على ضعاف البصر، وقصار النظر. وقد طبعت الرسالتان في ليدن سنة 1880 م. ثم في غيرها من بلاد العرب، والرد في المطبعة الإسلامية بلاهور قاعدة پنجاب من ممالك الهند، وقد فرغ من تأليفه غرة جمادى الأولىٰ سنة 1306.

3 - غالية المواعظ: طبع في مصر مرتين، في جزءين، وهو عمدة الواعظين اليوم. وقد قدمنا أنه من مؤلفاته التي كتبهاقبل أن يتحرر من أغلال التقليد ويتطهر من أوضار الحشو.

4 ـ الأجوبة العقلية، لأشرفية المحمدية: كراسة أجاب فيها عن سؤال وجهه محررٌ في جريدة الحبل المتين الفارسية التي تصدر في كلكلتة بالهند إلى علماء الإسلام طالباً إثبات دعوى أن النبي خاتم الأنبياء، وأن شريعته نسخت سائر الشرائع وو.... إلخ. طبعت في مطبعة كلزار حسنى ببمي سنة 1314 هـ.

5 ـ صادق الفجرين، في جواب البحرين: كتاب حول علي ومعاوية رضي الله عنهما، في نحو (70 صفحة) بالقطع الكبير ولم يطبع. ومنه نسخة في خزانتنا (الخزانة الأثرية) وفي خزانة المترجم (الخزانة النعمانية) في مرجان.

6 ـ شقائق النعمان، في در شقائق ابن سليمان: كتاب جليل ألفه في صباه رداً على بعض معاصريه ممن أسرف في اللغو. منه نسخة في (الخزانة النعمانية) بخط المؤلف وهي في نحو 100 صفحة.

7 ـ الأجوبة النعمانية، عن الأسئلة الهندية: كتاب في مسألة الاستواء وخاتمية النبوة المحمدية، في نحو 22 صفحة بالقطع الكبير. بخط المؤلف في النعمانية.

8 ـ الإِصابة في منع النساء من الكتابة: جواب سؤال ورد من الهند تكلم فيه حسبما ظهر له وارتأى ونحن لا نوافقه فيما ذهب إليه ولدينا من الأدلة الشرعية والعقلية ما فيه مقنع إن شاء الله تعالى!

9 ـ الحباء، في الإيصاء: طبعه ابنه الإسناد السيد علي علاء الدين في الأستانة.

10 ـ سلس الغانيات، في ذوات الطرفين من الكلمات. كتاب لغوي في الأسماء التي تقرأ من أولها وآخرها طرداً وعكساً مثل قلق وسدس وخوخ وليل. طبع في المطبعة الأدبية ببيروت سنة 1319 هـ وعليه تعاليق لطيفة لولده شيخنا السيد علاء الدين.

11 ـ مختصر ترجمة الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي.

12 ـ الطارف والتالد، في إكمال حاشية الوالد: على شرح القطر للإمام ابن هشام النحوي الشهير طبعت في القدس سنة 1320 هـ.

13 ـ حور عيون الحور: مجموعة من نظمه ونثره، ذكرها شيخنا ولم أعثر عليها في خزانة كتبه.

❁ ❁ ❁

ونشر في القسطنطينية سنة 1302 هـ «كتاب ألفاظ الأشباه والنظائر» المنسوب لعبد الرحمن الأنباري والصواب أنه لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب الهمداني واسمه «كتاب الألفاظ الكتابية» بدليل الطبعة القسطنطينية نفسها في عنوان المقدمة (ص 4) وبدليل ذكر (صبح الأعشى) ذلك في الجزء الأول (ص 162) وقد طُبعَ في بيروت أيضاً سنة 1885 م منسوباً إلى الهمداني باسم «الألفاظ الكتابية».



أولاده:

1 ـ السيد ثابت الألوسي
1911م ـ 1329 هـ

هو أكبر أنجال السيد نعمان سناً. ولد فجر ليلة الأحد لست عشرة ليلة خلت من ذي الحجة عام 1275 هـ. ونشأ على حب الفضيلة فرضع لبان العلم والأدب من أبيه وتلقى شيئاً من العلم عن غيره أيضاً. ثم عكف على مطالعة كتب الأدب والتاريخ والسير، وكان جيد الحفظ، فحفظ الشيء الكثير من عيون الشعر في الحكم والمواعظ والآداب والحماسة وغيرها.

وابتلى وهو في شرخ الشباب بغائلة «العائلة» فاضطر إلى ارتياد مسالك المعيشة فلم يجدها إلا في جانب الحكومة، وساح في كثير من الأمصار، وشخص إلى الأستانة أربع مرات، وإلى الحجاز مرة فأدى فريضة الحج المقدسة. وتقلد القضاء في أنحاء العراق كالنجف وكربلاء والسليمانية، ثم في الأحساء (مدينة بالبحرين معروفة مشهورة)، فأحبه أهل كل بلدة تقلد قضاءها وحكم فيها لما كان عليه من الورع والعفاف، والعدل والإنصاف. وبعد عودته من الأحساء ارتأى أن يجتنب التوظيف ويشتغل في الزرع والضرع لما فيه من البُلَهْنية والحرية المطلقة وسعة الرزق غالباً فاشتغل به سنين عديدة فخاب مأمله ولم ينجح، حتى إذا ما صفرت يداه وخوى وفاضه وبدا إنفاضه، اضطر إلى طرق أبواب الحكومة فانتخب رئيساً لبلدية بغداد فتقلدها نحو سنتين وكان قوي الشكيمة لا يحابي ولا يداجي ولا يرجى أحداً في أمرٍ ما لم ير الحق بجانبه. فلما لم ينزل على إرادة أمراء ذلك العصر ـ عصر الجور والاعتساف ـ انتُخب غير واحد للرئاسة وعزل منها.

ولم تمضِ مدة يسيرة حتى سعى فيه بعض المنافقين من فريق الجمود والتقليد الأعمى إلى الوالي - وهو يومئذٍ عبد الوهاب باشا وكان من أعداء أهل الإصلاح أمثال أبناء الأسرة الألوسية النبلاء - فكتب إلى عبد الحميد بما أوجب إصدار أمره بتبعيده عن بغداد فلما وصل هو ومن معه الموصل أكبر ذلك رؤساؤها فكتبوا إلى عبد الحميد يبرئونه ويرغبون إليه في نَفْي النفي عن الثابت فجاء الأمر بإرجاعه فعاد وهو قرير العين جذلان. وكانت مدة الذهاب والإياب نحو شهرين.

ثم عاد إلى تعاطي الزراعة فلم ينجح أيضاً فاضطر إلى النزوح عن بغداد فسافر إلى الأستانة بعيد الانقلاب العثماني فقلد قضاء لواء السليمانية فابتهج به أهلها ابتهاجاً عظيماً لما يسمعون عن سيرته المرضية وأفعاله المحمودة فبقي فيها ما ينيف على السنتين حتى أتاه الموت بغتةً ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة 1329 هـ تاركاً خلفه تسعة أولاد[1] تندبه وتبكيه ودفن رحمه الله هناك ومشت في تشييع جنازته البلدة كلها.

كان رحمه الله تعالى فاضلاً وقوراً متواضعاً حسن السجايا، جميل المزايا. يود الضيف ويكرم الجار، نزيهاً من الفحشاء، بعيداً عن النميمة والرياء، أبيّ النفس عزيز الجانب. وكان ابن عمه شيخنا الإمام من أعظم الناس إعجاباً بأخلاقه وآدابه ولطالما ذكره وتنفس الصعداء عليه.

وكان يميل إلى البداوة ويطربه حديثها، ويحب الخيل ويقتني منها العراب ويتتبع ما ألف فيها المتقدمون من الكتب الجليلة فيطالعها

---

(1) وهم: السيد جلال الدين (محام). السيد حسن (كان ضابطاً في الجيش العثماني). السيد إبراهيم (مدرس مرجان خاله الإمام). السيد عيسى (كان ضابطاً). السيد يحيى (كان ضابطاً في الجيش العثماني والآن يشتغل في الزرع والحرث). السيد عطاء الله (توفي). السيد موسى (طالب في الحقوق وموظف في الأوقاف). السيد سيف الدين (مهندس). السيد عبد الرزاق (تلميذ).

ويتدبرها جيداً فلذلك كان يميز ممدوحها من مذمومها. ويحسن معرفة صفاتها وشياتها وعيوبها وما يستحب من خلقها وخلقها...

❀ ❀ ❀

2 ـ السيد علي علاء الدين الألوسي
1921م ـ 1340هـ

محتِدٌ شريف، ورأي حصيف، وأدب ونبل، وكرم وفضل، وعلم غزير، وعقل كبير، ونظر ثاقب، ورأي صائب، وحلم ووقار، وكرامة نجار، ودمائة أخلاق، وحواش رقاق ـ خلال ندر من اجتمعت فيه من الناس. ولقد رأيت أستاذنا العلاء من أجمع الناس لها، وأعظمهم اتصافاً بها. يضم إليها جرأة أدبية ونزاهة «وجدان» وصراحة ضمير وصدعاً بالحق. فهو ـ ولا أبالغ ـ من النوابغ الذين يندر أن تجود بنظرائهم الأيام.

وقد امتاز على علماء قطره أو عصره بأكثر هذه الخلال الحسنة وبخلال أخرى أيضاً، منها جمعه بين العلم والأدب والسياسة. وقلَّ من اتصف من علماء الدين بذلك ـ فقد كان متوغلاً في السياسة توغله في العلم والأدب، وله فيها مواقف محمودة تشهد له بطول الباع وبعد النظر. ومنها خروجه على العادات المألوفة وخلعه من عنقه ربقة التقاليد المتغلغلة في نفوس القوم، واجتهاده فيما يعرض له من الأحكام الدينية والاختلافات المذهبية، وتمسكه بما يماشي العقل جنباً لجنب وبما يعاضده البرهان القاطع والحجة النيرة. **ولذلك كان الجامدون من فريق المقلدة يشنعون عليه وينبزونه «بالوهابية»!...**

ثم له ميزة أخرى هي غاية في الحسن. وهي: حَيَدانه عن «الجادة»

المعهودة في التدريس عند المشايخ، ونبذه كتب الأعاجم ذوات «الحواشي» و«الأذناب» و«الذيول»! وراءه ظهريّاً. ثم انفراده بين القوم في حسن الإلقاء وتقريب المسائل من الإفهام بأسلوب غريب.

ولقد كُتب لي - بعد أن انضممتُ في سلك أهل العلم - أن ألازم الرجل وآخذ عنه زهاء ستة أشهر، فاستفدت في هذه المدة من علمه الغزير وتقريره البديع وتشجيعه العجيب مالا أكاد أستفيده من غيره في سنين.

فتلك لعمري! خلال عبقرية نادرة جداً في مثل جيله وبيئته، يستحق عليها علاءُ الدين، أن يُعَدّ في فريق المصلحين. وهو وإنْ لم يتح له أن ينشر مبادئه الشريفة التي ورثها من أبيه المصلح فقد ظهر أثرها في فريق من تلاميذه واضحاً جلياً فأزهرت بهم أندية العلم في بغداد. ويرجى من بعضهم أن يهيب بالقوم إلى تلك المبادىء السامية إن شاء الله.

ترجمته:

ولد (في شعبان سنة 1277 هـ) في حجر أبيه وورث منه حب العلم والأدب ونشأ كما ينشأ ربيب العز والمجد، ثم تلقى المبادىء التعليمية من أبيه وابن عمه شيخنا الإمام السيد محمود شُكْري الألوسي وغيرهما من فضلاء بغداد وجد في طريقه حتى قطعه وبرز أترابه، وشأى جميع أصحابه. وقد فطر منذ نعومة أظفاره على الأدب فعكف عليه حتى ملأ منه الوطاب، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم وأجاده، ولما انقضى زمن شبيبته أقل منه بل انصرف في الغالب عن نظمه وكان لا يقوله إلا لخاطرة تمر بفكره، أو معنى بديع يجيش بصدره. فينظمه في سلك متين لا يعروه وهن أو ضعف.

وقد حج في صباه مع والده وسافر إلى الأستانة مراراً منها مرة مع أبيه وتعلم فيها اللغة التركية والفارسية وأتقن الأولى حتى نظم فيها.

وانتظم في سلك طلاب (مدرسة النواب «القضاء»! ونال منها الشهادة. ثم قضى في فلسطين وبعلبك وبلاد العراق: العمارة والديوانية وبغداد وغيرها.

وفي سنة 1299 هـ أوفده والده على الإمام المجدد الشهير النواب السيد حسن صديق خان ملك بهوبان صاحب الأيادي الجليلة والمآثر النبيلة - في مصلحة كتبه وكتب أبيه أبي الثناء فبقي في ضيافته نحو سبعة عشر يوماً لاقى منه فيها ضروب الحفاوة والتكريم؛ وأبت عليه نفسه أن يضيع هذه الفرصة سدى فقرأ عليه وعلى شيخه المحدّث الكبير الشيخ حسين بن محسن اليمني الأنصاري ما تيسر له. وأجازه كل منهما إجازة عامة.

ولما توفي أبوه سنة 1317 هـ قام مقامه وولي تدريس مدرسة مرجان في الرصافة والشيخ صندل في الكرخ فتخرج به كثيرون.

ولما كان الدستور والتأم المجلس النيابي في الأستانة انتخبه الشعب العراقي نائباً عنه فكان له قدم صدق في المطالبة بحقوق البلاد والذود عنها بكل ما أوتي من طول وحول ووجد من مجالٍ لتأثير الكلام[1]. وبقي - بعد أن انفضّ المجلس - مدة غير يسيرة في الأستانة. ثم آب إلى مسقط رأسه.

---

(1) وله رحمه الله تعالى خطبة بليغة يتجلى في كل كلمة من كلماتها الإخلاص للأمة والوطن - كان قد ألقاها بعيد انتخابه في نادي الاتحاد ببغداد. في جمع غاص بالأمراء والعلماء والأعيان. وإليكما بحروفها. قال: -

«أيها السادة الكرام! إنا معاشر (المبعوثين) من هذا القطر المبارك مهما أطلقنا ألسنة الشكر تجاه ما منحنا به العموم من حسن الظن الذي كسانا حلل الأهلية في القيام بالنيابة العمومية، وأدنانا من مركز محافظة حقوق الجامعة العثمانية فإنا لا نستطيع بلوغ الواجب وأنى لنا؟ على أننا والثقة بعون الله تعالى وتوفيقه في عزم أكيد على محافظة حقوق القطر العراقي خاصة والممالك العثمانية عامة وبذل الجهد فيما يعود على صلاح هذا الوطن العزيز الذي استحكمت فيه الرابطة بين جميع أصناف الرعية كائناً من كان، فإنهم على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، =

. . . .

= وتشعب فرقهم وآرائهم، يرمون إلى غاية واحدة هي سلامة الوطن باستخلاصه من حضيض التلف إلى أوج السعادة والشرف. وقد كانت الحال قبل هذه النهضة الاتحادية والعزمة الوضنية ـ كما تعلم ويعلم كل حكيم سياسي واقف على أمراض الدول وعللها داخليها وخارجيها ـ بحيث يكاد ينقطع حبل الرجاء وتنفصم عرى الأمل لما يرى من إشراف ذلك الوطن على الموت بأفجع ما يكون، وأهله معقودة ألسنتهم مقرحة أكبادهم تأخذهم تحت سلطة الاستبداد سكرة بعد أخرى، وتنوء بهم أثقال التكاليف الشاقة في مهلك الاستعباد فلا يطيقون نهوضاً ولا يستطيعون صبراً، وصاروا ما بين قاض نحبه، أو منتظر حتفه، أو مقبور في سجنه، أو حاضر في رقاده، أو غائب من أهله وبيته، حتى إذا استيأس الناس من الحياة وبلغ الكتاب أجله قيض الله سبحانه جمع الإصلاح من الأحرار الذين خلدوا لهم بعملهم المبرور وسعيهم المشكور جميل الذكر في أسفار الأخبار على ممر الدهور والأعصار فنهضوا للقيام بحفظ حياة الملة وضحوا بنفوسهم الأبية في تلافي أمر الدولة وإنقاذها من أعظم علة على شرط سلامة الجامعة من الاختلال والتحرز مما يؤدي والعياذ بالله تعالى إلى الزوال والاضمحلال، فبعثوا الأمة من مرقدها إلى ما فيه عود عزها ودوام سعدها وأطلقوا الألسنة بعد اعتقالها وحركوا العزائم غب كلامها. وكان من إجابة الملك المعظم وفقه الله لهذا الأمر المشروع ما غفر ذنب الدهر وخلد جميل الثناء والذكر بحيث تطلق الحقوق وتسأل العدالة وتحفظ الحرية والمساواة بين جميع أصناف التبعة. وها أن ذا الجمع المحمود في هذا النادي العثماني المسعود أثر من آثارها وثمرة من أثمارها وزهرة من أزهارها: ـ

أيّ نـــاد هـــذا وأي اتـــحـــاد ... فـيـه قـد أزهـرت غـصـون الـوداد

نظمت سلكه بأيدي التصافي ... فـتـيـة هـمـهـا صـلاح الـبـلاد

مرحباً بالوفاق قد حل بالقو ... م حـلـول الأرواح بـالأجـسـاد

فـرأيـنـا مـا سـر كـل مـوال ... وشـهـدنـا مـا سـاء كـل مـعـادي

فلتدر فيهم كؤوس التهاني ... مـتـرعـات بـسـلـسـل الاتـحـاد

والشكر كل الشكر لسادة جمعوا فيه شملنا وأكرموا بمكارم أخلاقهم وطيب أعراقهم نزلنا لعلمهم بما تكنه صدورنا من صميم المودة لهم ولمن يرمي إلى غاياتهم من جموع الإصلاح... هذا ونعود فنقول أن علينا التوصل بكل وسيلة إلى ما يعود لسعادة الخطة العراقية التي لها من عظيم الأهمية فوق ما يعلمه أهلها =

وفي أوائل الحرب العظمى انتدبته الحكومة للذهاب مع ابن عمه الإمام إلى عظمة سلطان نجد عبد العزيز السعود في أمر سياسي خطير فذهب عن طريق سورية فالحجاز واجتمع به فاحتفى السلطان به احتفاءه بابن عمه ثم رجع عوده على بدئه ولم يؤثر بدهائه وسياسته عليه، وتفقد في طريقه خزائن الكتب العربية واجتمع بعلماء هاتيك الديار وأدبائها فأعجبوا بفضله وأدبه وكان موضع تجلتهم واحترامهم..

عاد إلى بغداد وعاد إلى سيرته الأولى يهذب ويدرس ويعمل على نشر العلم بين أفراد الأمة وطبقاتها بصدق وإخلاص حتى احتلال الإنكليز بغداد سنة 1335 هـ فدعي إلى القضاء فزهد فيه فأصروا عليه إلا القبول فلما لم يجد بداً منهم تقلده على كره منه وقام به حق القيام فكان عون الضعيف وملجأ الصريخ ونصير الحق لا يحيد عنه قِيدَ شعرة ولا تأخذه فيه لومة لائم وإن سلّت عليه القواضب المرهفات[1] وكان «أقوى الناس عنده الضعيف حتى يأخذ الحق له وأضعفهم عنده القوى حتى يأخذ الحق منه». وكان يستعمل العدل ويباعد عنه الظلم والجور. واتفقت له في أيامه أمور تجلى فيها ورعه وزهده وعفته بأجلى مظاهرها. وهكذا فليكن الحكام، على هذا المنهج القويم، والطريق المستقيم، فلينهج قضاة الإسلام! فسلام

= ونجهد كل الجهد في حصول الأسباب الكافلة بترقي زراعتها وتجارتها وأمنيتها وانتظام إدارتها من أعمارها وتسهيل طرقها والوسائط النقلية في أنهارها وداخلها وخارجها ونرفع بذلك إن شاء الله أصواتنا محافظين على حقوقنا متفقين في كلمتنا واقفين نفوسنا في حفظ حقوق من بعثتنا منتظرين من ذوي المعرفة بخفايا الداء والدواء مساعدتنا والله سبحانه يوفقنا وجميع نواب الأمة لما فيه كشف الغمة وتمام النعمة»اهـ.

(1) وأن أنس لا أنس ما كتبه إلى ناظر الأوقاف لما دعاه إلى الاشتراك بمسألة الاستملاك فأجابه «أن الشرع الشريف يحظر ذلك فلذلك لا يسعني القيام بما طلبت لا بالذات ولا بإرسال وكيل عني».

على تلك الخلائق ألف سلام، ورحمة الله تنهلّ عليه وهو تحت أطباق الرجام!

وياما أصدق قوله وأحكمه حينما أصرت عليه الحكومة بقبول القضاء: قضاء بغداد، وهو: ـ

إن القضاء هو البلاء فلا تكن   متعرضاً فتصاب من سوء القضا
وإذا ابتليت به على كره فخذ   نهج العدالة إنها سبب الرضا
والله عون الحق ينصر أهله   ويذل من هضم الحقوق وأعرضا

وبقي في هذا المنصب يجلله الوقار ويكتنفه الجلال وقد صلحت به العباد وانحسم الفساد إلى أن أصابه الفالج ليلة عيد الفطر سنة 1338 هـ فعزم على الانفصال منه ليستريح من أعبائه فلم يسمح له وأصر عليه بالبقاء لصلاح الأحوال به ثم اشتدت عليه وطأة الفالج وعسرت عليه مباشرة الأمور سمح له بإقامة وكيل عنه على أن لا يبت الوكيل في أمر حتى يشاوره ويأخذ منه القول الفصل. ولم يزل الداء به حتى اخترمته المنية ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة 1340 هـ فجلَّ خطبه، وعظم مصابه، وعم الحزن جميع عارفي فضله في الأقطار والأمصار واحتفل بتشييع جنازته احتفالاً مهيباً مشى فيه العلماء والحكام والأعيان وممثل للملك وممثل للمندوب. ودفن في مدرسة مرجان حيث كان يلقي دروسه على تلاميذه الكثيرين في جوار قبر أبيه تحت القبة مقابل الباب. رحمة الله عليه.

لقد نعته الجرائد وأبّنته، كما بكته الشعراء والأدباء ورثته، وكنت رثيته بمرثاة مشجية انتبهتها مني أيدي الضياع. وهو لعمري جدير بكل رثاء واطراء وثناء.

ماذا يقول المادحون بوصفه   وأوصافه جلت عن العد والحصر

مؤلفاته:

لم يجد شيخنا رحمه الله في وقته متسعاً يؤلف فيه ويكتب إلا سوانح نزرة جداً جاد بها الدهر عليه فكتب فيها وشعر ولم يدعها تذهب سدى؛ ولو تخلى عن المناصب وترك السياسة جانباً لخلد آثاراً رائعة ينتفع بها روّاد الآداب جيلاً فجيلا. ومن مؤلفاته: كتاب الدر المنثور في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر: ترجم فيه لأفراد من فضلاء العراق ولم يوفق لإتمامه. و(نظم الآجرومية) في النحو: طبعت في بيروت سنة 1318، وله عدة مجاميع نفيسة تحتوي على نوادر وأخبار وفوائد وعلى طائفة كبيرة من شعره وعلى تراجم لكثير من الأعيان - الظاهر أنها من مواد كتابه الدر المنثور، وله تعاليق على بعض كتب أبيه وعمه السيد عبد الباقي، ونشر كتاب التوحيد لجعفر الصادق. وغاية السول في سيرة الرسول لعبد الباسط الحنفي ونقد مقامات الحريري لابن الخشاب وانتصار ابن برّي للحريري، والحباء في الإيصاء لأبيه.

ونسخ بيده كتباً كثيرة. ووقف كتبه قبيل وفاته وأضافها إلى خزانة أبيه (الخزانة النعمانية) في مدرسة مرجان. وفيها نوادر منها كتاب الخصائص لابن جنيّ كاملاً، وغيره مما يعز وجوده.

شعره:

قال في برج بيروت:

إن في قبة السماء بروجاً ... ليس فيها سوى هلال يدور
وببيروت لم يكن غير برج ... كل يوم تدور فيه بدور

وقال:

وافى كتابك فانجلى بورودِه ... ليلُ الهموم وزال عن قلبي العنا
هو دوحة فيها السطور تسلسلت ... وروت حديث الود عنك معنعنا

وقال:

أحنّ إلى أرض السماوة كلما ... تذكر مشتاق وهبّ نسيم
فوالله ما شوقي إليها لطيبها ... ولكن بها شخص عليّ كريم

وهو في معنى قول الشاعر:

وما حبّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وقال يصف الحاكي (الفنوغراف): ـ

أنا هذا الذي سمعتم خطابي ... ورأيتم شكلي وحسن اكتسابي
أنا أعجوبة الزمان لأني ... صامت ناطق بما في كتابي
أحكمتني يد الحذاقة حتى ... حار في صنعتي أولو الألباب
ليَ أذن تعي الخطاب وأخرى ... تحسن القول في ضروب الخطاب
إنني (الفنوغراف) هذا لساني ... لم يكن ناطقاً بغير الصواب
أنا مرآة كل لفظ وصوت ... غير أني بالسمع يدرَك ما بي
وأعيد الأصوات حرفاً بحرف ... فكأني الصدى برد الجواب
وكأني في لهجتي ترجمانٌ ... وجميع اللغات ضمن إهابي
أو دعوني بطابع الصوت، يبدو ... في تصويره بغير نقاب
فهو في حالتيه طرداً وعكساً ... ينقضي ثابتاً مدى الأحقاب
فقليل عندي إذا لقبوني ... ببغّاءَ الإعجاب والإغراب
وعجيب ولم تكن فيّ روح ... كيف أملي رسائل الأحباب
وأجوب البلاد شرقاً وغرباً ... أشرح القول حيث حطت ركابي
مرّ حين من الزمان وشخصي ... يتوارى عن الورى في حجاب
فأرد الإله إظهار شأني ... في زمان موفّر الأسباب
إنّ الله فيّ سراً يراهُ ... كل مستيقن بيوم الحساب
حيث إن الجلود تنطق فيه ... ساهدات كما أتى في الكتاب
تلك يا قوم عبرة لأولي الألباب ... تجلو غياهب الارتياب

فانظروا قدرة العليم الذي قد أبدع الخلق كلهم من تراب

وله يتذكر بعض أحبابه:

يَهِيجُ صوت الأغاني لوعة كنت في القلب من فرقة الأحباب إذا بانوا
ولست أصغى إلى العيدان من طرب وإنما هي للأشجان أعوانُ

وله في السمر والبيض:

لامني في السمر قوم مادروا أن حسن السمر مشهود الدوام
فعلى السمر تحياتي وإن لام قومى، وعلى البيض السلام

وأيضاً:

قالوا: جعلناك فيما بيننا حكما في السمر والبيض، قلت: اصغوا التعريضي
كلا الفريقين عندي حبهم حسنٌ لكن في السمر معنى ليس في البيض

وقال في تفضيل القلم على اللسان:

من قال في فضل اللسان فإنني أبداً أرى التفضيل للأقلام
أو ما تراها كلما حركتها سكن اللسان ولم يفه بكلام؟

ومن أبياته السائرة:

لعمرك إن الناس ساءت فعالهم وقد طلقوا المجد الأثيل ثلاثا
تراهم رجالاً إن نظرت جسومهم وتلقاهُمُ عند الفعال أناثا

وله:

الأمر أمرك فاحكم ما شئت في حكم الغرام
إن فزت منك بنظرة فعلى بني الدنيا السلام

وله في اللف والنشر:

بروحي أفدي من بليت بحبه ويا حبذا البلوى إذا جاد بالوصل
فأحيا بشرب عند ورد ونرجس من الثغر والوجنات والأعين النُجْل

وله معمى في (موسى):

عـنـفـنـي الـعـاذل فـي حـب مـن … قـوامـه الـعـدل كـغـصـن رطـيـب
ومـا درى أنـي بـسـوق الـهـوى … (أسـوم) بـالـقـلـب وصـال الـحـبـيـب

وله أيضاً في (إبراهيم):

أفدى الـذي لـم يزل بـالـود يـمـنـحـني … حـتـى تـمـلـك مـن قـلـبـي سـويـداه
(أبرَ) فـي الـحـب أقـسـامـي وصـيـرنـي … (أهـيـم) فـي وصـلـه شـوقـاً وأهـواه

وله:

بـي أسـمـر تـرهـب الألـبـاب صـولـتـه … إذا سـطـا بـسـيـوف الـلـحـظ أوصـالا
لا أنثني عن هوى السمر الملاح على … ما بي، ولو قطعتني البيض أوصالا

وله:

إنـمـا الاسـم والـحـقـيـقـة شـيـئـا … ن ويـا حـسـن أن يـكـون الـمـسـمـى
فـاسـعَ إن كـنـت كـامـلاً أن يـقـولـوا … عنك: حاز الجمال معنى وإسما[1]

وله:

إذا رمت توفيقاً إلى العلم فاجتهد … لـتـحـصـيـلـه فـالله كـافٍ وكـافـل
وجاهد إذا قال الورى عنك ناقص … لـكـيـمـا يـقـولـوا فـيـك إنـك كـامـل

❀ ❀ ❀

(1) لا بأس بقطع همزة الوصل في الشعر.

3 ـ السيد محمد حامد الألوسي
1873 م ـ 1290 هـ

ولد يوم الأربعاء لتسع عشرة ليلة من شوال سنة 1262 هـ. ونشأ ميالاً إلى الأدب والفضيلة فتلقى مبادىء اللغة العربية والفقه عن إخوانه النبلاء، وغيرهم من علماء الزوراء.

وكان منذ طفولته حاد الذهن فطناً لبيباً سريع الانتقال: فشرح ـ وهو دون العشرين ـ أربعين حديثاً من صحاح الأحاديث النبوية... ثم قضت الأحوال عليه بالتحول من خدمة العلم إلى الانتظام في سلك الحكومة. فرحل إلى القسطنطينية، ودخل بعض المدارس السلطانية، فتعلم اللغة التركية وتمكن فيها ومهر، حتى ألف ونثر.. ثم تزوج وتقلد بعض المناصب فلفت بدهائه أنظار رجال الدولة إليه وامتلك قلوبهم فرُقي وأُرسل بمهمة جليلة إلى (طرابلس الغرب) فقضاها كما كانوا يشاؤون ويحبون. فعظمت الثقة به والاعتماد عليه فوجه إلى (عسير) ـ وقد كانت هائجة مائجة ـ لتسخيرها وإطفاء ضرامها، فتعلقت به هناك أدواء نهكت جسمه، وأوهنت عظمه. فعاد إلى القسطنطينية ولم تنفك عنه حتى أنشبت فيه المنية أظفارها فقضى مأسوفاً على شبابه الناضر، واقتداره الباهر. وذلك عام 1290 هـ. ودفن هناك وقد أعقب ابنتين. ورثاه شعراء بغداد. رحمة الله تعالى رحمة واسعة.

4 ـ السيد أحمد شاكر الألوسي
1911 م ـ 1330 هـ

هو أصغر أولاد الإمام أبي الثناء سناً. ولد ليلة السبت 19 صفر سنة 1264 هـ وتوفي أبوه وعمره ست سنوات. وقرأ العلوم العربية والفقهية والرياضية وسمع التفسير والحديث والمصطلح كل ذلك على أخوته الأعلام، وبعض مشايخ دار السلام. وكان جيد الذاكرة قوي الحافظة، ومما حفظه في صباه الآجرومية والألفية في النحو والرحبية في الفرائض والأمالي في العقائد ومقامات الحريري أغلبها...

وجلس في أشهر الجوامع للوعظ ريثما بلغ العشرين، وسافر إلى دمشق الشام ومنها إلى الأستانة وغيرها من البلاد الرومية مع أخيه السيد عبد الباقي، ونال الرتب العلمية من الدولة. ثم ولي القضاء في أرجاء العراق: البصرة، وكربلاء وغيرهما، وعين عضواً في مجلس الإدارة وبعض محاكم العدلية. وفي عام 1305 نقل ركابه إلى الأستانة ثانياً فاجتمع هنالك بأغلب الوكلاء ورجال العلم والوزراء ونال المثول بين يَدَيْ السلطان عبد الحميد فرقاه ـ إكراماً لفضله ونبله ـ إلى مولوية البلاد الخمس من الرتب العلمية وأنعم عليه بالوسام العالي العثماني من الرتب الثالثة ونصبه مدرساً وناظراً في مسجد السيد سلطان علي ببغداد. ثم عاد إلى مسقط رأسه فتولى التدريس ونشط لخدمة العلم ونشر بعض كتب أبيه الجليلة وظل مثابراً على هذه الطريقة حتى لفت نظر السلطان إليه ثانياً

فأحسن إليه برتبة قاضي الحرمين وبالوسام الثالث المجيدي فحسده على ذلك الوعانف من الحساد فسعوا فيه فساداً إلى عبد الحميد ـ وكان شديد الفزع والخوف ـ فاغتر بما قالوا وأوجس منه خيفة فأمر بسوقه إلى الأستانة مخفوراً فلما حوكم وظهرت براءته وتحقق لديه صدقه وإخلاصه، عينه عضواً في مجلس المعارف الكبير في الأستانة وظل هناك نحو خمس سنوات موقراً محترماً حتى فاضت روحه فجأة في شهر رمضان سنة 1330 هـ. وأعقب عدة أبناء وهم: السيد محمد درويش مدرس مدرسة السيد سلطان علي والسيد محمد فؤاد والسيد حسين.

وكان رحمه الله لين الجانب لطيف المعشر حسن السلوك ذا عقل حصيف، وحلم واسع وفضل غزير. وكان شديد التأنق في الملبس والمأكل وقلَّ من يدانيه في ذلك.

الإمام السيد
محمود شكري الألوسي

1 ـ مقالة في ترجمته من مولده إلى وفاته
2 ـ مقالة في صفاته وآدابه وأطواره... إلخ
3 ـ مقالة في مميزاته العلمية ومؤلفاته... إلخ



الإمام السيد محمود شكري الألوسي
1856 م ـ 1273 هـ

إن هذا البيان الضافي الذي سردناه وأزجيناه بين يديك من تاريخ الأسرة الألوسية التي أنجبت هذا الإمام الكبير، يدلك ولا ريب على أنها أسرة لها في المجد العلمي طارف وتليد.

فقد علمت أن جدّها الكبير كان رئيس في مدرسة الإمام أبي حنيفة النعمان وكان من المعروفين بالورع والزهد. وأن أولاده كان منهم الشاعر الأديب، والكاتب المبدع، والفقيه الحكيم، والمفسر الماهر، والواعظ المرشد وعلمت أيضاً أن أحفاده كانوا على نهج أبيهم فقد ورثوا منه العلم والأدب والنبل والشرف، وأضافوا إلى تلك مجدهم مجداً طريفاً حتى بقي لهم مجدهم موفوراً عليهم وعلى أعقابهم إلى يومنا هذا. فأكثر أبناء هذه الأسرة النبيلة قد تأدبوا واضطلعوا من الآداب العربية والعلوم الإسلامية؛ وقرضوا الشعر، ونشروا البيان، وألفّوا المؤلفات الحسان، وخدموا الملة والدين خدمة انفردوا بها من بين البيوتات في عراقنا العربيّ.

وليس أدل على هذا مما قدمناه بين يديك ومما ستقف عليه في ترجمة السيد الإمام. ومن البيّن أن الفتى الناشيء في بيت علم وأدب، المتقلب بين أعطاف السيادة والجلال، يقوى نفسه حب الفضل ويتضاعف في قلبه إجلال العظمة والنبوغ، ولا سيما إذا كان قلب ذكي،

وأنف حمي، فلا ينفك يجد ويجتهد أو يضمّ إلى تالد مجده مجداً طريفاً:

«يبلىٰ الزمان وحسنه يتجدد»

كما سيظهر لك أثر ذلك جلياً في (**أبي المعالي السيد محمود شكري الألوسي**).

المقالة الأولى

مولده وتسميته:

في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف للهجرة المباركة ولد في رصافة بغداد في بيت من بيوتات العلم والمجد - طفلٌ أغر استقبل الحياة بالبكاء والعويل كأنه أحسَّ بِغيرِها وآلامها فتبرم بها، وشعر بما تكن له الليالي من المصائب والأهوال فامتعض منها، وتحقق أنْ قد وقع في الشرَك فلا محيص له ولا مناص. فبكى وأعول كأنه ينعي على والدَيْه، هذه الجناية التي جنياها عليه...

استقبل الوجود باكياً ومتبرماً، وأهله حوله يضحكون سروراً، ويتفاءَلون بمقدمه خيراً كثيراً. وشرع أصدقاء والديه يهنئونهما به راجين أن يقر الله به عيونهما، ويبارك فيه لهما، ويجعله من السعداء والصالحين؛ وهم يجهلون ما سيؤول إليه أمره من مقت الحياة والزهد في نعيمها ولذاتها...

هذا الطفل هو: محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن محمود شهاب الدين ابن عبد الله صلاح الدين بن محمود الخطيب الألوسي. وهو المعروف بجمال الدين أبي المعالي الألوسي، ينتهي نسبه إلى أشرف المخلوقات، وسيد الكائنات، محمدﷺ.

سماه أبوه بهذا الاسم، وكذلك لقبه بهذا اللقب، وكناه بهذه الكنية

جرياً وراء العادة المألوفة في ذلك العصر وسائر العصور المتقدمة. فقد كان الناس ولا سيما العلماء والأمراء منهم يكنون أبناءهم ويلقبونهم وقت تسميتهم تفاؤلاً بالخير كما هو الظاهر أنهم يقصدون بذلك التعظيم والإكرام على نحو ما كان يقصد العرب في الجاهلية كما يشير إليه قول شاعرهم:

«أكنيه حين أناديه لأكرمه»

وقد نسي الناس في العراق اليوم هذه العادة أو تناسوها. ذلك بأنهم إما قد رأوا التفاؤل لم يصدق في الغالب وإما أنهم تابعوا رأي بعض متقدمي الأعاجم المتعربين من أن «التكني وأن حسب جميع الناس أنه جلالة ورفع، إلا أنه في الحقيقة مهانة ووضع، لأن أول ما فيه أن الانتساب إلى الأبناء، منقصة ـ وأيُّ منقصة ـ للآباء وإن كان الابن قد جاوز المجرة بجلالة الخطر، واستعلى بسمو القدر على الشمس والقمر، لأنه تقديم الأخير على الأول، وتفضيل المفعول على الفاعل، وهذا حكم منكوس، وترتيب معكوس. والثاني: أنه إنْ لم يكن للرجل ولد بذلك اسم ألأ كان الرجل عقيماً، أليس يكون في دعواه كاذباً زنيماً؟ والثالث: أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العجم، ورقم منتسخ من ذلك الرقم، إذ كانت عندهم رهائن العرب، وآبائهم يغشونهم لهذا السبب، فكان يقال: قد جاء أبو فلان وأبو فلان. أيْ إن هذا والد فلان وذاك والد فلان، ليعرف ولدكل رجل بأبيه، فلا يعترض الاشتباه فيه، فلما دارت الأيام على ذلك، صارت النسبة لأولئك. والتكني ترتبٌ برتبة أهل الذمة، واستعمال لرسوم تلك الأمة. وقبيح سمج بالمسلمين أن يكونوا بسماتهم متسمين؟!!».

دراسته:

كانت العادة في المدارس الإسلامية ـ التي تدرس فيها علوم الدين واللسان ـ أن يبدأ الناشيء ـ بعد أن يشدوَ القرآن الكريم، ويتعلم الكتابة

في الكتاتيب ـ بدراسة النحو والصرف. فأول ما يتناوله من النحو متن الآجرومية أو شرح الكفراوي على الآجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية العطار. ثم الأزهرية بحاشيتها. ثم شرح القطر بحاشية السجاعي ثم الشذور. ثم الفاكهي. ثم شرح السيوطي على ألفية بن مالك ثم شرح الأشموني عليها بحاشية الصبان. ثم مغنى اللبيب لابن هشام... ومن كتب الصرف: الأمثلة والبناء والمراح والعزي والمقصود والشافية وما عليها من شروح وحواشي وتقارير؛ ويحفظ من النحو الآجرومية ومتن القطر وألفية ابن مالك. ومن الصرف الأمثلة والبناء والمراح وإن شاء حفظ متن الشافعية أيضاً. حتى إذا ما حصل على ملكه ما وميز بين المرفوع والمنصوب والمجرور كلف قراءة شيء من الفقه. فإن كان حنيفاً قرأ نور الإيضاح ثم شرحه مراقي الفلاح بحاشية الطحاوي فسائر كتب المذهب كملتقى الأبحر، والدرر على الغرر، والدر بحاشية ابن عابدين. وإن كان شافعياً قرأ متن القاضي أبي شجاع ثم شرح ابن قاسم الغزي عليه بحاشية البرماوي ثم شرح الخطيب الشربيني عليه ثم شرح التحرير ثم شرح المنهج... وقد يبدأ بقراءة الفقه والنحو معاً قبل أن يقوّم لسانه. ثم يقرأ فن الوضع فالمنطق فالبلاغة فالعقائد فأصول الفقه ويُعْنىٰ بهذه عنايته بالنحو والصرف. فيقرأ من الوضع (عصام الدين) ومن المنطق الأيساغوجي والتهذيب والشمسية وما عليها من شروح وتقارير. ومن البلاغة شرح عصام على متن السمرقندية. ثم شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص الخطيب القزويني. ومن العقائد النسفية وشرحها. ومن أصول الفقه الشاشي وشرح المحلى على جمع الجوامع بحاشية البناني. وقد يقرأ من الحديث شرح الأربعين (على نية البركة!) ومن التفسير طرفاً من تفسير البيضاوي أو كشاف جار الله الزمخشري. وإذا سمعت بالطالب الهمة شدا متناً في العروض والقوافي ومناً في الحساب وكتيباً في الهيئة القديمة وكتيباً في الحكمة، وحفظ بضع مقامات من مقامات الحريري...

ولا شك أن أبا المعالي كان له من الحفظ في دراسة هذه الكتب واستظهار ما يستظهر منها ما كان لكل طالب يختلف إلى المدارس الدينية في المساجد. ومهما يكن من قلة جدوى هذه الكتب المشوشة المشوهة وفساد هذه الطريقة التدريسية العديمة الإنتاج ـ فقد كانت نافعة له (في الجملة) في تكوين حياته العلمية ولا سيما وقد كان الأستاذ الأول له هو أبوه ذلك الأستاذ الذي لم يكن في زمنه أمكن منه في أصول الإلقاء وتقريب عويص المسائل إلى الأذهان.

شيوخه:

أخذ أبو المعالي مبادىء العلوم اللسانية والدينية عن أبيه، وجوّد عليه الخط بأنواعه المستعملة لذلك العهد في العراق، وورث منه فقه النفس، وحسن السمت، وصفاء الطوية، وحب الأدب والعلم، والقرطاس والقلم. ولم يكد يستنفد ما عنده حتى فجع بموته وهو أحوج ما يكون إلى أب مثله حدب عليه بارّ به متعهد لجسمه وعقله بالتربية والتعليم. . .

فكفله عمه العلامة الكبير السيد نعمان خير الدين وعنى بتهذيبه وتعليمه عناية أبيه به فكان له خير عزاء عنه. فأبوه وعمه هما الأستاذان اللذان لهما الأثر الأكبر في تكوين حياته العلمية والعقلية على ما كان من الاختلاف بينهما في المذهب والمشرب كما عرفتَ ذلك من ترجمتها. ولكن الشاب المتأثر بالعقيدة الخَلَفية والمتشبع بالروح الصوفية الموروثة له من أبيه وأستاذه الأول لم يستطع ملازمة دروس عمه المستقبل بعلمه وآرائه الضارب بالخزعبلات الصوفية والمذاهب التقليدية عرض الحائط، فصرف التعصبُ بصره عن عمه إلى ارتياد غيره، ولكن الروح الذي غرسه عمه فيه لم يلبث أن نما فيه وأينع، بعد أن توسع في العلم واطلع، وتفقه في الأدب واضطلع، فضرب بكل ما ورثه عن أبيه عرض الحائط. . .

أخذ يختلف ـ بعد انصرافه عن دروس عمه ـ إلى مشايخ العلم في

بغداد وينتاب مجالس دروسهم على سبيل التجربة. ولم يكن ليروقه منهم إلا شيخ موصلي هاجر إلى بغداد له علم المطلعين وزهد الزاهدين وقناعة المتوكلين ومشرب المتصوفين (وهو الشيخ إسماعيل بن مصطفى مدرس جامع الصاغة). فثافن هذا وأخذ عنه أغلب العلوم التي ذكرناها. وقد كان هذا الشيخ مقلداً محضاً كسائر شيوخ بغداد يدرس (كتب الجادة) ويأتي بعبارات الشراح والمحشين كما هي عن ظهر غيب، ولا يكاد يخل بشيء ما منها. بل كان شِبْه أمّي إذا احتاج إلى إنشاء ألوكة عهد بها إلى تلميذه أبي المعالي؛ وميزته التي حببته إليه إنما هي المشرب الصبوفيّ ثم قوة حافظته النادرة المثال.

تصدره للتدريس:

لم يكتف أبو المعالي بعد أن قضى زمن الدراسة بما شدا من الكتب وتلقى عن المشايخ شأن طلاب العلم عندنا بل جدَّ به الحرص على مواصلة الدرس ومتابعة البحث. وكلف بالتاريخ والسير واللغة، وزاول الكتابة التي كاد يتقلص ظلها من ربوع العراق حتى جاء منه عالم نحرير ومؤلف ضليع. له الاطلاع الواسع والمادة الغزيرة والتحقيق النادر والرأي الصائب، وإليه المرجع في المشكلات وعليه المعوّل في الفصل والقضاء. وتصدر في أثناء الطلب للتدريس تارة في داره وأخرى في جامع عادلة خاتون. ثم عين مدرساً رسمياً في جامع الحيدرية ثم في جامع السيد سلطان علي فكان يدرس في الأول صباحاً وفي الثاني مساء. ولما توفي العلامة السيد علي علاء الدين الألوسي مدرس مدرسة مرجان وكل أمر مدرسته إليه لقرابته منه وجعل «رئيس المدرسين» فترك مدرسة السيد السلطان علي[1] واكتفى بالحيدرية ومرجان، وقد تخرج به خلق كثير.

---

(1) تركها لابن أخته السيد إبراهيم ثابت الألوسي الذي عين بعد وفاته مدرساً في مرجان.

فوزه في مضمار لجنة اللغات الشرقية في استكهولم:

في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة اقترحت (لجنة اللغات الشرقية) المنعقدة في (استكهولم) بدعوة (اسكار الثاني) ملك (أسوج ونروج) على العلماء الأخصائيين بتاريخ العرب والإسلام في الشرق والغرب تأليف كتاب يستوفي أحوال العرب قبل الإسلام، ويستوعب ما كانوا عليه في جاهليتهم من العوائد والأحكام؛ واشترطت أن يكون مشتملاً عل بيان من يطلق عليه لفظ العرب، وإقامة الدليل على فضلهم على غيرهم، وبيان نسب من اشتهر من القبائل وذكر أشهر مساكنهم. وكيف كان حال مكة إذ ذاك، وعوائدهم في المأكل والمشرب والزواج، ومتعبداتهم وعلومهم وصنائعهم ومشاهير رجالهم في الجود والحلم والحكم والشجاعة والشعر والخطابة والطب؛ وأن يظهر الفرق بين حالتيْ أهل الحضر والبادية، وبأية وسيلة أمكنهم في زمن قصير أن يتقدموا ذلك التقدم العجيب ويتغلبوا على عدة ممالك واسعة، وأقطار شاسعة، يبلغ عدد سكانها أضعاف أضعافهم مراراً عديدة حالة كون بلادهم جارّة مقحطة خالية من بواعث المدنية؛ وهل بقي من آثارهم القديمة شيء بين من يسكنون البوادي اليوم ويُدْعَوْن بالعرب، مع إقامة الأدلة الكافية والإتيان بالمستندات القوية لإثبات كل أمر منها، وعلى المؤلف أن يستند في استخراجاته على الشعر الجاهلي وما تضمنه من ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والسير والتواريخ الصحيحة...

اقترحت اللجنة هذا الاقتراح مشترطة هذه الشروط وخصت فريقاً من المشاهير بالدعوة للاشتراك في هذا الميدان الواسع المدى المترامي الأطراف، ومن بينهم نابغة العراق السيد الألوسي. فلبى نداءها فيمن لبّى وأعمل يراعته في تأليف الكتاب المطلوب مراعياً للشروط السابقة مع زيادات لم تكن بالحسبان. **حتى إذا حان اليوم الموعود عرض كتابه (بلوغ**

الأَرَب، في أحوال العرَب) في ثلاثة مجلدات، على تلكم اللجنة النقادة. ولدى السبر أدركت أن أجمع المؤلفات التي وردتها مادة، وأوسعها جادةً، وأغزرها فائدة، وأجزلها عائدة، وأقربها مراعاة للشروط التي ألزمتها لمن يدخل في ميدان السباق هو كتاب بلوغ الأرب فاستحق الكتاب التقريظ كما استحق المؤلف الثناء وفاز دون سواه بالجائزة والوسام الذهبي الأخضر الجلدة. وبعث إليه الكنت كرلودي لندبرج، قنصل أسوج ونروج العام في مصر ووكيلها السياسي، برسالتين فيما أعلم (وسنوردهما) أثنى بهما عليه ووعده بطبع كتابه تخليداً لمآثره في خزائن الآداب.

ولما نشر اسم الفائز وطبع الكتاب حبّرت المجلات والصحف السيارة في الشرق والغرب الفصول الضافية الذيول في تقريظ الكتاب وإطراء مؤلفه النابغة الذي نشأ في بيئة متأخرة كل التأخر فسبق واجتهاده كل من حبّر وكتب، من أبناء البلاد المتقدمة في مضمار العلم والأدب؛ فرددت صدى اسمه الآفاق، وعرف فضله الخاص والعام،واتصل به كثير من المستشرقين، ولم يرد أحد منهم إلى هذه الديار إلا قصده واستطلع طلع آرائه واقتبس من أبحاثه واستفاد من دروسه. قال صديقنا العالم المستشرق الإفرنسي الشهير لويس ماسينيون (L. Massignon) في محاضرة ألقاها في مدرسة الحقوق العربية بدمشق في 29 تشرين الثاني سنة 1920 م، ونشرت في مجلة المجمع العلمي العربي (م 1 ص 24) بعنون (ملتقى الأدبين): «.... أتذكر الآن مَن ساعدوني من إخوانكم المسلمين، ولن أنسى أبداً الشيخ محمود شكري الألوسي وابن عمه الحاج علي فهما ساعداني مساعدات أخلاقية مهمة، وأفهماني أهمية ملتقى الأدبين الشرقي والغربي...».
وإليك كتابَيْ الكنت كرلودي لندبرج:

ـ 1 ـ

حضرة الأستاذ الفاضل السيد محمود أفندي شكري الألوسيّ البغدادي حفظه الله.

السيد أدام الله زينه، وأقر بالمسرة عينه، وأجرى بالحكمة أقلامه، وثبت في مواقف المعارف أقدامه، وأطلع من بدائعه في سماء الأدب بدراً منيراً، ورفع له في ملأ العرفان ذكراً كبيراً ـ وردنا مؤلفه الموسوم **بلوغ الأَرب، في معرفة أحوال العرب**، فسرّنا صنيعه المحمود، وبشرنا بنوال المقصود، إذ تبيّنا منه غيرة مؤلفه حفظه الله على العلوم، وتصديه لنشر ما هو منها مطويّ مكتوم، كيف لا وموضوعه من الأهمية بمكان، لا يقوم بالتعبير عنْ جلالته اللسان، فالعرب هم مَن عرفنا رجال اللسن والفصاحة، ومظهر الكرم والسماحة، حميتهم مشهورة، وحماستهم غير منكورة؛ ولكن واأسفاه لو يجدي الأسف، على ما آلم لما ألَمَّ بأحوالهم من التلف، فإن جبَّ الإِسلام ما قبله، استلزم بالمرة جهله خصوصاً وقد اشتغل أهل القرن الأوّل وبعض الثاني بالغزوات والفتوح، لما وجدوه في أنفسهم من حلاوة الإيمان الممنوح، فتلقوا ذلك بصدر رحيب، وقابلوا الكفار من القتال بكل نوع عجيب[1]! حتى استقام عماد الدين، وذلت أعناق المضادين، فكان ذلك عن التأليف شغلاً شاغلاً، وحجاباً عن الاهتداء إلى سابق الأمور حائلاً! لأن النفس كما لا يخفى على البصير الناقد، لا تقوى على شيئين في آن واحد، ثم جاء الخالفون فدوّنوا ما وصل إليهم من الأنباء، إلاّ أنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، فإن في مائتي سنة ما يكفي لضياع أكثر الأمور، ولا سيما إذا تعذر الوصل وتباعدت الدور. فنحن نشكر السيد على هذه الهمة

(1) في هذا القول جور لا يبعد صدوره من الفرنجة. وليت المقام يسمح لنا بشرح هذه المسألة التي يتفيهق بها أعداء الإسلام.

المحمودة، والغيرة العلمية المشهودة، فلا شك أنه أجهد نفسه في البحث والنقاب، حتى استخلص من بين تلك القشور ذلك اللباب، فهكذا تكون الهمم، ولمثل ذلك فليعمد رجال الحكم؛ فأما الكتاب المذكور فسنتروّى فيما جاء ضمنه، ثم نبعث به لأخواننا أعضاء اللجنة مؤملين أنْ يحظىٰ بالقبول ويعامل من الرضى بما هو المأمول. هذا وإنا ليسرنا كل مؤلف مهما كان موضوعه فكيف بكتاب الأستاذ وفضله شفيعه، فليطلق لهمته عنانها، وليقوم من غيرته سنانها. ثم ليطعن في نحور الجهالة برماح أقلامه، حتى تتألف دولة الأَدب مستظلة بأعلامه، لا زال للخيرات موفقاً، للآمال فيه محقّقاً، والسلام عليه ورحمة الله.

الكنت

تتسن في 4 يوليو سنة 1882 م　　　　كرلو دي لندبرج

ـ 2 ـ

حضرة العالم الفاضل السيد محمود شكري أفندي أعزه الله.

أيد الله الأستاذ وشرح بالمعارف صدره، ورفع بالكمالات قدره، ولا زالت تحييه المعالي، وتخدمه بأبيضها وأسودها الأيام والليالي. نكتب إليه وفضله لدينا أظهر من الظهور، وأشهر من كل مشهور، معتقدين أنه يسر بما نتلوه عليه، إذا ألقى بمقاليد سمعه إليه، وذلك أن كتابه بلوغ الأرب جليل في بابه، وقد استحق التقدم على أضرابه، فإن جميع الكتب التي وصلتنا في هذا الصدد، مع ما بلغت إليه من كثرة العدد، واختلاف مصادرها شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، من أوربا ومصر والشام والعراق، وغيرها من افاق، لم يحصل سواك من أربابها أحد، على تلك الجائزة التي سبق بها الوعد، لأن الموضوع واديه عميق، بعيد الطريق، غير أن كتاب الأستاذ مع ذلك أجمع الكل مادةً، وأوسعها جادة، فلذلك أنعم عليه صاحب الجلالة مولانا ملك السويد والنرويج

بنيشان من الذهب، أخضر العلاقة لا أخضر الجلدة من بيت العرب، وهذا النيشان لا يناله إلا عالم فاضل، وقد خصص به الأستاذ دون سواه على كثرة الأمل. فليجعل صدره له حلية، وليفخر به على نظرائه فإنما يحسن الفخر على العلية. وليعلم أننا قد عزمنا على طبع ذلك الكتاب، تخليداً لمآثر صاحبه في خزائن الأداب، فلينشط لمثله همته، وليجرد على أعناق الخمول عزمته، والسلام عليه ورحمة الله.

القاهرة 12 ربيع الأول سنة 1307 هـ

الكونت كرلودي لندبرج

قنصل السويد والنرويج العام في مصر ووكيلها السياسي

تحرره، وحادثة نفيه:

قد يجوز لنا أن نعتبر القرن الثالث عشر خير عصور الانحطاط العلمي والعقلي التي مرت على عاصمة العباسيين، بما نبغ فيه من رجالات الأدب، وبعض الأفراد المستقلين بالعلم الصحيح، والدين الرجيح، الذين لم تحلم بمثلهم بغداد منذ تقلص ظل العباسيين عنها وسقوطها بيد الأعاجم إلى يومنا هذا. وقد كان يرجى أن يكون القرن الذي يليه أحفل منه بالعلماء المستقلين، وأزهر بالأدباء والمتأدبين، وأنور بالمصلحين والمفكرين؛ ولكن ما كاد ينطوي بساط ذلك القرن بما فيه حتى آل الأمر إلى بعض السلاطين الذين كان من سياستهم إرضاء المشعبذين بالدين واستدناؤهم منهم ليحولوا جماهير العوام إليهم فيقوى بهم ضعفهم، ويشتد ساعدهم، وينبسط سلطانهم فيستمتعوا بشهواتهم ويتذوقوا لذة الاستفادة من غفلتهم ـ فحارب العلم وساعد الجهل، فظهرت دجاجلة الطرق والملبسون متظاهرين بالدين يثبتون روح الفساد ويغررون بالعامة ومن ورائهم السلطة تؤيدهم وتعزّز دعوتهم حتى تمَّ له على يدهم ما أراد، فبينت التكايا، وشيدت القباب على قبور المتمشيخة

والدجالين، من رفاعيين ونقشبنديين، وقادريين وعيدروسيين، وعظم سلطان الشرك والرياء، ونذرت للقبور النذور، وقربت لها القرابين وعلقت عليها التمائم وأوقدت لها السرج؛ حتى صار المتدين في نظر الناس من يضرب بالدف ويرقص في «حلقة الذكر» والعالم من يطيل الذقن، ويكحل العين، ويكبر الردن؛ وصار العالم المستقلّ والموحد العريق **إذا أنكر عليهم شيئاً من أضاليلهم يُنْبز (بوهابي) بل يُنبذ ويُسخط عليه ويُنتقم منه بكل ما يقتدر عليه ويساعد عليه السلطان الجائر...** وهكذا انقلبت الحال، وساء المآل، وأخمدت الأرواح الحية، ووئدت الحرية الدينية، واشتدت وطأة الجهل، واستفحل أمر الرياء، وعلقت جسم المجتمع الأدواء، فما كان يولد يومئذٍ مولود إلا أفسد ذلك «المجتمع العليل» فطرته، وأخمد ما أودع الله فيه من نور دونه نور جمرة الفلك.

وقد قدمنا عن السيد أنه أصيب بما يصاب به كل فكر حيّ في ذلك المجتمع ومُنيَ بما يُمْنىٰ به كل منتم لمدارس الدين من التقليد الأعمى، والجمود على كتب ألفت في أيام التقهقر والانحطاط تسمى «كتب الجادة» وقد عددنا كثيراً منها، وهي محشوة بالرث البالي من آراء الأعاجم السخيفة، وحكاياتهم التافهة، ومناقشاتهم الفجة، التي كانوا يتلقونها بالتسليم، ويأخذونها بيد الإجلال والتعظيم، من غير تمحيص لما فيها من الحق والباطل بل كانوا ـ ولهم اليوم بين ظهرانينا خلف ـ يعكفون عليها كعكوف المشرك على ضمنه. إذا حاول أن يزحزحه عنه مزحزح قام وشهر عليه سيفه فإِما أنْ يتمكن هذا من الفرار فينجو من شره وإما أن يتمكن ذاك منه فيقضي عليه بضربة لا يثنيها.

استمر السيد على هذه الطريقة العوجاء متأثراً بها مدة من الزمن ليست بالقليلة لا يكاد يلويه عنها أحد حتى برقت له بارقة اليقين ـ وقد تجاوزت سنه الثلاثين ـ من سماوات كتب بعض الأئمة المجددين، التي

نالتها يده في خزانة كتب عمه وأستاذه العلامة السيد نعمان خير الدين، كمؤلفات شيخ الإسلام أبي العباس أحمد تقي الدين ابن تيمية الحراني وتلميذه الإمام ابن القيم رضي الله عنهما، فاهتدى بنورها الوضاء، إلى المحجة البيضاء، التي لا يضل سالكها؛ وكسر قيود التعصب الذميم، وفك من عنقه ربقة التقليد الأعمى، وطفق يأخذ بالكتاب والسنة وبما يوفقهما من كلام سلف الأمة، من غير تحزب لشيعة أو مذهب، بل يأخذ الحق حيث وجده ويعزه حيث ألفاه.

ولكنه وواأسفاه لم يستطع يومئذٍ أن يجاهر بآرائه بل اضطر إلى المجاملة والتستر تحت ستار التقية خشية أن يقع بيد من لا يخاف الله ولا يرحمه مع عدم من ينصره ويأخذ بيده كما ذكر هو عن نفسه.

ومن آيات ذلك شرحه منظومة ركيكة للطاغية الضليل أبي الهدى الصيادي في مدح أحمد الرفاعي بسفر أسماه (الأسرار الإلهية، شرح القصيدة الرفاعية). وقد قدمه إلى عبد الحميد فأجازه عليه بتدريس مدرسة السيد سلطان علي ببغداد. وطبع كتابه بمصر[1].

حتى إذا عُرف فضله، وقوي ساعده، بالتفاف جماعة حوله في

---

(1) نهج الأستاذ في كتابه هذا نهجاً أدبياً وليس فيه من أمارات التقية إلا كونه شرحاً على منظومة لأبي الهدى، ولكونه مقدماً إلى عبد الحميد. وقد رأيت فيه تأييد قصة مد الرسول ﷺ يده إلى أحمد الرفاعي تلك القصة الخرافية والأكذوبة الشائنة التي يعدها الرفاعيون الحمقى من خوارق الكرامات ويؤلف فيها شيوخهم المؤلفات. وقد قال قائلهم:

لقد مدح الغوث الرفاعي أمة ... وماذا عسى من بعد أن قبل اليدا

ومن شرف الأرث الصحيح لذاته ... متى ذكروه يذكرون محمدا

وهي من زيادات الصيادى على الكتاب وليست من الأستاذ كما ذكر لي هو ـ وهو صادق في كل ما يقول ـ وقد فندها في كتابه غاية الأماني (ج 1 ص 196) أبلغ تفنيد.

بغداد، وانتشار أصدقائه ومحبيه في سائر البلاد، وصار له شأن يدفع به عنه عاديات الاضطهاد، خلع عنه ذلكم الرداء رداء المجاملة والتقية، وهتف مع شدة وطأة الاستبداد الحميديّ بضرورة تطهير الدين من أوضار البدع التي طرأت عليه، ونبذ التقليد الذي هو علة العلل في انحطاط المدارك والأفكار؛ وشنَّ الغارات الشعواء على الخرافات المتأصلة في النفوس والتقاليد السخيفة التي شبّ عليها القوم وشابوا بمؤلفات ورسائل زعزعت أسس الباطل، وأحدثت انقلاباً عظيماً لا يزال تأثيره عاملاً في النفوس عمله المطلوب، فغاظ ذلك «أصحاب العمائم المكورة، والأردان المكبرة، والأذيال المجررة» من كل حشوي غرّ، وجاهل غمر، ذي خداع ومكر؛ وصاروا يشنعون عليه في مجالسهم وينبزونه بوهابي وهي كلمة ينفر منها السواد الجاهل حيث توحي إليهم أبالستهم زخرف القول زورا ويذكرون لهم عن الوهابي أنه منكر للرسل وعدوّ لجميع المسلمين يريق الدماء ويستحلّ الحرمات[1]، وضرب من هذا اللغو الذي لا يجرؤ

---

(1) من تتبع الحقائق عرف أن هذا بهتان روجته السياسية على البسطاء باسم الدين والمذهب. فإن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، ونهضة الأمير محمد بن سعود في تأييدها ثم بسط سلطانه على البلاد التركية، ومحاولته نزع الخلافة من الترك وإرجاعها إلى العرب: كل ذلك حمل الأتراك على حربهم، والتشنيع على معتقداتهم، والنيل منهم بضروب الوسائل. وقد حملوا كثيرين من سماسرتهم وكتابهم وصنائعهم على الحط منهم في جميع الأقطار الإسلامية ليسقطوهم من الأنظار ويضعفوا شأنهم كما صرح جميل الزهاوي البغدادي أحد ملاحدة العصر في مقدمة رباعياته بأن رده على (الوهابيين) كان سياسياً محضاً، أي أنه لفقه بمقابل أجر تقاضاه من الأتراك للقضاء على العرب! ولا أعلم متى ينتبه المسلمون من رقادهم، ولا تروج عليهم أمثال هذه الدسائس التي خدرت أعصابهم وجعلتهم شذر مذر؟

اللهم أن ذلك لا يتحمله قلب مليء بالإيمان، ولا يسبغه امرؤ رزق حظا من الإسلام، دين الأخوة والوحدة والوئام.

ـ المؤلف ـ

على التفوّه به من رزق حظاً من الإنصاف وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؛ ولم يزالوا يتربصون به الدوائر حتى عام 1320 هـ فسعوا فيه إلى (عبد الوهاب باشا) والي بغداد وكان حشوياً عدواً لرجال الإصلاح، فكتب عنه إلى عبد الحميد ما شاء وشاء له الهوى وأقل ما جاء في كتابه: أنه يبث فكرة الخروج على السلطان، ويؤسس مذهباً يناصب كل الأديان، وأن تأثيره سار، وآخذ يوماً فيوماً في الانتشار. ويخشى منه سوء المغبة... إلخ فشالت نعامته وهوهو، وأمر حالاً بنفيه ونفى كل من يمتّ معه إلى الدعوة بنسب إلى بلاد الأناضول. **فنفي هو وابن عمه السيد ثابت بن السيد نعمان الألوسي والحاج حَمَد العسافيّ النجديّ من التجار الأتقياء مخفورين وما كادوا يصلون (الموصل) حتى قام أعيانها لهذا الإجحاف وقعدوا، وسعوا إلى عبد الحميد فأقنعوه بَعدَ لأْيٍ ببراءَته، فأعيد هو وصاحباه إلى بغداد، بعد أن قضوا في الموصل شهرين لاقوا فيهما من الحفاوة ما يعجز عن شرحه اللسان، ويكل دون تحبيره البنان.**

❀ ❀ ❀

إن ما نال الأستاذ المصلح من أذى المتحذلقين قد لا يعد شيئاً بالنسبة إلى ما نال الأئمة المصلحين قبله من ضروب التنكيل والعذاب والاضطهاد، ومن نظر في بطون السير والتواريخ رأى العجب العجاب. فكم من مصلح مثل به في سبيل نصرة الحق وسلخ جلده وهو حيّ وكم من ثابت على مبدإٍ صحيح عذب وضرب بالسياط حتى شلت أطرافه، وآخر احرقت آثاره وليس فيها غير الدعوة إلى الحق المبين واتباع سبيل المؤمنين.

هذا عبد الرحمن بن أبي ليلى: ضربه الحجاج أربعمائة سوط ثم قتله. وسعيد ابن المسيّب: ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شاتٍ وألبس جبة صوف. والإمام مالك بن أنس:

جرّده جعفر بن علي بن عم أبي جعفر المنصور وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلعت كتفاه وذلك جزاء قوله الحق حين سئل عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقولهم له: «إن في أعناقنا مبايعة أبي جعفر» فقال: «إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» فأسرع الناس إلى محمد فسعى به فضرب لذلك. قال صاحب الفلاكة: «ثم لم يزل بعد في علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حلياً تحلى بها. والإمام أحمد ابن حنبل: أمر المعتصم بضربه فأخذ وجيء بالعقابين والسياط وضرب ضرباً مبرحاً حتى أغمي عليه وغاب عقله وذلك أنه أبى أن يقول خلاف ما يعلم أو يعتقد حين أجلسه المعتصم ودعاه إلى القول بخلق القرآن فامتنع وقال له: «ما قال ذلك ابن عمك رسول الله ﷺ فقد دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن القرآن علم الله ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر». وكذلك يوسف بن يحيى البويطي صاحب الإمام الشافعي: حمل إلى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنه أربعون رطلاً وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده.

والإمام ابن حزم الظاهريّ صاحب الفِصَل: تألبت عليه الجهلة الأغمار وكادوه واستظهروا عليه بالامراء فأحرقوا كتبه الثمينة ومصنفاته وفي ذلك قال:

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي ... وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

والإمام المجدد العظيم أبو العباس ابن تيمية: من وقف على ما ناله من ضراء جهلة زمانه من ضروب النفي والحبس والتعذيب أخذ العجب منه مأخذه. وقد توفي مسجوناً في قلعة دمشق، ومثله تلميذه الإمام ابن القيم رحمهم الله.

وضمّ إلى هؤلاء العظماء ألوفاً من الأساطين ابتلوا بمثل ما ابتلى به أولئك أو بأشد منه ولا تفتأ الحوادث تتجدد وتتعاقب في كل عصر ومصر ولا يكاد يسلم مصلح من أذى المفسدين وشر الرعاع. ولشيخنا الأستاذ الإمام، أسوة في أولئك الأعلام، بل فيمن هم أعظم منهم وهم الأنبياء عليهم السلام، فإن ما أصابهم من أقوامهم من التقتيل والتعذيب ما لا يخفى على من له بأحوال الغابرين أدنى إلمام.

وأن موت المخلصين من المصلحين في سبيل الحق بعثٌ لهم ونشور، إذ تذكرهم بأعمالهم المجيدة الأجيال فالأجيال على ممر الدهور، وأن المفسدين ليذهبون كأمس الدابر، وليس لهم من شاكر أو ذاكر ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولله في خلقه شؤون.

اتصاله بالسياسة

عزلته وفشله فيها ـ اتصاله بالوزير سري باشا وتحريره جريدة الزوراء ـ اتصاله بجمال باشا ـ سفره إلى نجد ـ ما بعد سقوط بغداد وزهده في المناصب

الأستاذ من فطرته ميَّال إلى الوَحدة. واحتلابُهُ أشطُرَ الدهر وتجربتُهُ الناس واختباره إياهم صاحباً بعد صاحب قوّى ميله إليها وحبه إياها «ووجد أوفق ما يصنعه في أيام الحياة عزلة تجعله من الناس كبارح الأروىٰ من سانح النعام» ولكنّ العزلة التامة لم تكن لتتيسر له، فإنه برغم ابتعاده وانقباضه عن الناس كان الناس يسعون إليه ويستشفعون بجاهه إلى أُولي الأمر كما كان أولو الأمر يحبون مجلسه ويتقربون إليه بكل ما يستطيعون زلفى. وحياؤه الغريب المثال يحول بينه وبين ردهم فأجبر على الخروج على فطرته وعلى ما لزم به نفسه ولم يظفر بأمنيته.

جاء بغداد الوزير سري باشا والياً وكان أخا علم وأدب، يقضي ليله ونهاره بمطالعة الكتب، ومحاورة العلماء، ومطارحة الأدباء، فلم يَرَ فيها فارساً يجول معه في ميادين العلم والأدب غير الأستاذ والأستاذ غير راغب عن معاشرة الأمراء ومؤثر العزلة عن الناس، فحبب نفسه إليه كثر الترداد عليه حتى استماله إليه. فكان يقضي أكثر أوقاته، في مجالسته ومحادثته كما كان يستعين به على التأليف والتصنيف ـ وهو كاره اتصاله

به وإن كان اتصالاً علمياً لا دخل له في سياسة الدولة.

ثم أناط به إنشاء القسم العربيّ من جريدة الزوراء - وهي أول جريدة أنشئت في بغداد: أنشأها مدحت باشا سنة 1286 هـ وظلت إلى سنة 1335 هـ فحبر فيها ما شاء من المقالات العلمية والأدبية، وأوجد حركة في ذلك الجو الساكن بما كان يعرضه فيها من الأسئلة المتنوعة على علماء بغداد.

❁ ❁ ❁

توفي سري فلزم الأستاذ بعده قرارة داره لا يبرحها إلا إلى المدرسة حيث يُلقي دروسه على تلاميذه، ثم كان من أمر نفيه ما كان. ولما كانت سنة 1330 هـ تقرّب الوالي (جمال بك ثم جمال باشا) منه فكان يشاوره ويستفتيه فيما يحدث له من سياسة البلاد ويستأنس بآرائه وكلماته. ثم اتفق أن ناصب هذا بعضَ من كان سعىٰ في نفي الأستاذ من أعيان بغداد وكان «عضوَ مجلس الإدارة» ففصله عن منصبه وعرضه على الأستاذ فاعتذر عن الاشتغال في أعمال الإدارة وكل ما لا يتفق مع مسلكه العلميّ فألحَّ عليه إلا القبول كما انتخبته البلدة لهذا المنصب فلما لم يَرَ بداً من إشغاله أجاب إليه وتربع فيه مدة من الزمن فكان نصير الحق وحليف الإنصاف وسار كما هي شيمته سيرةً حميدة وكبت الظالمين وأخذ بضبع المظلومين ونفع الناس نفعاً جماً. إلى أوائل الحرب الكونية.

❁ ❁ ❁

انقدحت شرارة الحرب الكونية فاضطرمت نيرانها وحمى وطيسها، وزحف القويّ على الضعيف ليفترسه؛ وأعلنت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء فسيرت بريطانيا جيشاً مجهزاً بأنواع العُدَد إلى العراق لانتزاعه منها، فضرب على حين غفلة (الفاوَ) ثم احتلّ البصرة من دون أن يلقى أقلَّ مقاومة فاضطرب الأتراك أيما اضطراب وتحققوا ضياع

العراق حيث أنهم لم يحصنوه ولا أعدّوا له جيشاً يكلؤه ويدفع عنه الغارات فكان لكل أحد أن يتغلغل فيه من أي جهاته شاء ـ فعمدت إلى الاستنجاد بصاحب نجد الأمير عبد العزيز السعود[1]، وانتدبت الأستاذ لمفاوضته في هذا الشأن فلم يسعه إلاّ الإجابة وهو أشد ما يكون متذمراً وكارهاً لأنه يعلم أن تشبث الغريق بالحثيث لا يجديه شيئاً وأن إجابة صاحب نجد إلى طلبهم ضرب من المستحيلات. وجعلت في «معيته» ابن عمّه أستاذنا العلاّمة اللوذعي الأريب السيد عليّ علاء الدين الألوسي، وصديقنا الواعظ الذلق الحاج نعمان الأعظمي، والضابط الحاج بكر أفندي. فشدوا الرحال ليلة الأحد عاشر المحرم سنة 1333 هـ إلى نجد عن طريق سورية فالحجاز حتى إذا ما بلغوا عاصمة نجد ووصل خبر مجيء الوفد برياسة الأستاذ الإمام خرج لاستقبالهم جمع حاشد ورحب الأمير عبد العزيز بالأستاذ واغتبط بمثافنته واحتفى به احتفاءً عظيماً، ثم فاوضه الأستاذ بالأمر الذي جاءه به وحضّه على معونة الحكومة العثمانية والأخذ بيدها. . . فما كان منه إلا أن أبدى له معاذير لا تكاد تقبل رداً ولا تأويلاً وقال له إنه لولاها لما تأخر ساعة عن نصرها.

فرجع إدراجه غير ناجح في سعيه كما توقع ذلك في بادىء الأمر. وتفقد في طريقه ذهاباً وإياباً معاهد العلم وخزائن الكتب، واجتمع به أكابر علماء هاتيك الديار فاستفادوا منه علماً جماً وأدباً غضاً وكان موضع التجلة والاحترام في كل بلد مر عليه.

ولما وصل الشام ـ وكان قد استبان تباشير النهضة العربية واشتد حنق العرب والأتراك بعضهم على بعض وعظم إرهاق الأتراك وتعذيبهم لأحرار العرب ـ ظن بعض الناقمين على الأستاذ من الحشويين أنهم

---

(1) هو اليوم سلطان نجد وملك الحجاز.

وجدوا لأنفسهم عليه سبيلاً فأغروا به (جمال باشا السفّاح ناظر البحرية العثمانية وقائد الجيش الرابع) الذي كان الأستاذ أحب الناس إليه زاعمين ـ وبئس الزعم ما زعموا ـ أنه هو الذي متن صاحب نجد على الدولة وَحَسّنَ له التقاعس عن نصرتها، فلم يصغ جمال باشا إليهم لما يعهد فيه من الصدق والإخلاص والسعي في جمع كلمة المسلمين والإيلاف بين الفِرَق التي أوجدتها الأهواء السياسية والمطامع.

عاد الأستاذ إلى مسقط رأسه سالماً من كيد أبالسة التدجيل والتضليل، وعاد إلى سيرته الأولى في التأليف والتدريس حتى سقوط بغداد سنة 1335 هـ بيد الإنكليز فعرضوا عليه قضاء بغداد فزهد وانقبض عن مخالطتهم. ثم عُرِضَ عليه في أوائل تشكيل الحكومة العربية المؤقتة الإفتاء فرياسة مجلس التمييز الشرعي فالقضاء (أيضاً) فالمشيخة الإسلامية ـ فرفض كل خدمة غير خدمة العلم الصحيح ونشره بين أفراد الأمة تصنيفاً وتدريساً. وقبل عضوية مجلس المعارف من توسيع نطاق العلم في العراق، وعضوية المجمع العلمي العربي بدمشق فخرياً. وستعلم سبب امتناعه عن قبول تلك الوظائف عند بيان أطواره.

أواخر أيامه ووفاته

ابتلى الإمام سنة 1337 هـ (أي قبل اتصالي به بنحو سنتين) برمل في المثانة فلم يهتم به وظن أنه عرض لا يلبث أن يزول فزال كما كان يظن ألمه ولكن أثره لم يزل كامناً فيه والرمل يتراكم شيئاً فشيئاً حتى سد المجرى، فثارت ثائرته بعد مرور نحو عامين عليه وأذاقته الأمرّين ففزع إلى الأطباء عسى أن يخففوا بعض آلامه حتى إذا لم يجد منهم خيراً كفّ واحتمل هذا الداء الوبيل، بالصبر الجميل، إلى أن هان عليه وسكنت ثائرته. إلا أنه كان يتعوذ من النكسة بعد البلة ويحذر منه أن يعود. وما هي إلا بضع سنين استراح فيها من لأوائه فهجم في أواخر عام 1341 على حين غفلة عليه فانقطع عن التدريس أياماً كان لا يقدر فيها على شيء، ثم أشار الأطباء عليه بترك المطالعة والمحادثة والاشتغال بما من شأنه أتعاب الذهن فلم يلتفت إليهم فاستحوذت عليه الحمى وضعف قلبه ونحل بدنه حتى لم يعد يقوى على تحمل المرض فكانت أقل صدمة تصيبه تسلمه إلى النفاد.

عملت تلك الأدواء عملها فيه وظل ينتظر تلك الصدمة التي تريحه من عناء هذه الدار التي كثيراً ما كان يتبرم بها، فأصيب في أول الثلث الأخير من شهر رمضان سنة 1342 هـ بذات الرئة فشعر بالموت وأخبر أنه ضيف عند الآل والأصحاب لا يلبث أن يزمع الرحيل بعد أيام إلى منزل آخر، وطلب إليهم أن يكرموا نزله ولا يؤذوه بالأطباء وعقاقيرهم.

ولبث ثلاثة عشر يوماً يقاسي الآلام والمرض يزداد يوماً فيوماً وهو يمتنع عن تناول الدواء إلا قليلاً حتى دعاه داعي المنون وكتب العلم محيطة به من كل جانب فتوفاه الله عند أذان ظهر اليوم الرابع من شوال، فاشتغلت في الحين المنائر معلمة بوفاة إمام العراق الكبير، فاستحوذت الدهشة على الناس، وأخذوا يهرعون إلى تشييع جثمانه الطاهر من كل جانب، وازدحمت الجموع على باب داره والطرقات وامتلأ جامع العاقولي والمحلّة وكثير من الدور فتولى غسله بعض الفقهاء وعجل بحمله لاشتداد الحرّ وتزاحم الجموع. ولما أخرجت جنازته فما هي إلا أن رآها الناس فأكبوا عليها وعلا الضجيج وحملوا النعش على الرؤوس وساروا به بين تكبير وتهليل وعلى حافتي الطريق رجال ونساء يبكون ويعولون. وكلما مشى النعش خطوة ازداد عدد المشيعين والباكين والمتأسفين فكان يومه يوماً مشهوداً ومشهده مشهداً عجيباً لا أظن أن بغداد في عصورها الزاهرة رأت مثله. ولما وصلت الجنازة جبانة معروف الكرخي في الكرخ صلى عليها جمع كثيف بمبلّغين كثيرين ينقلون تكبيرات الإمام وقد أشرفتُ عليهم حال الصلاة وجعلت أنظر يميناً وشمالاً فرأيت المصلين قد طبقوا تلك الفسحة كلها. ثم حملت إلى جبانة الجنيد البغدادي حيث كان قد أوصاني بدفنه هناك وصّلت عليه جماعتان كبيرتان أيضاً، واجتمع جمع من العوام وصاروا يلطمون عليه على نحو ما تفعل الشيعة يوم عاشوراء، ويصيحون ولم يسع أحداً أن ينكر عليهم حتى كفوا من عند أنفسهم، ووري بُعيد العصر وقبيل الغروب في رمسه طيبَ الله ثراه، وأحسن مثواه، وجعل الجنة نزله ومأواه، **وإنا لله وإنا إليه راجعون**.

الاحتفال بتأبينه

ما خرجت روح هذا الرجل الكبير من قفص جسده إلى فضاء الجنان إلا وناحت أسلاك البرق منبئة العالَمَ بوفاته؛ ولبست الصحف ثياب الحداد، ولطمت خدودها البيض بسواد المداد؛ وتبادل العلماء والأدباء الذين يضربون على وتر الإصلاح رسائل التعازي، وحبروا المقالات الرنانة في تأبينه والتفجع عليه؛ وانبرى الشعراء للمباراة في رثائه شاعرين أجمعين بالفراغ العظيم الذي كان يشغله في أمريْ الدين والدنيا.

وقد أقيمت له في العراق عدة «فواتح» يتلى فيها القرآن الكريم وتولم فيها الولائم: كانت تتوارد إليها الجماهير تنشد فيها القصائد ويعزّي الناس بعضهم بعضاً بمصابهم الأليم.

أقيمت له (فاتحة) في داره: أنشد فيها تلميذه الشاعر الكبير معروف الرُّصافي والزجّال الشهير ملا عبّود الكرخيّ، والأديب عبد الكريم العلاّف.

وأُخرى في مسجد حبيب العجميّ في الكرخ قام بها (السُّرَّ مَرِّيّون ـ السُّوامرة) أحسن قيام؛ وأُخرىٰ في مسجد الحيدرية قام بها أهل المحلة وأنشد فيها الشعر عبد الرحمن البناء قصيدة بائية.

وأُخرى في الحلّة الفيحاء قام بها السيد عبد السلام خطيب الجامع الكبير وَأنشد فيها الأديبان (نافع الحلّي) و(السيد قاسم السيد محمد).

وأقمنا نحن عصر يوم الأربعين (13 ذي القعدة) حفلة كبرى في فِناء جامع الحيدريّة دعونا إليها جمهوراً من العلماء والأدباء والوزراء واعيان أكتظ بهم الفناء والرواق وبقي كثير من الناس خارج الجامع يحاولون الدخول والشرطة تمنعهم خوفاً من الازدحام الذي يفسد نظام الحفلة ولم تتمكن من منعهم كما تشاء إلا بإغلاق الأبواب.

واشترك في التأبين جماعة من الأدباء. وافتُتحت الحفلة بخطاب لنا بينا فيه مشروعية التأبين ودحضنا به أقوال المتقولين من أهل الحشو والجمود الذين يحسبون التأمين أمراً منكراً...

ثم قصيدة لنا. ثم قام المؤمنون بعد ذلك واحداً تلو الآخر ينشرون على الأسماع جواهر الكلم؛ وهم: ـ الأستاذ عزالدين علم الدين عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومدرس الطبيعيات في مدرسة دار المعلمين ببغداد: ارتجل خطاباً بليغاً بين فيه منزلة السيد الألوسي في عالم العلم ومبلغ تأثير كلامه على النفوس. والمحامي عباس العزّاوي من تلاميذ الفقيد. والسيد إبراهيم منيب الپاچه جيّ. والسيد ناجي القشطيني. والسيد عبد الكريم العَلاَّف، وملاّ عَبُّود الكرخي والسيد عبد الرحمن البناء. والسيد عباس العَبدَليّ ـ وقد أرسل هذان تأبينهما من البصرة وتلاهما بعض الأدباء ـ والأستاذ معروف الرصافي وقد حالت بعض الأعذار السياسية دون أنشاد قصيدته كما اضطرتنا إلى حذف عدة أبيات من قصيدته. وناس غيرهم.



وأقام (المجمع العلمي العربي بدمشق) حفلة مشتركة بينه وبين أمير الكتاب السيد مصطفى لطفي المنفلوطي: شهدها جمهور كبير من علماء دمشق وأعيانها وفضلائها وطلاب مدارسها وطائفة كبيرة من وجهاء البلاد السورية الأخرئ وقد افتتح الحفلة الحافظ الشيخ عبد الله المنجّد بتلاوة آيات من القرآن الكريم ثم ألقى العلامة السيد محمد كرد عليّ رئيس

المجمع كلمات أبان فيها الغرض من إقامة هذه الحفلة «ألا وهو وفاء حق فقيدَيه اللذَيْن يعتز بهما المجمع لأنهما ليسا مفخراً للعراق ومصر، بل مفخر للعرب في كل مصر» وأشار إلى أن هذا الوقت الذي تقام فيه حفلة المجمع تقام فيه حفلات في مصر والعراق وبيروت وحماه وحلب وغيرها، وأنه يشارك المجمع في حفلته هذه كثير من البلاد على بعد الدار. . . . وقدم الخطباء وقال: أن السيد فؤاد الملاّح من أدباء طرابلس الشام أرسل للمجمع مرثية بالفقيدين لا يتمكن المجمع من تلاوتها.

وألقى بعده العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار كلمة جاء فيها «لو كان السيد الألوسيّ وليد الأيام، أو نتيجة الأعوام، لكان المصاب فيه خفيف الوقع سهل الاحتمال، ولكنه من الأفراد الذين لا يجود العصر أو العصور بواحد منهم أو برجال يعدون على الأنامل، وهذا هو الذي يجعل الفجيعة بمثله أليمةً والخطب عظيماً» ثم تلا تأبينين أرسلا من بغداد (1) للأستاذ الباحث اللغوي الأب أنستاس الكرملي (2) لمؤلف هذا الكتاب. وختمهما بالثناء علينا وبما يراه بعين الرضى فينا. وأنشد بعده الأستاذ عز الدين علم الدين ـ وكان قد قفل إلى الشام بمناسبة العطلة الصيفية لزيارة أهله ـ قصيدة غراء من نظمه أجاد بها أيما إجادة.

ثم افتتح حفلة المنفلوطي العلامة الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العامل وعقبه خطيبان اثنان ابنّا المنفلوطي ورثياه. ثم ختم الحفلتين شاعر جبل اللكام السيد محمد سليمان الأحمد الملقب «ببدوي الجبل» بقصيدة وصف فيها فجيعة الأمة العربية بفقيدَيْها (الألوسي) و(المنفلوطي) رحمهما الله. انظر م 4 ص 478 من مجلة المجمع. وعدد 4055 من جريدة المقتبس.



وقد صُلّى عليه في الكويت صلاةَ الغائب عدةُ جماعات وكذلك في **نجد فقد ورد كتاب يصف وقع نعيه الشديد (الذي وصل نجداً في 3 ذي**

القعدة) على السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، وأمره جميعَ سكان نجد حاضرها وباديها بصلاة الغائب عليه؛ وما عرا النجديين عموماً من الحزن عليه... إلى غير ذلك مما لم نُحِطْ به خُبْرا. وجدير بالعالَمَين الأسلامي والعربي أن يتفجع على رجل كالإمام الألوسي قضى عمره بين الدفاتر والمحابر منصرفاً عن النعيم المادي إلى النعيم العقلي الذي هو مطمح أنظار ذوي النفوس الكبيرة، ومحتسباً حياته لخدمة الأمة والدين.



والآن ـ وقد صحبنا أبا المعالي من يوم مولده إلى يوم مماته، وحدثناك عنه بما عرفناه عنه ـ آن لنا أن نسمعك شيئاً من أحواله وأطواره وعلومه وآدابه فارع ـ رعاك الله ـ سمعك فُواقَ ناقة.

المقالة الثانية

أحواله وأخلاقه:

كان السيد رجلاً نادر المثال في مثل عصره ومصره، مستجمعاً للفضائل، واسع الإطلاع، غزير المادة، إماماً في معرفة مقالات أصحاب الملل والنحل، سلفياً أَثَرِيّاً يأخذ بالدليل دون التقليد، شديد الإنكار على الحشويّين والقبوريّين وأبالسة التدجيل وكلاب الدنيا الذين يلصقون أنفسهم بالدين والدين ينكرهم ويبرأ منهم؛ صريحاً لا يعرف المحاباة ولا المداجاة يقول للمصيب «أَصَبْتَ» وللمخطىء «أخطأت» وللصادق «صدقتَ» وللكاذب «كذبت».

وكان قويّ الشكيمة حميّ الأنف، ذكيّ القلب، شديد الغضب، سريع الرضى، عظيم التصلب بأخلاقه وعاداته، عصبيّ المزاج: لا يكاد يصبر على صحبته ومثافنته إلا من كان قريباً من مزاجه، أو عارفاً بما يغضبه ويرضيه، وواثقاً من سلامة صدره وخلوص نيته.

وكان كثير الحياء عظيم التواضع لأهل التواضع ولكن لا كمن لبس كفن التماوت فوق ثيابه. يميل إلى الفقراء، أكثر مما يميل إلى أهل الثراء، بل كثيراً ما كان يلعن عباد الدينار وينعى عليهم جشعهم وحرصهم. وكان لطيف المعشر ساعة الرضى يقتبس منه الجليس النادرة أثر الشاردة ولا يكاد يملّ مجلسه بل يودُّ لو أنه يصاحبه طول العمر.

يورد النكتة في خلال حديثه فيطرب لها السامع ولا يكاد ينساها.

وكان بعيداً عن التأنق في الملبس والمأكل وقد سئل في ذلك فقال «إنني أقنع بما في يدي يقع». وإن رائيه ليحسبه ـ لولا ما عليه من نور التقوىٰ وجلال العلم ـ من سائر الناس ولكن لسان حاله يقول نحو ما قاله الإمام الشافعيّ في نفسه:

عليَّ ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أعزّ وأكبرا

وكان يعتبر الوقت ثميناً لا يضيع منه شيئاً أبداً: ينهض إلى المدرسة مبكراً فإذا تأخر الطلاب عن الوقت المعلوم طالع أو نسخ أو حفظ آيات من القرآن الحكيم وقد تمكن من اختلاس مثل هذه الفرص أن يحفظ نحو ثُلُثَيْه. وكذلك كان يفعل بعد الفراغ من التدريس إلى أن يحين وقت الظهر فيقفل إلى الدار. ثم يذهب إلى المدرسة الثانية فيدرس إلى ما بعد العصر ثم يعود إلى الدار فأما أن يجلس لبعض الزائرين وإما أن يعود إلى مثل عمله حتى العشاء فيصلي وينام تواً. فإذا كان ثلث الليل الأخير انتبه فإما أن يتهجد نافلةً له وإما أن يكتب أو يطالع إلى قبيل طلوع الشمس فيذهب إلى المدرسة وهلم جرّاً.

وكان يجلس للزائرين صباح كل جمعة وثلاثاء حيث لا درس في هذين اليومين وقلما يقبل فيما عدا ذلك زائراً. وكان لا ينقطع عن التدريس أبداً. وأذكر أنني انقطعت في يوم مزعج شديد الريح غزير المطر كثير الوحل عن الحضور ظناً مني أنه لا يحضر أيضاً فلما شخصت إلى الدرس في اليوم الثاني صار ينشد بلهجة غضبان:

«ولا خير فيمن عاقه الحرُّ والبردُ»!

وكان شديد الثبات جلداً على البحث والتنقيب والنسخ والمطالعة لا تعرف همته الملل ولا الكسل، لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد ما

استطاع. ولا يفرغ من عمل حتى يشرع في آخر. وإذا استحسن كتاباً عاود مطالعته ولو كان مجلدات. وما ظنك بمن يتناول (لسان العرب) المعجم اللغوي لابن منظور الإفريقي وهو في عشرين مجلداً فيدرسه من مبتداه إلى منتهاه ثلاث مرات غير مغادر منه حرفاً؟ ثم ما تقول فيمن ينسخ ديوان البوصيري وأمثاله ويصححه في أقل من أسبوع على وفرة أشغاله وكبر سنه وتناوب أمراضه، بل يؤلف في شهر كتاباً في سبعين كراسة بياضاً من دون تسويد؟ بمثل هذا المضاء وقوة الإرادة بلغ رحمه الله شأواً تقصر دون بلوغهم الأبطال، ونال من المجد ما لا يكاد يشيده ألوف الرجال، فيحق له ولمن كان له مضاؤه أن ينشد:

يا من يحاول بالأماني رتبتي ... كم بين مُشْتَفِلٍ وآخر راق؟
أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي؟

لا والله! لا تدرك الرتبة بالأماني ولا يبلغ ذلك الشأو بالكسل والتواني!

وكان في آخر أمره لا يجتبي تلميذاً ما لم يعجم عوده ويثق من أدبه وذكائه لأنه رأى من بعض الأذناب الذين خرجهم وجعلهم بفضله في الذؤابة ما لم يكن ليأمله من ضروب الإساآت وسوء المنقلب والعياذ بالله:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولما حاولت الاتصال به والأخذ عنه كلفني نسخ كتاب نقض أساس التقديس للإمام شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وكان قد استكتب منه نحو مجلدين كبيرين وجدهما في الشام وغيرها، وإنما أراد بذلك اختبار مقدورتي وفهمي، والتحقيقَ من الخارج عني؛ حتى إذا ما وثق مني أمرني بحضور الدرس، وبذل من العناية بتعليمي وتدريبي ما أنا عن شكره ووفائه عاجز!



ونختم هذه الكلمة بشهادة لعالم مصلح كبير (أظنه الشيخ كامل الرافعي) كان قد زار العراق واجتمع بعلمائه ونشر في مجلة المنار الغراء مقالة بديعة وصف بها حالات العراق السياسية والعلمية والأدبية واستطرد إلى ذكر الفقيد وابن عمه وأثنى عليهما بلسان الإنصاف ما شاء الله أن يثني.

وبقصيدة عامرة في صفته أملتها أخلاقه السامية ومزاياه العالية على قلم صديقه العالم الأديب الضليع أحمد بك الشاوي الحميري رحمه الله وكان في إحدى البلاد نائياً عنه.

1 ـ كلمة الرافعي

قال الرافعي:

«. . . ولقد اجتمعت بكثير من علماء بغداد وعقلائها وأشرافها ولم أر فيهم أجمع لفنون الفصل وصفات الكمال كشكري أفندي الألوسي وابن عمه الحاج علي أفندي. فلقد رأيت من سعة اطلاعهما وقوة دينهما وسلامة عقيدتهما السلفية واستنارة عقولهما ووقوفهما على حكمة الدين وأسراره واطلاعهما على أمراض الإِسلام والتهابهما غيرةً وحمية على الدين ومجاهدتهما في سبيله فريقاً من الجامدين من المقلدة وعبّاد القبور ـ ما بهرني وعشقني فيهما. **ولقد أوذوا في هذا السبيل وامتهنوا فما ضعفوا وما استكانوا، ولا يزالان يصدعان بالحق ويهتفان بضرورة الإِصلاح مع منازعة اليأس لهما وأعداؤهما من عَبَدة القبور والأوهام وأنصار التقليد والخرافات ينبزونهما باسم الوهابية لينفروا منهما ويحضّوا الحكومة على اضطهادهما.** غير أن حزبهما من ذوي العقول النيرة وطلاب الإصلاح أخذ ينمو عدده ويكثر عضده وكلهم أو جلهم من الأعيان وذوي المكانة ورفعة الشأن. ولم أر أحداً يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرها مثلهما. ولهما تعشق غريب فيها. وقد سعيا في طبع الكثير منها. وهمهما مصروفة وراء تتبعها لا طمع لهما في ذلك سوى خدمة العلم والدين فللّه دِرُّهما وعلى الله أجرهما. . .

ولشكري أفندي قوة على التأليف عجيبة، وقد ألف في رمضان رداً

على الشيخ يوسف النبهاني في سبعين كراساً بياضاً من دون تسويد. وقد تكفل بطبعه أحد تجار جُدَّة فأرسله إليه وهو كتاب نفيس يقضي على النبهاني قضاء لا يسمع له صوت من بعده... إلخ» (مجلة المنار: م 11 ص 46).

2 ـ قصيدة أحمد بك الشاوى

معتبي ـ لو أعتب الدهر ـ للدهر   بما قد جرى لا تنقضي آخر العمر
وحربي مع الأيام لا صلحَ بعده   ولا هدنة حتى أوسد في القبر
وكيف وقد روّعنني بفراق من   عليَّ فراقيهِ أمرّ من الصبر
أخ ماجد ما دنّس اللؤم عرضه   ولا خاط كَشْحَيْهِ على الغدر والمكر
ولا قلّبٌ قلْب المودة إنْ يَغبْ   له صاحب يدميه بالناب والظفر
ولكنه يعطي الأخوّة حقها   ويجمع لخلّ الوفاء مع النصر
ولا هو ممن همّه لبس فروة   يباهي بها أقرانه من بني المصر
وينفض تيهاً مِذْرَوَيْهِ مفاخراً   ويدفع من فرط التكبر بالصدر
ويرفل في أثوابه متبختراً   وينظر كيما يُرهب الناس عن شزر
ولو عدلت من ظالم الدهر قسمة   لعدلت بالضفع الذي فيه من صعر
وعلمته كيف السيادة عندنا   وكيف يسود المرءُ من حيث لا يدري
وعرّفته أن المعاليَ لم تكن   بأردية حمر وأردية صفر
وأن الفتى لا يمتطي صهوة العُلا   بأكل لُباب البرِّ يُلْبَك بالتمر
وما ذاق حلو المجد من لم تلذّه   ويغفر زلّات الأخلاء بالمرّ
لعمري لقد جربت أبناء دهرنا   برمتهم في حالة الخير والشرّ
وقلّبتهم ظهراً لبطن بأسرهم   مراراً لدى الحاجات في العسر واليسر
فما سمعت أذناي ما سرَّ منهم   ولا أبصرت عيناي وجه فتى حرّ
وما إنْ رأى إنسان عيني واحداً   كما شئت إنساناً يعد سوى (شكري)
ولو لم يكن في حاضر العصر مثله   لقلنا على الدنيا العفاء بذا العصر

فقل لغبيّ قاسه بسوائه | ولم يعرف التبر المصفى من التبر:
عداك الحجا أين الثريا من الثرى | وأين حصى الحصباء من درر البحر؟
وهل يستوي لا درَّ درك عالم | وفّهٌ جهول ناقص الدين والحجر

أميز أطواره:

كان شيخنا رحمه الله بصيراً بالعواقب، بعيداً عن الاغترار بالمظهر الكاذب لا يكاد يستهويه زخرف الدنيا المخادع، ولا تستميله المطامع. فلذلك كان من أطواره الميل إلى من يتقي المحارم ويتجنب الشبهات ويستقيم على العمل الصالح ويثابر على خدمة الدين والأمة ـ والامتعاض من المتمجدين أصحاب الجاه الكاذب والمجد العاطل أولئك الذين تجردوا عن كل كمال، فافتخروا بعظام في القبور بَوَال، وتعروا (كالإبرة) عن كل فضيلة وأدب، فاستطالوا على البرية بما جمعوا من المال والنشب، ولا بدع إذا ما كان يمتعض منهم فإن وجود هؤلاء بين ظهرانينا لأضر على جسم المجتمع من الجراثيم الفتاكة والطواعين الجارفة فلقد رأيناهم لا يهمهم سوى أمرهم شيء... استحبوا الأثرة وغرقوا في تيار الشهوات بين آذيّ الأهواء وألموا بالعمل السفساف، وأسفوا إلى الدناءة أيما إسفاف: الطمع رائدهم والشح قائدهم واختلاس أموال ضعاف العباد ديدنهم والأصفر الرنان قبلتهم ودينهم يجودون على الراقصات بالقناطير، ولا تندى أكفهم لمصالح البلاد بقطمير، يجيبون مناديَ الهوى، ويعصون داعي الهدى، لا حياء لهم ولا إيمان، أولئك هم شرار الخلق عند الله...

وكما كان يمتعض من هؤلاء كان يمقت التزلف إلى الحكام (وكل من يتزلف إليهم) أشد المقت، ويبتعد عنهم ولا يغشى أبوابهم خشية الافتنان، وهرباً من الزلق في مداحض الشيطان، فإنه ليس أضر على الدين وأبعث على إضاعة العلم وفساد الأخلاق من مخالطة المستبدين، وحكام السوء الجائرين، وإن المتردد إليهم لا يؤمن عليه أن يحرف الكلم عن مواضعه وينبذ كتاب الله وراء ظهره ويشتري به ثمناً قليلاً ثم

يدنس عرضه بخيانة وطنه وأمته وبترويج المظالم القاسية التي تئن منها الإنسانية عليهما حسب أهوائهم طمعاً بنيل الحظوة واكتساب الرتب والتحلي بالحلل الموشاة والأوسمة البراقة والسلاسل الذهبية، كما قد رأينا في زماننا ما كان لكثير من الهياكل الجوفاء علماء الشعار والدثار وأدعياء العلم الذين يلبسون على العامة أنهم علماء! وما دعواهم ـ يعلم الله ـ في العلم إلا كدعوى حرب في زياد! رأيناهم كيف يتهافتون على أبواب الأمراء، ويتصاغرون للعظماء، لتعظيمهم جماهير الدهماء! وكيف يتملقون للحكام ويسبحون بحمدهم بكرة وأصيلا! وكيف يواثبون رجال الإصلاح وينبزونهم بالألقاب، ويسيئون سمعتهم لدى جماهير العوام بدعوى الدفاع عن بيضة الدين وهم ـ يعلم الله ـ يحاربونه ويتجرون به! وكيف اشتروا بدينهم الدنيا، وضللوا الأمة، وقادوها بخطام الضلال إلى دركات الذل والهوان.

وإذا سئلوا، قالوا: إننا قد كفينا ـ ولله المنة والشكر! ـ فتنة الدنيا وزهدنا في حطامها وجاهها ولا نغشى أبواب الحكام إلا لضرورة شفاعة أو دفع ظُلامه، أو لنصيحة، وإرشاد إلى مصلحة!! وإن يريدون لعمر الله إلا الحطام والجاه، والتعاظم على عباد الله، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

لقد كان السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم يفرون من الأمراء المستبدين فرار السلم من الأجرب حتى أن بعضهم سلك في هذا سبيل الخشونة ولم يكرمونهم وإن زاروهم استحقاراً لهم. ورووا في ذلك آثاراً وأخباراً لا تكاد تدخل تحت العد والحصر. وقد جمع السيوطي كثيراً منها في كتاب خاص أسماه (الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين) ولم نقف عليه. منها قولهﷺ: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فأحذروهم واعتزلوهم» ومنها «من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن» ومنها: «أن ناساً

من أمتي يتفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يجتبى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتبى من قربهم إلا الخطايا» ومنها: «سيكون في آخر الزمان علماء يرغبون الناس في الآخرة ولا يرغبون ويزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون»[1]. وعن أيوب السختياني الإمام الثقة المشهور قال: «قال لي أبو قلابة - يا أيوب إحفظ عني ثلاث خصال: إياك وأبواب السلطان، وإياك ومجالسة أصحاب الأهواء، وألزم سوقك فإن الغنىٰ من العافية». وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول: إن في هذا لَغنى عن هؤلاء السلاطين: وقال وهيب: - هؤلاء الذين يدخلون على الملوك هم أضر على الأمة من المقامرين. وقال أبو ذر لسلمة: يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه. وعن محمد بن داود البصري قال: لما ولي إسماعيل بن علية على العشور - أو قال: على الصدقات - كتب إلى عبد الله بن المبارك يستمده برجال من القراء[2] يعينونه على ذلك فكتب إليه عبد الله:

يا جاعل العلم له بازيًا	يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها	بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعد ما	كنتَ دواءً للمجانين
أين رواياتك فيما مضى	عن ابن عون وابن سيرين؟
ودرسك العلم بآثاره	وترك أبواب السلاطين
تقول: أكرهت، فماذا كذا	زلّ حمار العلم في الطين!
لا تبتغ الدنيا بدين كما	يفعل ضلال الرهابين

(1) نروي هذه الأحاديث من غير أن نتحمل تبعة عدم ثبوتها عن الرسولﷺ فإننا وإن كنا نجزم بصحة بعضها إلا أن في النفس شيئاً من البعض الآخر وإن صح معناه.

(2) يعنون بالقراء علماء الدين.

وأنشد ابن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويورثك الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل بدّل الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا ... ولم تغل في البيع أثمانها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العقل إِنتانها

وقال بعض الشعراء في فقيه يتردد إلى أمير: -

قل للأمير مقالةً ... لا تركننَّ إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى ... أبوابكم لا خير فيه

وقال محمود الرواق:

ركبوا المراكب واغتدوا ... زُمَراً إلى باب الخليفه
وصلوا البكور إلى الروا ... ح ليبلغوا الرتب الشريفه
حتى إذا ظفروا بما ... طلبوا من الحال اللطيفه
وغدا المولّى منهمُ ... فرِحاً بما تحوي الصحيفه
وتعسفوا مَنْ تحتهم ... بالظلم والسير العنيفه
خانوا الخليفة عهده ... بتعسف الطرق المخوفه
باعوا الأمانة بالخيا ... نة واشتروا بالأمن جيفه
عقدوا الشحوم وأهزلوا ... تلك الأمانات السخيفه
ضاقت قبور القوم واتـ ... ـسعت قصورهم المنيفه
من كل ذي أدب ومعـ ... ـرفة وآراءٍ حصيفه
متفقه جمع الحديـ ... ـث إلى قياس أبي حنيفه
فأتاك يصلح للقضا ... ءِ بلحية فوق الوطيفه
لم ينتفع بالعلم إذ ... شغفته دنياه الشغوفه
نسي الإِلّه ولاذ في الدنيا بأسباب ضعيفه

❀ ❀ ❀

وبعد فهكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم وعلى هذه القدم درج شيخنا الفقيد في غالب أطوار حياته ولا سيما في أيامه الأخيرة. فكم خطب الأمراء وده فامتنع، واستمالوه إليهم فتعزز، وزاروه فلم يرد زيارتهم، وقصدوه فأهملهم وعرضوا عليه المناصب السامية فزهد فيها. وقد سئل عن انقباضه وانزوائه مراراً عديدة فكان جوابه: أنهم أن يريدون باستمالتي إليهم إلا ترويج سياستهم على العوام لما يعلمون من ثقتهم بالعلماء وتعلقهم بقادة الدين ويأبى الله لي أن أبيع ديني بدنياي وأخدع أمتي ووطني.

ولم يكن امتعاض الإمام من الحشوية - أدعياء العلم ومتمجدي المتمولين - بأقل من أنكاره وتشنيعه على جهلة النابتة الجديدة من كل غر لم تحكمه التجارب، وإمعَّة لا يحسن غير محاكاة الفرنجة في الزيّ والأخلاق، وأخرق تلقف كلمات من أفواه السذّج المارقين، فطار بها فرحاً وأخذ يتشدق بها في كل ندي ومحفل مزدرياً بدينه وعادات قومه الصحيحة الحسنة غير هياب ولا وجل وإذا دعي إلى الهدى أبيّ واستكبر، حاسباً نفسه الجرم الأصغر، الذي انطوى فيه العالم الأكبر!

نعم! وأي عاقل لا يمتعض حينما يرى هؤلاء الشبان المتعلمين قد انسلخوا - بداعي الجهالة والهوى - من دينهم وقوميتهم، وجرهم الطيش والغرور إلى إنكار الخالق والاستهزاء بالنبوات والاستخفاف بالديانات وبكل ما لا يتفق مع ما عليه جهلة الفرنجة من الآراء المألوفة.

مساكين هؤلاء المتعلمون! قرأوا في المدارس قشوراً من العلوم الجزئية وجهلوا كلَّ الجهل العلم الكلي ثم استسمنوا أنفسهم بتخييل العلم - وهم ذوو ورم - فهجروا البحث وتركوا التفكير فظلوا وسطاً فلا هم مثل العامة مقلدون، ولا هم علماء محققون، قد أصاب الجهل المركب منهم كل عرق ومفصل وتركهم الطيش في بيداء التعسف والخيالات هائمين، فلا عقل مستصحف، ولا رأي وثيق، ولا ذهن

مشحوذ، يدرسون ولا يعقلون، ويقرأون ولا يفقهون، ويتفلسفون وهم حتى الجهل نفسه يجهلون!

سألت ذات يوم أحدهم: ما دليلك على نفي الصانع وكيف تثبت أن الدِين لا يتفق مع العلم والمدنية؛ فوجم وتلعثم ثم عيي وأحجم؛ ولم يكد ينبر ببنت شفة تؤيد مدعاه وما كان منه إلا أن قال ـ إنما أنا مقلد فلاسفة الفرنجة الذين عرفوا أسرار الكون واكتشفوا كنهه كهربرت سبنسر الفيلسوف الكبير وغيره!

فقلت ـ أسفاً عليكم! كيف ينكر سبنسر أو غيره الخالق ويسخر بالديانات وهو القائل «العلم الطبيعي لا يناقض الدين ـ والدين هو السبب في سوق النفوس إلى علم الطبيعة» والناقل عن الأستاذ هكسلي: «أن العلم الطبيعي الصحيح والدين توأمان إذا انفصل أحدهما من الآخر خرّا صريعين وماتا حتف أنفهما»؟. . . . .

الحديث طويل وشرح الخزي الذي حاق بهؤلاء الأغرار أطول. وكفى بهم جهلاً أنهم يقلدون ولا يفقهون ثم يحقرون الديانات وهم لم يعرفوا منها شيئاً وإنما هم أشبه بالببغاء التي تسمع الأصوات فتحاكيها من دون أن تفقه لها معنى أو تقيم لها وزناً. فاهد اللهم قومي فإنهم لا يعلمون، وابعث فيهم روحاً تبصرهم وترشدهم فإنهم لا يعقلون!

سيرته في بيته:

لم أعرف من سيرته البيتية في أطوار حياته كلها شيئاً كثيراً فأبحث عنها وأتوسع فيها. ولكنني في مدة ملازمتي دروسه، وانتيابي مجلسَهُ في بيته الفينةَ بعد الفينة ـ عرفت أنه منذ مدة اتخذ البيت الخارجي مسكناً له وحده، وانقطع عن الدخول إلى البيت الداخلي حتى وفاته. إذ لا حليلة له فيه فيطمئن إليها ولا ولد فيأنس به، فكان يكتفي من صلة أخواته وذوي أرحامه باحتمال أعباء مؤونتهم في شؤون الحياة كلها.

ولقد كان رحمه الله مثال البساطة الأعلى في جميع أحواله: يدخل المرء بيته فيتخيل أنه في مسجد من مساجد العهد القديم، ثم يدير طَرْفه إلى مجلة فلا يرى غير مقاعد وكراسيّ هي في السذَاجة الطراز الأول، على بعضها خام مبرقش بالزرقة والبياض، وفي الرواشن والزوايا كتب مبعثرة غير منضدة لا قمطر يجمعها ولا خزانة تحفظها. وله خادم (ولا يزال حياً!) قد أكل الدهر عليه وشرب يذكر بنوح الإنسان، أو بلبد نسر لقمان، وكان لا يكلفه أكثر من حراسة البيت ورش المجلس في أيام الصيف ولذلك لم يشق به كما شقى أبو العلاء بخادمه فقال فيه: -

ومن عناء الليالي هادم ضغن   إن يؤمر الأمرَ يفعل غير ما أُمرا

أما طعامه فلهنة الضيف، وعجالة الراكب: يقنع بما تيسر، ويملأ بطنه الشيء النزر، ولم أرَه - وقد كان يهدى إليه أنواع الفواكه والحلويات - يأكل البقلاوة، أو قاضي الحلاوة، ولا الفالوذج، أو حشو اللوزينج، بل كنت أجده يوزّع كل ما يهدى إليه على أصدقائه، وذوي قرابته وأحبّائه، وإلى الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ولا يدخل بطنه منه غير الشيء النزر القليل جداً.

وكان من عادته أنه يأوي إلى فراشه عقيب صلاة العشاء حتى في ليالي شهر رمضان التي اعتاد الناس أحياءها سهراً، وينتبه أبداً مع الفجر فإذا احتاج إلى الضياء أوقد شمعة ووضعها على كرسي صغير بجانب الأقلام والدواة. وكان يفضل الشمعة من كل جهة على «الغاز» و«البترول». . .

وكان يخبر أنه يستحمّ صبيحة كل يوم بالماء البارد حتى في صبارة البرد.

وقد كنت أعد ذلك من تكليف المرء نفسه ما لا يطاق وأذكر له أني إذا اغتسلت في صكة عمي من حمارة القيظ بالماء غير المسخن مرضت مرضاً شديداً فكان يتعجب مني كما كنت أتعجب منه أشد العجب ويقرأ: **وخلقناكم أطواراً**. . .

المقالة الثالثة

مميزاته:

النبوغ في أفانين من الفنون والعلوم نادر جداً، فإنا نرى الرجل لا ينبغ ويتفوق إلا في صنف من العلوم ينقطع إليه بحثاً وحرثاً ولا يتخطاه، ويعكف عليه لا يتعداه؛ بل إن الشاعر ليجيد في فن من فنون الشعر ويقصّر فيما عداه، فربّ بارع في النسيب مقصر في الافتخار، وحاذق في الهجاء عاجز في الاعتذار. . .

ولقد نظرت إلى رجال العصر فرأيت الكاتب منهم بارعاً في صناعته مقصراً في غيرها، والمؤرخ ضليعاً فسي علمه عاجزاً عن الخواص في سائر العُلوم، واللغوي طويل الباع في اللغة قصيره في سواها، وهكذا كلٌّ بصيرٌ فيما انصرف إليه. ولم أرَ من بينهم نابغة مبرزاً في جملة من العلوم محققاً بها وضارباً منها بسهم وافر سوى (السيد الألوسيّ) فهو في العلوم الإسلامية الإمام الذي ألقيت إليه المقاليد والمقدام الذي لا يتقدمه أحد. وفي العلوم اللسانية الضليع الذي لا يشأى، والفارس الذي لا يساجل. وفي التاريخ والسير والأنساب العالم الذي يحق له أن يتمثل بقول القائل:

ما مرَّ في هذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندي من أخبارهم طرف

لست في دعواي هذه بحيث أعد مغالياً ومفرطاً لأنني أكتب عن

أستاذٍ لي أكبره وأجله وربما يربو الأكبار والإجلال على الإنصاف فلا يجري القلم على صراحة مستقيماً. كلاً بل إنني لأخشى أن أكون قد قصرت في وفائه حقه ولم أبلغ بعجزي عن بليغ الوصف والتعبير ما هو أهل له من الثناء وحقيق به من الوصف. وهذا شعور عام يحس به كل من عرفَ السيد ودرسه من نفسه.

الدين وعنايته به:

الدين وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. وإنه ليبلغ بالتسلط على صاحبه ما لايبلغه متسلّط آخر مهما كان سلطانه. والشعور الدينيّ غريزة فطرية في النفوس يستحيل أن تزول منها كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب والبغض. وإذا رأيت إنساناً متسماً بالإلحاد فإنما ذلك عرض طرأ عليه من شُبَهٍ علقت بذهنه وظنَّ بمجرد نظره السطحيّ أنها والدين على طرفيْ نقيض، ولو أعمل فكره وبحث وحقق لتبين له فساد شبهه ولرجع بحكم الضرورة إلى الفطرة التي فطر عليها لا مَحَالة. ولقد أفضى البحث بالعريقين في الإلحاد ومناوأة الأديان من فطاحل فلاسفة الغرب إلى التصريح بأن الشعور الدينيّ هو غريزة النفس البشرية لا يقلّ في التأثير عن الشعور بضرورة الغذاء كما أدت بهم نتيجة بحثهم وتحقيقهم بأنه لا بد للنوع الإنساني من دين يكبح جماع غيّه ويكفل له السعادة في أولاه وأخراه وأنَّ (القوانين المدنية) التي هتكت المحرمات، واستباحت الزنى ومعاقرة الخمرة ولعب القمار وأكل أموال الناس بالباطل - إنما هي معاول تقوض صروح المدنية وتقضي على الإنسانية. قال الفيلسوف الشهير أرنست رينان Ernest Ranan في كتابه تاريخ الأديان: «من الممكن أنْ يضمحلّ ويتلاشى كل شيء نحبّه، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحيَ الدين أو يتلاشى، بل سيبقىٰ أبد

الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادّي الذي يودّ أن يحصر الفكر الإنسانيّ في المضايق الدنيئة للحياة الطينيّة».

وقال الأستاذ كاميل فلامريون (Camille Flammarion): لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هَمَّ لها إلا أغراضها الذاتية! أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب، والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات. وأن من التناقض البيّن المؤلم أنْ ترى أن الرقيّ الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمّت للأنسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية ـ أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات. ومن المحزن أن نحسّ بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم، تنطفىء حرارة قلوبنا، وتتصوّح زهرة حياتنا القلبية، بتأثير غلبة المطامع المادية، والشهوات الجسدية» ومما قال الفيلسوف الحكيم الإنكليزي هربرت سبنسر (Herbret Spencre) لحكيم الإسلام الشيخ محمد عبده حين تلاقيا بمدينة بيرن عاصمة سويسرة في صيف سنة 1321 على ما نقلت مجلة المنار: محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية فذهبت الفضيلة. وهذه الأفكارالمادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم إلى الإنكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طامة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم.

❀ ❀ ❀

والدين الوحيد الذي يجري مع العقل جنباً إلى جنب، ويدور على محور السعادة، ويجمع شتات الأمم المتفاوتة بتفاوت العقول والميول، ويصلح لمرافق الحياة في كل زمان ومكان ـ إنما هو الدين الإسلاميّ

المبين[1]. لا الأديان التي بنيت على إلْف قوم مخصومين وكانت معرضة للتغيير والتبديل على حسب ما تدعو إليه حاجة أهلها، ولا القوانين الوضعية التي بيّنا حالها ومكانتها في نظر العلماء.

لا نقول هذا بمجرد دعوى ندعيها أو رأي نرتئيه. كلا! فإن الناظر في القرآن العظيم والسنة النبوية الصحيحة ليطل من شرفاتهما على حكم وأسرار يقضي المتأمل فيها العجب ويشهد الحس لأول وهلة بأنها هي الغاية التي يسعى وراءها البشر في الوجود.

الدين الإسلاميّ فوق أن تحيط بوصفه الطروس وما وسقت، والأفلام وما نسقت، «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» فماذا عسى أن أشرح في هذه الوريقات من تلكم المحاسن والمزايا التي رفعت رأس الإنسانية، وماذا عسى أن أحصي من دراري السماء، وقطرات البحار؟ ولكنني بكل صراحة أقول: إن من قارن بينه وبين مجموعة أعمال غالب الذين ينتمون إليه اليوم ليجد بينهما بوناً شاسعاً ثم يقف حيال هذه المعضلة مبهوتاً! وإليك تعليل ذلك:

كانت الجزيرة، قبل انبلاج الفجر الإسلامي الزاهي - كما يعلم عن تاريخ العرب - منقسمة إلى قبائل وفصائل وبطون وأحياء وعشائر تأصلت ضغائنهم واستحكمت عصبيتهم فهم أبداً في نضال دائم ونزاع مستمر لا تهدأ لهم نائرة ولا يقر لهم قرار. وكان أحدهم شعلة نار تضطرم يؤزّ هذا ويطعن ذاك لا همَّ له غير الكر والفر والانتصار لذوي القرابة سواء كانوا ظالمين أم مظلومين كما قال شاعرهم:

قوم إذا الشر أبّدى ناجذَيْهِ لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

---

(1) قال ابن سينا: لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموس محمدﷺ.

وكانوا من جهة التدين في أخسّ أنواع الوثنية والمجوسية، ومن جهة العادات والمعايش فيما بينهم وبين الحياة المدنية بعد ما بين الأرض والسماوات.

ظهر الدين الإسلامي فخضّد شوكة الوثنية، وأخنى على العصبية الجاهلية، فألّف بين قلوبهم وجمع كلمتهم ووحد قواهم. ثم انتحى اليهودية فاكتسحها من الجزيرة ولم يدع لها بعد عزها ومنعتها أثراً بعد عين. ثم زحف إلى النصرانية والمجوسية فدك عروشهما. ومضى يشيد في المعمورة قواعده وينشر ألوية المدنية والسلام مما اطمأنت له النفوس المرتاعة وطهرت به القلوب المدنسة وخضعت له الأرواح المتمردة. كل هذا في أقل من نصف قرن مما لم يعهد له مثيل في التاريخ. ولكن جماعة من بعض تلك الأمم التي كانت تدين بمذهب (زردشت) وعبادة (أهريمان) و(هرموز) وتسجد للشمس لم يكن ليروقها ذلك ويرضيها كما هو شأن الخاصة الذين يمنعهم من قبول الحق استكبارهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم وحرصهم على حفظ مكانتهم ومراكزهم في قلوب السواد. فلم يجدوا ما يحجبون به أنوار تلك التعاليم ـ التي زعزعت أركان نحلهم بل أخنت على أديان أممهم ـ خيراً من الكيد لها والوقوف في طريقها، فدخلوا في الدين رياءً، واصطبغوا بصبغة خيار أهليه، وصاروا يلقون بين المسلمين بذور الشقاق ويغرسون حنظل الخلاف حتى كان من الحوادث ما جعل المسلمين، إلى يومنا هذا متشاكسين، ثم قام آخرون وأدخلوا في الدين من بقايا عقائدهم الفاسدة، وأساطير مذاهبهم الباطلة كل ما لا يتفق مع روحه بحال من الأحوال ووضعوا كل ذلك على لسان رسول الله ﷺ تارة بطريقة الترغيب والترهيب وتارة بطريقة الدسّ على المؤلفين وأخرى بطرائق أُخَر يعرفها الذين أوتوا العلم؛ وألقوها على ناس لا تمييز لهم فغرهم صلاح حالهم الظاهريّ فتلقوها منهم بالقبول فتباينت بذلك العقائد واختلفت المذاهب وتحيّز كلٌّ إلى عقيدته ومذهبه، حتى كان من تكفير بعضهم لبعض جهلاً وضلالاً، ثم مقاتلة ناس لآخرين

حماقة وجنوناً ما هو غير خفيّ على أحد. ولم تزل أوضاع الدين تتقلّب وألوانه تحول ـ مما لا يسع المقام شرح أسبابه وعلله ـ حتى آل إلى ما عليه المسلمون اليوم من الحالة التي يلوي المسلم العاقل دونها عنقه ويمرُّ بها خزيان، ويعدُّها الجاهل بالدين البعيد عن الوقوف عليه من الدين فيسخر به وبأهله. والأمر لله من قبل ومن بعد.

كل ذلك بسبب شيوع البدع والمحدثات التي وضعها المدلسون وغرّروا بها الغافلين حتى حلّت عندهم محل السنن الدينية وهي شارة عار في جبين الإسلام لو محاها المسلمون واتبعوا هدى الدين لكانوا اليوم في الذروة التي كان فيها سلفهم الصالح والتي يحاول عقلاؤهم اليوم بلوغها. ثم مناهضة علماء السوء من أصحاب العمائم المكورة الذين جدّدوا عهد الوثنية، لأهل العلم الصحيح وإثارة الرأي العام عليهم تارة بالتكفير والتفسيق وأخرى بالنبز بالألقاب، بل بالإرهاق والعذاب. كما حدثنا شيخنا التاريخ وكما نرى كل يوم بأم أعيننا مئات الحوادث في أنحاء العالم الإسلامي. فما أنكر منكر بدعةً وحث على اتباع سنةٍ إلا قاموا بوجهه وأهانوه ولا قرر عالم حقيقة راهنة في الدين إلا افتروا عليه الافتراءآت وشنعوا عليه: كل ذلك تثبيتاً لمراكزهم في قلوب العامة وخوفاً على طعام يملأون به بطونهم أن يحرموه فيموتوا من عجزهم عن تحصيل القوت جوعاً... إذن فما حجب الإسلامَ إلا أهله، ولا أخر أهله إلا ترك السنن واتباع البدع، ولا نشر البدع إلا علماء السوء الفجرة الفسقة، ولا أعان علماء السوء إلا السلاطين الذين يتطلبون غفلة العوام ليتلذذوا ببذخهم وترفهم من غير نكير. ولله در القائل:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها

ورحم الله حكيم الإسلام الإمام محمد عبده حيث يقول:

ولستُ أُبالي أن يقال: محمد أبلّ أو اكتظت عليه المآتمُ
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أُحاذر أن تقضي عليه العمائمُ

على أن طائفة من الأمة لا تزال ظاهرة على الحق، رافعة رايته، حامية بيضته، لا تدع وباء البدع يتفشى في النفوس الزاكية، والقلوب السليمة، وإن قامت الدنيا وما فيها تحاربها أو تشنع عليها وتنبزها بما شاءت وشاء لها الهوى من الألقاب والمسميات. أولئك هم حماة الإسلام، دين الإسلام، وبفضلهم ثبت الدين هذا الثبات العجيب على ما أصاب جسمه من الصدمات المؤلمة، ولم يكد يلّم في قلبه ألم:

ولو لا رجال مؤمنون لهدّمت صوامع دين الله من كل جانب

ولقد انقسمت هذه الطائفة المباركة في عصرنا هذا بحكم تعدّد الواجب إلى قسمين: فريق أسعده الجد بتعلم اللغات الإفرنجية فقام يدفع عن الدين ما يتوجه عليه من الاعتراضات والانتقادات، ويقرّر حقائقه ويبرهن للعالم أنه ـ فضلاً عن براءته من الأضاليل المنسوبة إليه ـ ناموس السعادة وملاك المدنيّة؛ وفريق انتصب يحارب البدع والمحدثات وينشر لواء التوحيد ويحذر المسلمين من علماء الشعار والدثار وكيد الدجاجلة الملبسين... ولعل هذا الواجب بالنسبة إلى صلاح المسلمين أنفسهم أهم من الأول وأشد ضرورة منه.

ولأستاذنا السيد الألوسي النصيب الأكبر ـ بين هذا الفريق ـ من ذلك. احتسب حياته لخدمة الدين الإسلامي، وتطهيره من أوضار البدع والمحدثات التي فتّت في ساعده؛ وبذل في ذلك غاية جهده. فجاهد أهل الحشو ودعاة عبادة القبور جهاد الأبطال، في ساحات القتال، فكان سيفاً ماضياً في رقاب الحشويين والقبوريين. ثم التحىٰ إلى المذاهب الفاسدة المبنية على الحبّ والبغض فأظهر للملأ ما تنطوي عليه من الخبائث والدسائس، وما تضمره للإسلام ـ وإن كانت تنتمي إليه في الظاهر ـ من الكيد والعداء، فخدم بذلك الأمة، خدمةً لا تربو عليها خدمة. وقد كان يرى أن في القضاء عليها قضاء على جميع البدع والأضاليل المنتشرة بين أهل الإسلام، وأخذاً بيد الإسلام من حضيض

المكانة إلى ذروة عزه القديم ومجده التليد. وهو رأي سديد يرتئيه كل باحث عن سر تأخر المسلمين ويؤيده كل مطلع على أسباب تأخره وتقهقره.

جاهد السيدُ البدع والوثنيات، ودعا إلى التوحيد الذي هو أول ما كانت تدعو إليه الرسل، وبين ضرر تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة، غير مدّخر في جهاده ودعوته وسعاً حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف منْ غلواء القبوريين أو كاد، فكان له من التأثير المحمود في قمع الضلال ما لا سبيل لأحد إلى إنكاره. وهذه آثار جهاده بين الأيدي - والمخطوط منها أكثر من المطبوع - تشهد له بالحسنى والمقام المحمود. وقد استضاء بأنوارها الداني والقاصي.

ولم يقف في جهاده عند هذا الحدّ فحسب بل سمت به الهمة أيضاً إلى السعي وراء نشر مؤلفات فطاحل الإسلام كالإمام ابن تيمية وتلميذه الإمام الشيخ ابن القيم وأمثالهما ممن لهم اليد الطولى في مكافحة البدع ونزع القشور عن لباب الشريعة، فكان يبذل في الحصول عليها كل نفيس وغال، ويسهر في نسخها وتصحيحها الليال، حتى نشر بالطبع الشيء الكثير منها، ولو لم يكن له من العمل سوى السعي في نشر (منهاج السنة النبوية) ذلك الكتاب العظيم الذي لم يكتب مثله عالم في الإسلام لكفى.

على أنه إذا انصرف إلى خدمة الدين من هذه الجهة كل الانصراف فلم تفته العناية بالتوفيق بين الدين والعلم وله في ذلك مؤلف لا بأس به. وسنذكر - عند ذكره في مؤلفاته - مذهبه في ذلك. والله المستعان.



اللغة وعنايته بها:

عرّفوا اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم» فلغة الأمة إذَنْ مظهر قواها العاقلة، ودليل نفيستها، والمرآة التي تتجلى فيها جميع حالاتها الروحية والجسدية، لأن في كل لفظ من ألفاظها معنى يدل على الجهة التي نظرت منها إليه، حينما وضعت ذلك اللفظ الخاص له واصطلحت عليه. فمجموع اللغة هو مجموع الأغراض والمقاصد التي احتاجت الأمة في أحوالها إليها وشعرت في حياتها بها فعبرت بها عنها... ومن هنا تتبين النسبة ما بين الأمة ولغتها، ومنزلة حياتها منها، كما يدرك سرّ قولهم «**لا حياة للأمة إلا بحياة لغتها**». وكأني بالسلف الصالح قد أدركوا قبل غيرهم هذا المعنى. فإِنَّ التواءَ مِقْوَل صبية أعجبها منظر السماء الزاهي فهتفت بصوتها العربي الرخيم متعجبةً «يا أبت ما أحْسَنُ السماء!» أثار عصبيتهم، وهاج نعرتهم، فأشفقوا إِنْ تركوا الأمر هملاً أنْ تصبح لغة القرآن يوماً غيرها، فتندمج الأمة في سواها وتكون كأَنْ لم تُغْن بالأمس؛ فرسموا من ذلك الحين الحروف، ووضعوا الحركات، واخترعوا النحو ودونوا اللغة وفنوناً أخر من متعلقاتها؛ وعدُّوا علم اللغة من أركان الدين، وإِهمال هذا الركن إهمالاً للدين، كل ذلك حفظاً للأمة من الزوال والاضمحلال. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لا يقريء القرآن إلا عالم باللغة» وهو قول رشيد لأن القرآن عربي ولا تفهم مقاصده إلا باللغة. وقال الفارابي في مقدمة كتابه (ديوان الأدب): «القرآن كلام الله وتنزيله، فصل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم مما يأتون ويذرون، و سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللغة». وقال بعض أهل العلم:

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة
فليس يضبط دين إلا بحفظ اللغات

وهذا ما حدا بجميع علماء الإسلام إلى دراستها والتفقه بها وبذل

الجهود العظيمة في سبيل نشرها وتعميمها. فكان لها في عهد شباب دولة الإسلام وازدهار الحضارة العربية من الشأن الخطير ما كان للأمة من الحول والطول والبسطة والسلطان وابهة والجلال. حتى إذا ما دالت الأيام، وتقوّص عرش العرب، وفقدت الأمة جامعتها، وانحلت عصبيتها، وغلبت على أمرها لحق اللغة ما لحق الأمة من الضعف والانحلال، فسرت إليها لوثة العجمة، ودخلتها العامية وخامرها الدخيل، واعتورتها الركاكة، وفشا فيها اللحن:

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

ورُميت بالعقم والإملاق، وضيق العطن والنطاق، مع أنها ـ ولا نزاع ـ سيدة اللغات، وأغلى الألسن مقداراً، وأضفاها جوهراً، وأوفرها مادة، وأدقها خصائص وأسراراً، وقد وسعت من المصطلحات الشرعية والعلمية والفنية ما لم تسعه لغة غيرها، وبلغت في معارج المجد والعظمة منزلة لم تبلغها سواها، ولولا كنوز ثمينة أودعت فيها لما اغتبط بها علماء الغرب، وأسسوا لتعليمها في بلادهم المعاهد، وشدوا إلى أخذها عن إِهلها الرحال.

ولقد انتبه أبناؤها اليوم بحمد الله من سباتهم العميق، وانتعشت أرواحهم وشعروا بالحياة، فأخذوا يعدون العدد لإحيائها، وإصلاح جوهرها، مما طرأ عليه من أعراض الفساد، والدفاع عنها وبيان مزاياها وخصائصها، ناهجين نهج السلف الصالح علماً منهم بأنه المنهج المستقيم الذي لا خفاء فيه، وأنه الطريق الأحب الذي لا طريق يوصل إلى الغاية غيره ولقد كان الأستاذ الألوسي في مقدمة رجالها العاملين على إحيائها وإصلاحها: انتبه من أول أمره إلى فساد طريقة المتأخرين فضربها عرض الحائط. ثم نظر إلى اللغة وما يتوجه عليها من المطاعن فانبرى ينزهها مما ينسبونه إليها من الضيق والإملاق، وأزاح العواثير التي يلقيها بعض أبنائها الجاهليين في سبيلها فجعل النحت قياساً لصوغ ألفاظ

تسد مسد الألفاظ العجمية وألف في ذلك كتاباً ـ كما أنه كان يرى في جعل الاشتقاق قياساً سداً لكثير مما نحتاج إلى وضعه في حياتنا الحاضرة. وهو رأي لا مناص عن الأخذ به والعمل بمقتضاه وقد ارتآه غير واحد من المعاصرين وحض الجامدين على التبصر به والتساهل فيه. ولكن الأستاذ مع ذلك كله لم يكن ليجوّز الأغضاء عن الدخيل إلا إذا لم يوجد في أصل اللغة ما يرادفه أو لم يمكن صوغ مثله. فأما مع وجود هذا الإمكان فالأغضاء عنه بخس لحق اللغة عنده... ووضع في التضمين النحوي كتاباً فأظهر بذلك خاصية للغة أخرى هدَم بها كثيراً من مزاعم أولئك المتطفلين الذين يتصدون لانتقاد اللغة وليس لهم ـ كما قال بعض الحذاق ـ من رأس مال إلا وَرَدَ ولم يَرِد. عرضت عليه يوماً رسالة عنوانها (لغة الجرائد) من وضع رجل نصرانيّ يدعى (إبراهيم اليازجيّ) كان يضعه قومه في منزلة فوق منازل أئمة اللغة السابقين ولا يرون له عديلاً، فما طالع منها عدة صفحات، إلا وعدَّد له بضع هفوات، لا يكاد يقع فيها أصغر الدارسين؛ وبين منشأ أوهامه، ثم قال: كثيرون مثل هذا بين ظهرانينا[1] يدعون العلم باللغة وينتقدون أئمتها على غير علم وهم لم يقوّموا بعد ألسنتهم. ولم يطهروا من الرطانة واللكنة أنفسهم، فيجب إذا تناول الإنسان إلى مطالعة كتبهم أنْ لا يغتر بما يسطرونه ولا بما يؤيدون به مزاعمهم أيضاً لأنهم يفهمون النصوص فهماً مقلوباً فيظنون أنها دليل لهم والحال أنها نقض لما يذهبون إليه!

وللأستاذ عدا هذا مؤلفات قيمة في أبوابٍ أخر سنذكرها في مصنفاته خدم بها الآداب العربية خدمة عظمى. هذا عدا ما نشره أو دلّ عليه فنشر من مصنفات أئمة الأدب واللغة التي تسد كثيراً من حاجاتنا مما لا يحضرني الآن أسماؤها وبعضها منشور في المجلات كالمقتبس وغيرها. وبفضله طبع كتاب (مبادىء اللغة) للإمام أبي عبد الله محمد بن

(1) مثنى ظهر، وزيدت الألف والنون في الصيغة لزيادة المعنى والتأكيد.

عبد الله الخطيب الإسكافيّ المتوفى سنة 421 هـ وهو سفر نفيس يجد فيه الباحث كثيراً من أسماء الأدوات واللباس والأثاث والطعام التي استبدلنا الكلمات الدخلية والعامية مكانها. وكذا كتاب (كمال البلاغة) تأليف عبد الرحمن بن عليّ اليزداديّ؛ وغيره. وقد كان له من الحرص على إحياء آثار السلف ما ليس منه معشار معشاره على مؤلفاته، وهذا من غرائب أطواره.

التاريخ وعنايته به:

اتفق عقلاء الأمم أجمع على أن التاريخ ـ على اختلاف ضروبه وتفرق شعبه ـ ضروريّ لعامة الناس ولا غنى لأحد عنه أبداً لما فيه من ضروب الفوائد والمواعظ والعبر التي لا تقوم بتعدادها الأقلام وما نسقت، والطروس وما وسقت حتى قال بعضهم:

ليس بإنسان ولا عاقل　　مَنْ لا يَعي التاريخ في صدره
ومَنْ درى أخبار مَنْ قبله　　أضافَ أعماراً إلى عمره

يؤدي إلينا التاريخ أحوال الأجيال الماضية، ويفيدنا درسَ أخلاقٍ عظيم الخَطَر، ويشرح لنا العوامل المؤثرة في تقدم البشر وانحطاطه، ويعيد ما مضى من العالم وحوادثه وعجائبه وغرائبه في صورة الخيال، وينقشه في مرآة النفس حتى لكأننا نراه بالقلب ونشاهدهُ بالبصيرة فهو مرآة الأمم البائدة بل معادهم الروحاني، ومرقاة الأمم التي تتوق إلى التقدم. وتتسابق في مضمار الرقي وتتنافس في التمدن والعمران. . .

والحازم من يتفكر فيعتبر، ويتدبر فيذكر. ثم يتخذ له من تلكم الأجيال، التي تقلبت بها الأحوال، فصارت موعظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ نبراساً يهتدى بلألائه في ظلمات الحياة فينتفي النافع ويتقي الضرّ لتتم له السعادة والهناء وتتكمل له أسباب البلهنية والرخاء.

ولقد اعتنى قدماء المسلمين بالتاريخ عناية فاقوا بها ـ كما فاقوا بغيرها ـ الأمم حتى أنهم ضربوا في الأرض، ونقبوا في البلاد، وبحثوا عن الآثار فدوّنوا أخبار الأمم وسير الملوك والأقيال، وتواصوا بمطالعته والسعي في اجتناء ثمراته وتدبر مواعظه وعبره. وكان فيما أوصى به أبو حيان بنيه «عليكم بمطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلاً جديداً» ومما قال المؤرخ الإسلاميّ العظيم عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي في مقدمة (عبره): «إن فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال! إذ هو في ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأيام والدول، والسابق من القرون والأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحال منهم الزوال ـ وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق. . .» وقال أيضاً: «إن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا إلخ».

ووصايا العلماء في الاعتناء بالتاريخ وحثهم على تدبره والتعلق بعبره، لا تكاد تدخل تحت الحصر، وإجلالهم إياه فوق ما يتصوره الفكر. ولا بدع فإن لهم أسوة حسنة بالقرآن الكريم، والنبي العظيم: فقد أتى القرآن طافحاً بأخبار الأمم الخالية بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويهز أوتار النفوس ويثير فيها الاعتبار وتوسع النبيﷺ في شرحها لأصحابه وبيان مواطن العبر والعظات فيها. . .

وفي الجملة أن التاريخ هو الدعامة العظمى في بناء المجتمع البشري فخليق بكل عاقل أن يُعيره نظراً زائداً غير مستغن عنه بجزئياته وكلياته ولا سيما تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده بالنسبة للمسلمين فإنهم ـ وقد جهل أغلبه. تاريخ سلفهم في دوري التقدم والتقهقر فافتتنوا بحضارة الإفرنج الموهومة وازدروا بقومهم جهلاً وضلالاً ـ لفي حاجة شديدة إلى التوغل في دروس تاريخ أمتهم الزاهر وتدبر مغزاه، وفقه معناه، ليعلموا في أيّ غمرة من غمرات الجهل والهوان كان العالم وكيف حيي حياة طيبة **حينما أشرقت شمس الإسلام من آفاق الحجاز فبدّدت جيوش الظلم والجهل وأنارت الخافقين ودخل الإنسان بين لحظة وأخرى في طور جديد**، وأقام أركان مدنيته على أسس راسخة لا تتزلزل ما دامت السموات والأرض. وكيف كان الإسلام يعامل أهله... وكيف عظم شأنه وامتد سلطانه بأقصر مدة شرقاً وغرباً من نهر الكنج الهندي إلى نهر اللوار الفرنجيّ فأُنْشِئت الدول، ونظمت الحكومات، ونشر العدل، ونفي الظلم، ووطدت أركان البلاد، وعزت العباد، وصينوا من الدمار والفساد؟ وكيف كانت سيرة الفاتحين مع من فتحوا بلادهم، وجاسوا خلال ديارهم، إذ نشروا ألوية العدل والإنصاف، وصانوا الأموال، وثقفوا العقول وهذبوا النفوس؟ وكيف كانت سير الخلفاء الراشدين الهداة المهديين مع الرعية ولا سيما الذميين منهم، إذ أطلقوا لهم حرية دينهم، وتسامحوا معهم، وصانوا أعراضهم[1] وقربوهم منهم (. وأسندوا إليهم كبار المناصب؟ وكيف عزّزوا العلم، ونشروا أعلامه الخفاقة على الأقطار، إذ شادوا له المعاهد، وأسسوا الخزائن وأعزّوا

(1) قال [روبر تسن] في تاريخه: أن الذين بقوا في بلاد الإسلام ورضوا أن يكونوا لهم رعية لم تبطل عندهم القوانين القديمة بل رخص لهم رجال الإسلام أن يبقوا على دين النصرانية ويعملوا بقوانينهم القديمة ويستمروا على ما كانوا عليه في المحاكم من الأقضية والأحكام ويسلكوا في الضرائب المسلك الذي كانوا عليه.

حامليه وأحلوهم الذروة العليا والمكانة العظمى، فلا جرم أن من يعرف هذا حق المعرفة يظهر له أن هذه الحضارة الغربية لم تقم إلاّ على أسس التمدن العربي الإسلامي كما يتضح له سر المؤثرات التي قعدت بنا عن النهوض والسعي على آثار أسلافنا رحمهم الله. ولكن أين هؤلاء الذين ينظرون ويتبصرون وقد اندفع معظمنا وراء مدنية الغرب بغير حساب. بحكم قانون التقليد الأعمى الذي هو بعض ما تمنى به الأمم المغلوب على أمرها؛ وافتتن بها افتتاناً عظيماً حمله على الانسلاخ من دينه وقوميته ووصمها بما لم يخطر حتى على بال ألدّ أعداء الإسلام من قسيسي الغرب المعروفين، ثم حذا حذوهم القذّة بالقذّة حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبّ لدخله... ويا ليت هذا الافتتان حمله على أن يقبس من صالح هذه المدنية قبساً ينير به لقومه سبل الحياة وينيف بهم على يفاع المدنية والعمران كما فعل أبناء الغرب حينما حملوا مدنيتنا وعلومنا إلى قومهم.

إلا فليصحُ شباب اليوم ورجال الغد من هذه النشوة الغربية، وليعلموا أن حرصهم على قشور المدنية الأوربية مطوح بهم لا محالة إلى مهاوي المهالك. فإذا حلّت بهم المثلات، فهيهات أن تنفعهم الندامة وهيهات!

وبعد فخليق بقوم يريد أن يضارع الأمم الحية، ويحيا حياة استقلالية، أن يلفت أبداً أخدعه وليته إلى ماضيه، ويضم إلى تليده كل طريف مجيد، ويحرر جهده تاريخ الأمم وتاريخه، وضيّع ماضيه وحاضره ومستقبله.

ومن أجل ذلك كله عني السيد رحمه الله بالتاريخ ولا سيما بتاريخ العرب قبل الإسلام وأثناء البعثة وبعد الإسلام عناية لا تقل عن عنايته بالدين لأنه كما رأيت ركن من الأركان التي ينبني عليها الإصلاح الإسلامي، وأصل عظيم يرجع إليه في فهم كثير من نصوص القرآن

والسنة. فإن من لم يتفقه في تاريخ العرب لا يكاد يدرك سرّ ذلك الانقلاب العجيب الذي أدخل الإنسان بين اللحظة والأخرى في طور جديد وحياة رشيدة وأنه سر تربطه بالأمية يد فوق يد البشر. كما أنه لا يفهم كثيراً من نصوص الدين على وجهها الصحيح.

وجه السيد عنايته إلى التاريخ العربيّ منذ الصغر وأكب على تفقهه وزاوله طول العمر، حتى كان من أعلم الناس به في عصره، لا أظن أن أحداً يجاريه، أو يشق غباره فيه، وإنَّ مؤلّفه بلوغ الأَرَب الذي حاز قصب السبق في مضمار جمعية اللغات الشرقية في استكهولم، وكذا كتابه شرح عمود النسب، وأخبار أخيار العرب، لمن أكبر الشواهد على بسطة علمه، في معرفة تاريخ العرب وفهمه.

مؤلفاته

مؤلفاته الدينية الإصلاحية:

1 ـ غاية الأماني، في الردّ على النبهاني: قال العلامة المصلح الشهير السيد رشيد رضا في تقريظه (المنار م 12 ص 785): «كتاب مؤلف من سفرين كبيرين لأحد علماء العراق الأعلام المكنى بأبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي. ورد فيهما ما جاء به النبهاني (في كتابه شواهد الحق) من الجهالات والنقول الكاذبة والآراء السخيفة والدلائل المقلوبة في جواز الاسْتغاثة بغير الله تعالى، وما تعدى به طوره من سب أئمة العلم وأنصار السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية. ـ إلى أن قال ـ وفي هذا الكتاب ما لا أحصيه من الفوائد العلمية في التوحيد والحديث والتفسير والفقه والتاريخ والآداب والتصوف، وما انفرد به بعض المشاهير فأنكره العلماء عليه كالإنكار على الغزاليّ وابن عربيّ الحاتمي وغيرهما. فعلى هذا الكتاب نحيل الذين سيكتبون إلينا من الشرق والغرب يسألوننا أن نرد على النبهاني، وكذا من اغتروا بقوله ونُقُولِهِ وظنوا أن قولنا في الاعتذار عن عدم قراءة كتبه والرد عليها «أنه لا يوثق بعلمه ولا بنقله» هو من قبيل السب. وحاشا لله ما هو إلا ما نعتقده فيه وفي كتبه بعد النظر في بعضها ورؤية ما فيها من الأحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة والاستنباطات الباطلة ممن جعل نفسه بالاستنباط مجتهداً وهو ينكر الاجتهاد ويعترف بأنه ليس أهلاً له إلخ».

وقد طبع الكتاب في مطبعة كردستان العلمية بمصر، بالتزام السلفيِّ المفضال الشيخ عبد القادر التلمسانيِّ رحمه الله.

2 ـ الآية الكبرى، على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى: لما اطلع يوسف النبهاني على غاية الأماني «قامت قيامته» وشالت نعامته، وحاص حيصة الحمر الأهلية إذا رأت الأسد» فنظم قصيدة ركيكة رمى بها أجلّة المصلحين من علماء العصر ورتبها على خمسة أقسام: القسم الأول في مدح الكتاب والسنة والأئمة الأربعة ومذاهبهم!! والقسم الثاني في شتم موقظ الشرق جمال الدين الأفغاني الشهير، والقسم الثالث في شتم مفتي الديار المصرية الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده لانتصاره لشيخ الإسلام ابن تيمية والقسم الرابع في شتم العلامة السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار وصاحب التآليف الإصلاحية لدعوته إلى التمسك بجوهر الدين واطّراح الأعراض التي زادها عليه أمثال النبهاني، والقسم الخامس في شتم النجديين ومن وافق الإمام ابن تيمية والمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب كالمفسر الألوسي وابنه صاحب جلاء العينين وحفيده صاحب غاية الأماني... ولما كان شتمه للكل بسبب الذب عن السلف اقتصر الأستاذ على بيان ما في القسم الخامس من الزور والتضليل ومخالفة الحق على سبيل الاختصار ووسم ما كتبه «الآية الكبرى إلخ»؛ وقد ردّ عليه أيضاً جماعة من الفضلاء نظماً منهم الشيخ سليمان بن سحمان العالم النجديّ، والشيخ محمد بن حسن المرزوقي القطَري، والشيخ علي بن سليمان اليوسف التميمي، وصديقنا الشيخ محمد بهجة البيطار العالم الدمشقي الجليل وغيرهم.

3 ـ فتح المنَّان، تتمة منهاج التأسيس رد صلح الأخوان: ذكر في أوله ما معناه: أن كتاب صلح الأخوان الذي ألفه الشيخ داود بن سليمان لما كان مشتملاً على ما يصادم الشريعة الغراء من الدعاء إلى عبادة غير الله وجواز الالتجاء إلى ما سواه وما إلى ذلك من الشبه رد عليه العالم

المحقق الشيخ عبد اللطيف النجدي بكتاب جليل أسْماه (منهاج التأسيس) بيد أنه لم يكد يتمه حتى وافاه الأجل فأحببت أن أتطفل في إكماله إلخ. وقد جاء الكتاب في 258 صفحة مطبوعاً في الهند بالتزام محيي رفات المكارم الأمير الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني حاكم قَطَر.

4 ـ المنحة الإلّهية، تلخيص ترجمة التحفة الأثنى عشرية: الأصل للعلامة النحرير الشيخ عبد العزيز الفاروقي في اللغة الفارسية والترجمة للشيخ غلام محمد أسلمي الهندي وقد رأى فيها الأستاذ إطناباً وتكريراً لكثير من المسائل بعبارة بعيدة بعض البعد عن الفصاحة والانسجام فلخصها وضم إليها فوائد جزيلة بهذا الكتاب ثم قدمه إلى السلطان عبد الحميد وذلك سنة 1301 هـ وطبع في الهند في (200 ص) بالقطع الكبير.

5 ـ السيوف المشرقة، مختصر الصواعق المحرقة: الأصل للشيخ محمد الشهير بخواجة نصر الله الهندي المكي ابن خواجة محمد سميع الشهير بمولانا برخور ولد الحسيني الصديقي. وهو رد على الشيعة بليغ في 303 صفحات بالقطع الكبير فرغ منه سنة 1303 هـ.

6 ـ صب العذاب، على مَنْ سبَّ الأصحاب: ورد على الشيعة أيضاً في (115 ص) بقطع الربع. وقد نقض به أرجوزة للشيخ أحمد أحدهم زعم أنه يرد بها ما أقامه أبو الثناء جد الفقيد من الأدلة في كتابه (الأجوبة العراقية).

7 ـ تجريد السنان، في الذب عن أبي حنيفة النعمان: رد بليغ على غال من غلاوة الشافعية ألف رسالة في الحط من أبي حنيفة. وهو في 200 صفحة بالقطع الكبير. فرغ منه في أواخر شعبان سنة 1306 هـ؛ وفيه مطالب في الفقه مهمة.

8 ـ سعادة الدارين. في شرح حديث الثقلين: رسالة في الرد على

الشيعة باللغة الفارسية للشيخ عبد العزيز الملقب بغلام حليم ابن الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الفاروقي مصنف حجة الله البالغة، وقد عربها الأستاذ وضم إليها بعض الفوائد المتعلقة بهذا الحديث ورتبها على مقدمة ومقصد وخاتمه، فجاءت في نحو 40 صفحة بقطع الربع.

9 ـ فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب: لم يطبع.

10 ـ كتاب ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة: قال في أوله «. . . شاع في عصرنا قول فيثاغورس الفيلسوف الشهير في هيئة الأفلاك ونصره الفلاسفة المتأخرون بعد أن كان عاطلاً مهجوراً وهو القول بحركة الأرض اليومية والسنوية على الشمس وأنها هي مركز نظامها وأن الأرض إحدى الكواكب السيارة وأنها سابحة في الجو معلقة بسلاسل الجاذبية وقائمة بها كسائر الكواكب لا أنها ـ كما ذهب إليه بطليموس ـ في الأفلاك كالمسامير في الباب إلى غير ذلك من قواعدها المشهورة، وقوانينها المذكورة؛ وقد سماها الفلاسفة المتأخرون الهيئة الجديدة لكونها شاعت في العصر المتأخر وإلا فالقول بها متقدم جداً؛ وقد رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنة على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك لا يلتفت إليها ولا نؤول النصوص لأجلها والتأويل فيهما ليس من مذاهب السلف الحرية بالقبول بل لا بدَّ أن نقول إن المخالف لهما مشتمل على خلل فيه فإن العقل الصريح، لا يخالف النقل الصحيح، بل كل منهما يصدق الآخر ويؤيده ـ إلى أن قال ـ وقد أحببت أن أجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سورة القرآن على ترتيب سورها وأخص منها المشتملة على الأجرام العلوية والأجسام السفلية وأذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين ملتزماً في ذلك طريق الاختصار وأصح الأقوال وأصوب الأفكار. . .».

وهو يقع في 100 صفحة بقطع الربع، وقد فرغ من إملائه عليّ في 24 شوال سنة 1339 هـ، ونسخته وحيدة بخطّنا ومن أراد أن يطبعه فإنا نقدمه إليه بدون ثمن.

11 ـ الدلائل العقلية، على ختم الرسالة المحمدية: رسالة في نحو 37 صفحة بالقطع الصغير.

12 ـ عقد الدرر، شرح مختصر نخبة الفكر: في مصطلح الحديث، والمتن للشيخ عبد الوهاب بركات الشافعي الأحمدي في 72 صفحة بخط دقيق. فرغ من تسويده في 18 شهر ربيع الأول سنة 1299 هـ.

13 ـ كشف الحجاب، عن الشهاب في الحكم، والآداب: للقاضي: لم أره. والمتن مطبوع في الأستانة وبغداد.

14 ـ مختصر مسند الشهاب، في الحكم والآداب: اختصرناه كلانا معاً والنسخة بخطنا في خزانة كتبه.

15 ـ منتهى العرفان والنقل المحض، في ربط بعض الآي ببعض: شرع فيه في أوائل سنة 1341 فوافته المنية قبل إتمامه.

16 ـ كنز السعادة، في شرح كلمتي الشهادة: في 54 صفحة. ألفه جمادى الثانية سنة 1298 هـ.

17 ـ الروضة الغناء، شرح دعاء الثناء: في 17 صفحة وهو باكورة مؤلفاته ألفه سنة 1294 هـ.

18 ـ إتحاف الأمجاد، فيما يصح به الاستشهاد: في 9 صفحات كتبه سنة 1301 هـ.

19 ـ القول الأنفع، في الردع عن زيارة المدفع: في بغداد أمام الثكنة العسكرية في الميدان مدفع مصنوع من النحاس يسمى (طوب أبي

خزامة) وقد كتب على ظهره مما يلي الفوهة ما نصه «مما عمل برسم السلطان مراد خان بن (كذا) السلطان أحمد خان» وعلى مؤخره أيضاً ما نصه: «عمل علي كتخداي جنود بردركاه عالي سنة 1047» أي: عمل عليّ الذي هو رئيس الجنود في باب السلطان. وكانت العامة تعتقد بهذا المدفع اعتقاد الجاهلية باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، إذ تنذر له النذور وتعلق عليه النمائم وتقبله وتتبرك به إلى غير ذلك من المنكرات فحمل ذلك استاذ على كتابه هذه الكراسة باحثاً فيها عن تاريخه والمفاسد التي تنجم عنه وقدمها إلى المشير هدايت باشا ليمنع العوام من هذه الأعمال المضادة لما جاء به الإسلام. وقد ترجمت إلى اللغة التركية.

مؤلفاته اللغوية والأدبية:

20 ـ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر: رتبه على (مقدمة) تشتمل على 15 مسألة تتوقف عليها معرفة هذا الفن، و(ثلاثة أقسام) 1 ـ في ضرائر الحذف 2 ـ في ضرائر التغيير ـ 3 ـ في ضرائر الزيادة و(خاتمة) في أمور تقع في فصيح الكلام وليست من الضرائر. «وقد تتبع فيه ضرورات الشعر التي سمعت عن العرب واستوفى الكلام عليها تمثيلاً وتبييناً مما لم يسبقه إليه في وفرة مادته وحسن تبويبه وتنسيقه سابق. نعم كتب بعض علماء اللغة الأقدمين في هذه الضرورات ووضعوا لها المصنفات «غير أن أيدي الأيام، قد رشقتها من التلف بصائب السهام» كما قال المؤلف[1].

وقد علقتُ عليه شرحاً لطيفاً سنة 1340 هـ وطبع بالمطبعة السلفية بمصر فجاء في 334 صفحة.

---

(1) مجلة المجمع العلمي بدمشق (م ـ1 ص 476).

21 ـ **مختصر الضرائر**: لم يطبعْ وهو في 70 صفحة.

22 ـ **الجوهر الثمين، في بيان حقيقة التضمين**: أي التضمين النحوي وهو إشراب اللفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمة لتصير الكلمة تؤدي مؤدى كلمتين نحو قوله تعالى: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» أي يخرجون، وقوله: «وأصلح لي في ذريتي» أي بارك لي، **وكقول الشاعر**:

إذا رضيت عليّ بنو قُشَيْر لعمر الله أعجبني رضاها

أي إذا أقبلت عليّ؛ وفي كونه مقيساً خلاف. ونقل أبو حيان في ارتشافه عن الأكثرين أنه ينقاس. والفرق بينه وبين الضرورة أن الضرورة ما وقع في الشعر مما لا يقع في النثر سواء كان للشاعر عنه مندوحة أم لا كما هو مذهب الجمهور، وهذا النوع كثر وشاع ولم يخص الشعر دون النثر. والكتاب يقع في (50 صفحة).

23 ـ **كتاب النحت وبيان حقيقته ونبذة من قواعده**: يقع في (13 صفحة) وقد جمع فيه ما وقع عليه من كلام الأئمة. وهو موضوع مهم لا يجوز إغفاله ولو لم يكن من فوائده إلا أنه يسدّ مسد الكلمات العجمية التي اضطررنا إليها لكفى. والنحت: أن تنحت من كلمتين أو ثلاثٍ كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار وذلك كقولهم رجل عَبْشَميٌّ منسوب إلى اسمين وهما «عبد شمس» وأنشد الخليل:

أقول لها ودمع العين جارٍ ألم تحزنك حَيْعلة المنادي

من قولهم حيّ على الصلاة. والأمثلة كثيرة.

24 ـ **كتاب تصريف الأفعال**: فقد في جملة ما فقد من مؤلفاته وكتبه في أثناء نفيه.

25 ـ **شرح أرجوزة تأكيد الألوان**: الأرجوزة للشيخ عليّ بن العزّ الحنفي المعروف بالشارح الجارح أحد شراح الهداية. وقد صدّر الشرح

بمقدمة ذكر فيها اختلاف الناس في حقيقة اللون، واختتمه بخاتمة ذكر فيها ما ظفر به في كتب اللغة من الأسماء الموضوعة للألوان المختلفة فهو يشتمل على مقدمة ومقصد وخاتمة؛ وقد نشر في مجلة المجمع العلميّ العربي (م 1 ص 76).

26 ـ **السواك**: بحث في العيدان التي كانت تستاك بها العرب أيام الجاهلية. وقد نشرتُهُ في مجلة الحرية ببغداد (م 1 ص 67).

27 ـ **المسفر، عن المَيْسر**: في 40 صفحة.

28 ـ **لعب العرب**: رسالة لطيفة اقتطفها من كتاب لسان العرب لابن منظور الإفريقي في أثناء مطالعته له عام 1326 هـ.

29 ـ **المفروض، من علم العروض**: في 78 صفحة. قال في آخره «هذا آخر ما وجدناه في كتاب لسان العرب من المسائل العروضية وذلك أثناء مطالعتي له عام ستة وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة المباركة».

30 ـ **نقد مقامات مجمع البحرين لناصيف اليازجيّ**: بيّن فيه سرقاته وركاكة أسلوبه الذي يفوّقه كثير من النصارى على أسلوب الحريريّ مع أن اليازجي قد انتحل مقاماته من مقامات الحريريّ وغيرها كما برهن على ذلك الأستاذ في نقده. وقد فقد هذا النقد في جملة ما فقد من مؤلفات الأستاذ ولكنني وجدت منه عدة أوراق من أوائله.

31 ـ **كتاب ما اشتملت عليه حروف المعجم، من الدقائق والحقائق والحكم**: في 115 صفحة.

32 ـ **الجواب عما استبهم، من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم**: أجاب فيه عن أسئلة السيوطيّ السبعة التي لم يجب عنها أحد في زمانه، والكتاب يقع في40 صفحة. وقد رأيت في تاريخ أدبيات اللغة العربية (م 3 ص 290) أن الشنواني المتوفىَّ سنة 1019 هـ أجاب عنها أيضاً في

كتاب أسماه (حلية أهل الكمال. بأجوبة أسئلة الجلال) ومنه نسخة في دار الكتب المصرية.

33 ـ **شرح القصيدة الأحمدية:** مدحه صديقه الأديبُ الكبيرُ أحمد بك الشاوي الحميريّ بقصيدة مطلعها:

معاتبتي ـ لو أعتب الدهرَ ـ للدهر   بما قد جرى لا تنقضي آخر العمر[1]

فأجاز عليها بشرحها: وقد جاء في 80 صفحة.

34 ـ **الأسرار الإلّهية، شرح القصيدة الرفاعية:** بينا في أثناء ترجمته سبب تأليفه.

35 ـ **شرح خطبة المطوَّل:** لم أره..

36 ـ **شرح منظومة الشيخ حسن العطار:** في فن الوضع.

37 ـ **بدائع الإنشاء:** في جزأين. الأول يشتمل على رسائل أبيه. في 100 صفحة. والثاني طَرَفٌ مما كاتبه به الأمراء والعلماء والأدباء وقد ترجم فيه لبعضهم وهو يقع في 340 صفحة. وذكر في المقدمة أن في نيته تأليف قسم ثالث له يذكر فيه بعض التعاليم المتعلقة بصناعة الإنشاء وأدوات الكتاب.

38 ـ **رياض الناظرين، في مراسلات المعاصرين:** في نحو 560 صفحة.

39 ـ **أمثال العوام، في مدينة دار السلام:** هو مجموع ما يدور على ألسنة عوام بغداد من الأمثال المشهورة. وقد نقل اللفظ العامي من غير تغيير، وربما غيره إلى ما يقاربه في التعبير، تحاشياً عن بعض الألفاظ العجمية، وتجنباً عن وصمة بعض الحروف التي تأباها مخارج

---

(1) انظر ص 115.

الحروف العربية. وهو في نحو (70 صفحة) وقد رتبه على حروف الهجاء.

40 ـ إزالة الظما. بما ورد في الما: في كراسة.

41 ـ بنان البيان: متن صغير في علم البيان.

42 ـ اللؤلؤ المنثور، وحلي الصدور: مجموع مكاتيب والده وجده في 170 صفحة.

❀ ❀ ❀

مؤلفاته التاريخية والعلمية:

43 ـ بلوغ الأَرَب، في أحوال العرب: تقدم ذكره. وقد طبع لأول مرة بمطبعة دار السلام ببغداد سنة 1314 هـ فنفدت نسخه بمدة وجيزة وازدادت الرغبة فيه وأخذت الرسائل من البلدان تترى إلى المؤلف بطلب الكتاب فكان يَعِدُهم بإعادة طبعه إذا سنحت له الفرصة وأتاح القدر له ذلك حتى عام 1340 هـ أي بعد اتصالي به بقليل فأشار عليَّ بتصحيحه والتعليق عليه وضبط ما يستحق الضبط من ألفاظه فقمت بذلك على قدر الإمكان واستدركت عليه أوهاماً تابع فيها من نقل عنه. وقد قاسيت من العناء في تصحيحه ما لم يكن ليخطر ببالي حيث إن التحريف كان مستفيضاً في كل صفحة من صفحاته، فكنت أرجع في أثناء التصحيح إلى الأصول المعتمدة وربما قلبت لأجل كلمة وتصحيح رواية عشرات الكتب ومع ذلك كله لا أراني قد وفقت للغاية التي نشطت لها؛ وعذر الأستاذ رداءة المخطوطات التي اعتمدها ثم إفسادات الطبع لحداثته يومئذٍ ببغداد، ولا يزال داء المطابع في كل مصر عضالاً ولا يكاد يسلم كتاب من وقوع غلط فيه، والشكوى من النساخ قديماً ومن المطابع حديثاً قد بلغت عَنان السماء.

بوشر طبع الكتاب بمصر في أواخر عام 1342 وتم في أواخر 1343 هـ. وكان قد نقله إلى التركية أديبان كبيران: أحدهما عبد الحميد بك الشاوي البغدادي وسمى الترجمة «منتهى الطلب» ورأيت مقدمتها في جريدة الزوراء. وثانيهما أحمد عزت باشا العمري الموصلي: ذكر لي الأستاذ أن ترجمته صارت طعمة نار شبت في داره في القسطنطينية.

44 ـ شرح منظومة عمود النسب[1]: في نحو (1000 صفحة) وهو من أهم الكتب المؤلفة في التاريخ والأنساب، وقد وصفناه في مجلة المجمع العلميّ العربيّ (م 3 ص 105).

45 ـ تاريخ بغداد في ثلاثة أجزاء:

1 ـ أخبار بغداد: ذكر فيه بناء بغداد ومحالها وقصورها وجسورها وأنهارها، وقراها المجاورة لها ووصف مبانيها وما آل إليه أمرها على سبيل الإجمال وهو في 15 كراسة ولم يتمه.

46 ـ المسك الأذفر، في تراجم علماء القرن الثالث عشر: ترجم فيه لطائفة من علماء بغداد وأدبائها وسَرَاتها وهو في 450 صفحة.

47 ـ مساجد بغداد: ذكر فيه ما في بغداد اليوم من المساجد والمدارس وتراجم وبعض من أنشأها، ووصف بناءها ونقل ما على جدرانها من الكتابات والأشعار، وأهم ما فيه كلامه عن المستنصرية والنظامية. وهو في نحو 140 صفحة.

وقد ذكر في آخر الجزء الأول أن في عزمه أن يبتدىء الجزء الثاني

---

(1) المنظومة للشيخ أحمد المالكي المغربي الشنقيطي الشهير وهي تنقسم إلى قسمين الأول في أنساب عدنان ونسب النبيﷺ وأنساب أصحابه العدنانيين، والثاني في ذكر قحطان وما تفرع منه. وقد ابتدأ الأستاذ بشرح القسم الثاني وفرغ منه في 6 جمادى الآخرة سنة 1336 هـ ثم شرح القسم الأول وفرغ منه عصر الجمعة 8 ربيع الآخر سنة 1340 هـ.

بالكلام على من تولى بغداد من الحكام إلى عصرنا هذا وما جرى عليهم من الأحوال والأهوال وما كان في كل عصر منهم من الحوادث المهمة، ولكنه لم يوفق لما قصده كما لم يوفق لإتمام الجزء الأول وترتيبه وتبويبه.

48 ـ أخبار الوالد: جزء لطيف في ترجمة أبيه السيد عبد الله بهاء الدين الألوسي.

49 ـ الدر اليتيم، في شمائل ذي الخلق العظيمﷺ : لم يتمه.

50 ـ تاريخ نجد: كان المظنون أن هذا الكتاب قد فقد أيضاً في جملة ما فقد من آثار الأستاذ وكتبه ثم عثرنا عليه في أوراقه ومسوّداته ناقصاً فنسخناه وصححناه وحرّرناه وأضفنا إليه بعض الفصول من قلم المؤلف وجدناها في كتابه «أخبار بغداد» ثم طبعناه في المطبعة السلفية الشهيرة بمصر.

يبتدىء الكتاب بالكلام في بيان ما يطلق عليه اسم نجد من جزيرة العرب على ما يفهمه أهلها، وتليه جملة من شعر الأموي في التغنيّ بنجد والحنين إليها، ثم فصل فيما اشتملت عليه نجد من القرى والبلاد، وفصل في مقاطعة الأحساء التابعة لها اليوم. وفصل في شمائل أهل نجد ومعايشهم وأقواتهم وأزيائهم ثم بسط الكلام على معتقداتهم. ولأجل زيادة التعريف بسلامتها سرد مناظرة بين عالم نجديّ وشيخ عراقيّ كان التحقيق فيها **أن عقيدة أهل نجد هي عقيدة السلف الصالح لم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منهاً لا كما يشيع عنهم أعداؤهم السياسيون وجهلة المعمّمين. ويلي ذلك نبذة من تاريخ أمراء نجد، وبيان رسم حكومتهم وبعض مكاتبات آل سعود الآمرة اليوم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختتم الكتاب ببعض من اشتهر من علماء نجد ولا سيما المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.** وانظر تقريظ الكتاب في مجلة الزهراء (م 2 ص 62) ومجلة المجمع العربي م 5 ص 442).

51 ـ عقوبات العرب في جاهليتها وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم: رسالة لطيفة نشرناها في ممتاز جريدة العراق لعامها الخامس.

52 ـ الأجوبة المرضية، عن الأسئلة المنطقية: في (42 صفحة) نقد فيها بعض القواعد المنطقية وبين عدم فائدة علم المنطق الذي يزعمون أنه علم يعصم الفكر عن الوقوع في الخطأ.

53 ـ شرح الرسالة السعدية، في استخراج العبارات القياسية: شرح صغير كتبه سنة 1300 هـ.

54 ـ ترجمة رسالة للقوشجي في الهيئة: لم أرها.

❀ ❀ ❀

وبعد فهذه آثار أستاذنا الألوسيّ المبرور وتلك هي أعماله الباقيات الصالحات ذكرتها حسبما اتصلت به خبرتي وربما أغفلت منها ما لم أحط به خبراً. وله عدا ذلك ثلاث مجاميع علمية نفيسة، ومقالات منشورة في كثير من المجلات الراقية كالمقتبس والمشرق وغيرهما. ولو جمعت فتاواه الدينية والعلمية لبلغت مجلدات ولكنه لم يكن يحفل بالاحتفاظ بها. وقد علمت أن الأستاذ الأب أنستاس ماري الكرملي جمع طائفة كبيرة من أجوبته العلمية واللغوية والتاريخية التي كان يستطلع بها طلع رأيه في بضعة أجزاء، ولكنه مع الأسف الشديد فقد بعضها في معمعة سقوط بغداد بيد الإنكليز. وقد أورد الأب في تأبينه الذي سنرويه بعض فتاوي الفقيد شاهداً على علمه وتحقيقه وهي غاية الغايات في التحقيق وبعد النظر. ولقد رأيته في فتاواه أكثر تحقيقاً وأبعد نظراً منه في تآليفه فلو نشط الأب الكرملي لطبع ما لديه منها لخدم العلم خدمة جلّى يشكر عليها ولعله فاعل إن شاء الله... وأما ما نسخ بيده من نفائس مؤلفات الأقدمين فلست بمبالغ إذا ما قلت «يعسر إحصاؤها» وقد مرت الإشارة إلى عناية باستكتابها وإحياء الكثير منها بالطبع.

وصفوة القول أنه كان من أعاظم رجال النهضة العلمية في العالمين الإسلامي والعربي لا ينازع في ذلك منازع وآثاره أعدل شاهد على ما نقول:

تلك آثاره تدل عليه فانظروا بعده إلى الآثار!

❀ ❀ ❀

أسلوبه الكتابيّ
وأمثلة متنوعة من إنشائه

كان السيد سريعاً في الكتابة، سريعاً في الإملاء: تجري اليراعة بيده جرّي السابح بصاحبه، ويملى ببديهة لا يروّى فيها ولا يفكر إلا نادراً. وقد التزم في أول أمره طريقة السجع التي كانت ذات السلطان القويّ على أقلام الأدباء لذلك العهد، ثم مال عنها إلى طريقة الترسل حيث يتمكن فيها من الإفادة والتبيان وأخذ يسير مع الطبع أي يكتب كما يفكر أو كما يتحدث تاركاً التسجيع والترصيع، وسائر أنواع البديع، إلا حيث يقدّم لكتابٍ مقدمة أو ينشىء لصديق ألوكة.

وإنشاوهُ في كل ذلك سهل غير متكلف ولا متعسف، وسلس لا حوشيّ فيه ولا مبتذل، ولم يكن على علو كعبه في اللغة والأدب ممن يتضالع وراءَ المبرزين أو يكلف نفسه مباراة سحرة الكلام ممن يلعب ببيانه بالعقول، لعب الشمول. ويسكر الأذهان، أسكار بنت الدنان، وإنما كان يتعمد الأسلوب العلمي ويقصد الإفادة والإيضاح وذلك كل همّه. وإليك أمثلة متنوعة من كتاباته مما يفيدك فائدة علمية. أو يوقفك على رأي له حكيم تزداد به بصيرة، ولروحه به تقربا: ـ

ثراء اللغة العربية:

قال من كلام له في بلوغ الأَرَب:

«.... وقد سمعت بعض من لا خلاق له من الناس يدعي أن لغات الإفرنج اليوم أوسع من لغة العرب بناء على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعان لم تكن في القرون الخالية والأزمنة الماضية فضلاً عن أن تعرفه العرب فتفوه به أو تتخيله فتنطق به. ولا يخفى عليك أن هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة، وأنه لم يَخُضْ بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أين حصلت.

أما ما ذكر من أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين فهو غير شين على العربية إذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة، وإنما الشين علينا الآن في أنْ نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صَوْغها من لغتنا. على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي فما الحاجة إلى أن نقول «فَبْريقة» أو «كَرْخانة» ولا نقول «معمل» أو «مصنع» أو أن نقول «بيمارستان» ولا نقول «مستشفى» أو نقول «ديوان» ولا نقول «مأمر» أو نقول «إسطرلاب» ولا نقول «منظر»؟ والعرب اليوم بخسوا اللغة حقها فإنهم عدلوا عنها إلى اللغات العجمية من غير سبب موجب فإنَ منِ يستعير ثوباً من آخر وهو مستغن عنه يُحكم عليه بالزيغ والبطر. وإذا اعترض أحد بأن دخول الألفاظ العجمية في العربية غير منكر، وأن كل لغة من اللغات لا بد أن يكون فيها دخيل فاللغة هي بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لأمة أن تعيش وحدها من دون أن تختلط بأمة أخرى فإن الإنسان مدني بالطبع أي محتاج في تمدنه إلى الاختلاط مع أبناء جنسه ـ فالجواب أن هذا الدخيل إنما يُغْضَى عنه إذا يوجد في أصل اللغة ما يرادفه أو لم يمكن

صوغ مثله، فأما مع وجود هذا الإمكان فالأغضاء عنه بخس لحق اللغة لا محالة، وإلا لزم المستعربين أن ينطقوا بالباء أو الكاف الفارسيتين، أو أن يقدموا المضاف إليه على المضاف. وهناك وجه آخر في العربية لصوغ ألفاظ تسد مسدَّ الألفاظ العجمية التي اضطررنا إليها وهو باب النحت. قال ابن فارس في فقه اللغة: العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار، وذلك كقولهم «رجل عَبْشَميّ» منسوب إلى اسمين وهما «عبد. شمس» وأنشد الخليل:

أقول لها ودمع العين جار ألم تحزنك حَيْعَلة المنادى

من قولهم «حيّ على كذا» وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد «ضبطر» من «ضبط وضبر» وفي قولهم: «صهلصلق» أنه من «صَهَل وصلق» وفي «الصلدم» أنه من «الصلد والصدم» إلى آخر ما قال مما يدل على أن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب، وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة. ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك «التلغراف» و«الغاز» و«البوستة» ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين. وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم، وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم ننتبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب وهو الاختصار والإيجاز.



التفسير العصري

قال يرد على رجل يدعى يوسف النبهاني البيروتي زعم في رسالة له أن الذي يتصدى لتفسير القرآن بأسلوب جديد يوفق فيه بين الدين والعلم والعمران ملحد مبتدع زائغ:

«أن من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم. فإن منها ما هو مشحون بقواعد النحو ووجوهه فتراه يذكر في كل آية من الوجوه ما يفوت الحصر. ومنها ما هو مشحون بالمسائل الكلامية، والقواعد الحكمية حتى يصرف الآيات إلى ما أصلّه من الأصول ويؤوّل النصوص القطعية إلى ما يوافق معتقده: إذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام. ومنها ما اشتمل على قصص بني إسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول وتنفر منها الطباع. ومنها تفاسير لا يدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات كالتفسير الشهير بأنه من باب الإشارة. ومنها ومنها مما لا يحيط به العد والإحصاء ـ وهنا نقل كلاماً لبعض الفضلاء تأييداً لما تقدم كما هي عادته، ثم قال: ـ فكيف يقال أن تفسير القرآن قد فرغ منه العلماء مع أنهم هم الذين قالوا في شأن علم التفسير «علم لا نضج ولا احترق» وقالوا: المراد بنضج العلم تقرير قواعده وتفريع فروعها وتوضيح مسائله؛ والمراد باحتراقه بلوغه النهاية في ذلك؟ فمتى أعطى العلماء التفسير حقه حتى يقال إنهم

قد فرغوا منه؟ فهل هذا إلاّ قول من قد بلغ من الجهل بدينه إلى الغاية؟ وأيّ ذنب لمن طلب في هذا العصر أو تمنى أن يفسر القرآن تفسيراً نافعاً للعامة والخاصة بعبارة سلسة يفهمها كل أحد كعبارات بلغاء هذا العصر وكتابه النابغين فيه لا كعبارات الكتاب الماضين من الأعاجم وغيرهم فإنهم كانوا يتفاخرون بدقة العبارات وصعوبتها وعدم فهمها ويعيبون الواضح منها مع أن البلغاء المتقدمين والكتبة السابقين على العكس من ذلك. فقد رأيت في بعض كتب أصول الحديث ما نصه «ويكره كراهة تنزيه الخط الدقيق لفوات الانتفاع أو كماله به لمن ضعف نظره وربما ضعف نظر كاتبه بعد ذلك فلا ينتفع به كما قال الإمام أحمد بن حنبل لابن عمه حنبل بن إسحاق بن حنبل ورآه يكتب خطاً دقيقاً: فإنه يخونك أحوج ماتكون إليه»؛ فكتب عليه الوالد رحمه الله في هامش الكتاب: انظر إذا كانت الدقة في الخط هكذا فكيف بها في عبارات العلوم الشرعية وقد عدّوا ذلك وجعلوه من الفضائل العلية... وليت شعري إذا اشتغل المتعلم في فهم العبارة فمتى يشتغل بحفظ المعنى...؟

وشكوى الناس في كل عصر من الكتب المتداولة بين الأيدي قد عرفها كل أحد فأي ذنب لمن تمنى في هذا العصر ظهور كنوز العلم وانتشار الكتب العجيبة تفسيراً يفصل فيه محاسن الشريعة الغراء وتطبق فيه أحوال العصر ويوافق فيه بين القواعد التي ثبتت بالبرهان وبين الآيات الكريمة مما يستوجب ميل العامة إلى مطالعته ومراجعته فإنه الكتاب الذي قال الله تعالى في شأنه «ما فرطنا في الكتاب من شيء»؟ وقال عز اسمه «سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوَّى والذي قدّر فهدى» فهذه الآية شملت جميع ما خلق الله تعالى من العرش إلى الفرش، ولمن تكلم على هذه الآية مجال واسع في البحث عن سائر الفنون، ولهذا كانت هذه السورة من أحب السور إلى رسول الله ﷺ. وقال سبحانه لما قالت الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ ـ قال: إني أعلم مالا تعملون» وهنا ذكر المفسرون أن من

جملة حكم خلق الإنسان وتخليفه في الأرض إبراز ما أودع الله في الأرض من خواص النبات والحيوان والمعدن على يدي هذا الخليفة لما أودع فيه من الشهوات وحوائج المأكل والملبس وغير ذلك مما استنتجه بأفكاره ووصل إليه ببصيرته فدخل هذا الباب من العلوم ما لا تحيط به دوائر الإمكان، ولا يقوم به قلم ولا لسان؛ فالاشتغال بمثل هذا التفسير أليس أولى من صرف العمر بذكر القبور وأهلها، وتشويق الجهلة وحثهم على عبادتها والالتجاء إليها مع أنهم لم يقصّروا في ذلك وهي لديهم من أعظم الواجبات بل ليس لهم سوى هذا الكمال[1] من أمور الدنيا والآخرة فتراهم مفلسين من كل فضيلة؟ ويقال للنبهانيّ الجاهل القبوريّ هلاّ رأيت كتاب الفاضل الشيخ حسين الجسر الطرابلسيّ وقد كتب فيه ما نصه «وقد خطر لي حيث وجدت مجالاً للكلام، وسميعاً للنداء أن أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الإسلاميّ وكيفية تحققه لمتبعيه على أسلوب جديد سهل الفهم لا تمله الأنفس ولا تستوعره الأفكار يروق العقول الحرة ويعجب الأذهان المطلقة عن قيود التعصب إن شاء الله. . .» أفيقال إن الكتاب الذي ألفه فيه مغمز لثالب؟ كلا بل هو كتاب من أجل الكتب المصنفة في هذا الفن إن لم نقل أحسنها. فأي فائدة في الكلام مع الفلاسفة الأولين؛ وأي نفع يترتب على الكلام في عقائد المعتزلة وإبطال دلائلهم مع تقلّص ظل وجودهم من هذا العالم؛ وفلاسفة العصر لهم فنون أخرى غير فنون أسلافهم، وسلاحهم الذي يحملونه على أهل الدين غير سلاح أوائهم، فينبغي للحازم أن يعدّ لهم ما ينخذلون له وينقادون إليه. فأي ذنب لمن تمنى تفسيراً على هذا المنهج. .؟

نرى كثيراً من المفسرين يؤول آيات الله تعالى المحكمة ليوافقها مع

---

(1) التعبير بالكمال هنا من باب التهكم كما يقولون لمن يخلط في كلامه «فلان يتفلسف».

قواعد هيئة اليونان ويطبقها على أصول الحكمة الإلهية أو الطبيعية اليونانية مع مكابدة المشاق وتحمل الصعوبات مع أن ما ظهر من الفنون الجديدة التي قام على صحتها البرهان يمكن تطبيقها وتوفيقها مع النصوص من غير كلفة لموافقة صحيح المعقول، لصريح المنقول؛ فلم لم يعترض النبهانيّ القبوريّ على مثل تفسير فخر الدين الرازي وقد شحنه من كلام المتكلمين وفلاسفة اليونانيين؟ ومتى كانت هذه المباحث لدى المسلمين قبل أن تترجم كتب الفلاسفة؟ فإذا لم يعترض على مثل ذلك فلمَ يعترض على من يسلك ذلك المسلك في الفلسفة الجديدة التي هي أصح وأولى بالاعتبار من هذيان اليونانيين؛ فهل هذا الكلام منه إلا تحكم وترجيح بلا مرجع؟ ثم إن هذا القبوري لم يعترض على تفاسير القوم التي فسروا بها كلام الله تعالى ولم يقصدها من كلامه رب العالمين. بل عدّ مثل هذه التفاسير من أجلّ المآثر، وأعظم التحف والمفاخر، ولم يتكلم بها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليّ ولا غيرهم، فلمَ يعترض على من تمنى أن يُصنَّفَ تفسير يدل عليه كلامُ الله دلالة صريحة ويصدقه العيان، ويؤيده البرهان؟ فأي ذنب لمن يطلب تصنيف مثل هذا التفسير؟ نعم المذنب هو الذي يطلب تصنيف ذلك من هذا الجاهل القبوري الغبيّ ويتكلم معه مثل هذا الكلام، وهو على ما سمعنا به ممن رآه من قرّاء الموالد والتهاليل للأموات، فأين هو من مثل هذه المطالب العالية. . .؟

تطبيق بين سنن الجاهليين وسنن غلاة الحشويين:

«. . . ورد في الحديث المتفق على صحته «إنكم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه» * أخبرﷺ أنه سيكون في أمته من يحذو حذو الأمم السابقة وهم جاهلية الكتابيين وغيرهم كما فسر في الحديث. ولا شك أن ما أخبر بهﷺ كائن لا محالة فإنه الصادق المصدوق وما ينطق عن الهوى. ومن اليقين

أن من استمسك بهديه واتبع ما ثبت من سنته غير مقصود بالحديث لما ثبت في حديث الفرق أنهم الفرقة الناجية وهم من كان على ما عليه النبي ﷺ وأصحابه كما هو الوارد فلا بدّ أن يكون الذين يحذون حذوهم هم من بدّل وغيَّر وابتدع وحرّف وحاكى الذاهبين الأولين في أفعالهم وأعمالهم من بناء المشاهد والمساجد على قبور صالحيهم وندائهم في المهمات والملمات وغير ذلك مما كان يفعله اليهود والنصارى والمشركون مما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. وفي الغلاة ومبتدعة أهل القبور من خصال الجاهليين من الكتابيين والمشركين ما يتصدق به عليهم اتباع سننهم حذو القذة بالقذة ونحن نذكر بعض ذلك[1] ليكون كالمثال الموضح لما نحن بصدده.

[التقليد]

فمن خصالهم أن دينهم كان مبنياً على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع من كان قبل ظهور الإسلام من الأمم الأولى. **قال تعالى**: «وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون» فأمرهم الله تعالى أن يتبعوا الحقَ فقال «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون» **وقال تعالى**: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا، أو لو كان آباؤكم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» إلى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا مقيدين بربقة التقليد لا يحكمون لهم رأياً ولا يستعملون نظراً ولا يشغلون فكراً فلذلك تاهوا في أودية الجهالة وقضوا أعمارهم في الضلالة، وهكذا الغلاة، وعبدة الأموات، قلدوا آباءهم في تلك

(1) ونحن اقتصرنا هنا على بعض ما ذكر.

العادات، فلا يمكن نقلهم عنها ولو ظهرت الآيات البينات، ولكم بحثت مع عقلائهم فما زادهم ذلك إلا نفوراً، وعتواً على الحق وغروراً. فطابق بين الفريقين، تجد الموافقة ظاهرة لكل ذي عينين.

[التعصب]

ومن خصالهم التعصب لباطلهم فإنهم لما افترقوا خطّأ كل فريق منهم الآخرين. قال تعالى: «**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون**» **وهكذا تجد الغلاة من أهل الطرائق المبتدعة**، فالرفاعي يقول ليس القادري على شيء والقادري يقول ليس الرفاعي على شيء. وهذا يقول شيخي أخذ زنبيل الأرواح من عزرائيل وأعاد كل روح إلى جسدها. وهذا يقول مرَّ شيخي على جهنم فأراد أن يطفئها ببزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه، **ومن اتبع العيدروسي**:

يقول العيدروسي كان يحيى من الأمواتَ منْ قد مات دهراً

وهكذا تجدهم يتضاربون بالأقوال، ولم يزالوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال، والحازم ينظر إلى الدليل فما أداه إليه نظره من الحق أخذ به وترك ما سواه.

[الكرامات الكاذبة]

ومن خصالهم الاعتياض عن شرح الله ووحيه بالخوارق الكاذبة وكتب السحر. **قال تعالى**: «ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان

ولكن الشياطين كفروا. . .» الآية والكلام عليها في كتب التفسير مشهور، وعلى هذه الخصلة اليوم كثير من الناس لا سيما بعض الغلاة المنتسبين إلى المشايخ والصالحين وهم بريئون منهم فإنهم قد تعاطوا بعض الأعمال السحرية من إمساك الحيّات وضرب السلاح والدخول في النيران وغير ذلك مما وردت الشريعة بإبطاله ولم يلتفتوا إليه ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما ألفته إليه شياطينهم وادعوا أن ذلك من الكرامات وخوارق العادات. ومن المعلوم أن الكرامة لا تصدر عن فاسق ومخالف للشريعة ومن يتعاطى تلك الأعمال فسقه ظاهر للعيان وقد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً. وليت شعري لم اختصت الكرامة بمسك بعض الحيّات والعقارب والضرب بسلاح مخصوص والضرب بأيديهم فهلاّ وقفوا أمام مدفع من المدافع فدلع لسانه عليهم وقرأ سورة الدخان وأطلق كراته على وجوههم لنرى كراماتهم حينئذٍ أين تبقى؟

[رسالة في التعزية]

لم نجد بين يدينا شيئاً من رسائل الأستاذ لذلك اضطررنا إلى إيراد رسالة له في التعزية عثرنا عليها في مجلة المنار م 17 يعزي بها صاحبها العلامة السيد رشيد رضا بوفاة عالم الشام القاسمي:

قال بعد الألقاب وفاتحة الكتاب:

أما بعد فقد نعتْ إلينا صحف البلاد الشامية، وفاة العلاّمة السيد جمال الدين القاسميّ قدس الله روحه الزكية، فأمضَّ ذلك الخبر قلبي، وأفضَّ لبي، وجرح فؤادي، وطرد رقادي، وأحدث لي حزناً ملازماً، وألماً دائماً، وأورثني قلقاً واخزاً، وانزعاجاً وافزاً، وحيث كان المشار إليه من أعزة أحبابكم، وخُلَّص أصفيائكم، مع ما كان عليه من الفضل الوافر، والأدب الباهر، والورع الظاهر، والنسب الطاهر، والذب عن الشرع المتين، وقوة الإيمان واليقين، ومناضلة الحائدين والملحدين،

وأنه حسبما اعترف له الموافق والمخالف:

أحيا به الله الشريعة والهدى وأقام فيه شعائر الإسلام
حِكم على أهل العقول يبثها منعوتة الأوضاع والأحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه سحر العقول وحيرة الأفهام

- فإني أعزيك على فقده، وتوسده للحده، ومفارقته لهذه الدنيا الغدّارة. الخائنة المكّارة، فإن نعيمها زائل، وكوكب سعدها آفل، فلا أوجع الله لك قلباً، ولا كدّر لك خاطراً ولا لباً، وللإسلام من طلعتكم الغراء، سلوان عمَّنْ مضى من الفضلاء؛ وإنما يجلّ الرزء إذا قلّ العوض، ويكبر المصاب إذا عدم الخلف، فأما إذا كنت الباقي وغيرك الماضي، وصرت الموجود،وسواك المفقود فالفادحة خفيفة الوقع، مرؤوبة الصدع، ويد الدهر فيما نال قصيرة، ومنته فيما ترك كبيرة، هذا مع أسفي عليه كلّ الأسف، وتصاعد أنفاسي بمزيد اللهف، وقد جرت عليه من العيون عيون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأله تعالى أن يديمكم ركناً للإسلام، ومرجعاً للخاص والعام، ويصونكم من طوارق الليالي والأيام، تذكرة للسلف الأعلام».





التآبين

1 ـ رسائل التعازي

2 ـ المقالات

3 ـ القصائد



التآبين

نروي في هذا الباب طائفة من (رسائل التعازي) و(مقالات الكتاب) و(قصائد الشعراء) مما يُعين على فهم رأي الناس في السيد، تاركين كلمات الجرائد، وشيئاً كثيراً مما يُغني عنه ما آثرنا روايته وإيراده.

ـ 1 ـ

رسائل التعازي

كتب العلامة الأستاذ الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقي عضو المجمع العلمي العربي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي السميّ الكريم: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم أجر الصابرين» أما بعد فقد كتبت إلى تعزيني ـ أيها العزيز ـ بعلامة العراق، ذي الشهرة الطائرة في الآفاق، سيدنا ومرشدنا، (السيد محمود شكري الألوسي). فلقد شق نعيه على مسمعي، وجرت له أدمعي، وأقض مضجعي، وأدمىٰ فؤادي، وحرمني رقادي، ولكن ما الحيلة أيها السميّ الكريم، ذلك تقارير العزيز العليم، الذي نقابله بالرضى والتسليم، وخير

كلمة للمحزون، «إنا لله وإنا إليه راجعون» أما ما ذكرت لي - حرسك الله - من حزنك الشديد، على هذا السيد الفقيد، فلك الحق في ذلك. كيف لا وهو مثقف عقلك، ومرجع فضلك ونبلك، وقطب رحى شهرتك في الأقطار، بتشييعه إياك على ما نشرته في حياته من الآثار. رحمه الله عدد حسناته وتغمده برضوانه وإحسانه. وأسأله سبحانه أن يلهمك الصبر الجميل على فقده، ويحقق رجاءَه فيك من بعده، ويجعلك أفضل خلف له. فكثيراً ما كان ينوّه بفضل أخي في كتبه، ويثني على علمه وأدبه، وها قد رأينا من بدايتك بحمد الله ما يعدُّ نهاية غيرك على حداثة سنك. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد كتبتُ إليك في البريد الماضي كتاباً في آخره تعزية بسيدنا العزيز فلعله وصل إن شاء الله تعالى. وقد قرأت كتابك الشجيّ على رجال (المجمع العلميّ) فعلاهم الحزن والاضطراب وأبدوا الأسف والتوجّع. وهم يهدونك جزيل الشكر والشوق، ويسألون المولىٰ أنْ يحسن عزاك، ويطيل بقاك. وقد اشتركنا في الدعاء والثناء، وذكر أيادي أستاذك البيضاء ومآثرك الغراء؛ واتفقنا على أنك ستسدّ فراغه بإذن الله علماً وأدباً. وسيعطلون (الجلسة) غداً بعد عصر الجمعة بضع دقائق حداداً على الفقيد العظيم، ويرسلون من بعد كتاب تعزية لآله الكرام ولا أعرف واحداً منهم ولذا رجوت من السميّ - أيده الله - في كتابي السابق أن ينوب عني بتعزيتهم ولعل فيهم من يشتغل في العلم فيسد بعض فراغ الفقيد إن شاء الله. وقد عزموا على أنْ يقيموا له حفلة تأبين وهم يشكرون أخي على ما سيتحفهم به من سيرة أستاذنا المبرور ويرجون من همته الإسراع بذلك. . . إلخ.

دمشق: 18 شوال سنة 1342 هـ **محمد بهجة البيطار**

وكتب الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف أحد أعضاء المجمع العلمي العربي العاملين: ـ

دمشق ـ المجمع العلمي 12 أيار 1924

أيها الصديق اللوذعيّ الشيخ محمد بهجة الأثري الأكرم، يعزّ عليّ أن يكون التعارف بيننا على أثر ما نابنا من فقد علاّمتنا الأستاذ الكبير، والمحقق الخطير، والمدقق الشهير (الألوسيّ) وكفى باسمه شهرة لأبناء العربية الناطقين بضادها. فثق أيها الصديق أننا شاركناكم بتفجعكم عليه وبكيناه بالدماء عوض الدموع عارفين قدره الكبير ومصابه الأليم، والحاجة إلى آرائه وتحقيقه، ولكن ما العمل وهذه سنة الله في خلقه ولا تجد لسنة الله تبديلاً. فأعزيك وأعزي أسرته الكريمة، بهذه الفاجعة الأليمة؛ وطيه كلمتي فيه وأنا على فراش الداء وهي من نوع «الشعر المنثور» كانت بنت دقيقتها. أعاضنا الله بسلامتكم وسلامتهم وتغمد مَنْ فقدنا برحماته، وسقى ضريحه شآبيب رضوانه، فدم لصديقك الداعي الأسيف:

عيسى إسكندر المعلوف

وكتب في الهامش:

عزم مجمعنا العلميّ على إقامة حفلة تأبين لفقيدنا المومأ إليه، ولكننا نحتاج إلى ترجمته أطول مما هو عند الداعي عنه ومما أرسلتموه إلى الصديق الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار فلا يحرموننا ذلك قريباً.



وكتب من دمشق ضيفها صديقنا المفضال الشيخ أبو عبد الله الزنجانيّ من عقلاء علماء الشيعة في إيران:

حضرة العامل الجليل، والفاضل النبيل، محمد بهجة الأثري:

سلاماً واحتراماً. أكتب إليك هذا الكتاب والأسف ملء قلبي من أفول ذلك النجم الذي طالما أضاء عالم العلم. واليوم فقدت الأمة الإسلامية بفقده رجلاً عظيماً من رجالها، وعالماً كبيراً من علمائها، ولا شك أن تلك الروح الكريمة - وإن أظلمت علينا بفراقها - لكنها رجعت إلى ربها راضية مرضية. وسوف تتجلى مآثره في صحائف العلم والأدب بمداد النور. وأظنكم تعلمون أن هذا العالم كان شيخ إجازتي في الرواية حسب عادة المحدّثين كما تشهد صورة إجازته التي قدمتها إلى فضيلتكم، كما أنه رحمه الله كان يرشدني في رسائله العلمية. قرأتُ في إحدى جرائد بغداد أنكم - إحياءً لذكره وأداء لحقّه - وجهتم العزيمة إلى تأليف كتاب يكفل شؤون حياته العلمية وآثاره الجليلة. وأشكركم على هذه الخدمة النبيلة، وأرجو من فضلكم أن تذكروا في تأليفكم صورة هذه الإجازة إذا اقتضى رأيكم وأسلوب تأليفكم، وأشكركم أن تشيروا إليها إشارة تكفي لبيان الحقيقة. ولا ريب أن هذا أكبر دليل على نبذ العصبية التي ساءت بها حال الأمة كما أنه أقوى دليل على تقدير الشيعة وعلمائها قدره، وثقتهم بهذا العالم الكبير رحمه الله. وسأزوركم إن شاء الله في بغداد.

دمشق 19 شوال سنة 1342 هـ **أبو عبد الله الزنجاني**

وكتب الأديب الدمشقي أبو هشام محمد سعدي يس كتاباً في التعارف وطلب الإخاء وفيه كلمته في التعزية وهي:

«. . . وإني ليمضني قلبي أن أكتب إليك معزياً في بحر العلم، وعلم الهدى وأستاذ الأساتذة المرحوم السيد محمود شكري الألوسيّ أستاذكم الكريم، ووالدكم الحميم الرحيم؛ ولو كان بي أن أكتب في رثائه ـ أنزل الله عليه سحائب رحمته وأسبل عليه جلابيب مغفرته ـ لتركت اليراع يذرف من دموع مداده، ما يكسو به القرطاس ثوب حداده لأن الدهر فجعنا بذخائر علم ثمينة، وكنوز عرفان ذات قيمة، ولكنك أنت العزاء والسلوى، ولو لم يكن للأستاذ ـ ويم الحق ـ غيرك لكفاه ذلك فخراً وسؤدداً، ومجداً مشيداً».

وكتب الفاضل المهذب السيد مراد ابن المرحوم محمد الضالع التاجر المحسن الشهير:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الأجلّ الفاضل محمد بهجة أفندي الأثري.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ومغفرته ومرضاته. وبعد فاللسان يقصر دون التعبير عما تكنه الجوانح من آلام الحزن على ما حل برجل الإسلام، وإمام العلماء الأعلام، حامل لواء التوحيد، والآخذ بالاقتداء دون التقليد المرحوم المبرور السيد محمود شكري الألوسي غفر الله له ورضي عنه. فلقد كان نبأ وفاته حين الاطلاع عليه بإحدى الصحف السورية مهيباً مريعاً تتفطر له القلوب، وتنشق عليه الصدور لا الجيوب.

وراع كل عظيم عظم مصرعه   وكم تردّى سواه غير مأسوف

ثم وافانا كتابك المؤيد لذلك النبأ العظيم والمجدد للبلوى، ولا عزاء هناك ولا سلوى.

أكيداً لنا يا بَيْنُ واصلت وصلنا فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو
أردّد وَيْلي لو قضى الويل حاجةً وأكثر لهفي لو شفى غلةً لهف

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله الذي لا يسأل سواه أن يتغمده برحمته ورضوانه، ويسكنه فسيح جنانه، ويلهمنا جميعاً الصبر على ما قضى، لنحظى بالإثابة والرضى.

صبرت فكان الصبر خير مغبّة وهل جزع يجدي عليّ فأجزع؟
ملكت دموع العين حتى رددتها إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

ولقد أحسنتم صنعاً بتدوين فضائل السيد الراحل أجزل الله له الجزاء الأوفى، ووفاه أجره في جهاده في سبيله والله لا يضيع أجر المحسنين. هذا وأرجو أن لا تحرمونا التمتع بالآثار المجموعة من فضائله آنسه الله برحمته بعد أن حرمنا الإنس بلقائه والتمتع بمحادثته وإن كان الأمر كما قيل:

وإجلال مغناك اجتهاد مقصر إذا السيف أودى فالعفاء على الجفن

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حلب 16 شوال سنة 1342 هـ **مراد بن محمد الضالع**

وكتب من مصر الفاضل الجليل الشيخ راغب محمد علي القبانيّ الأزهريّ البيروتي:

مصر ـ الإثنين 15 شوال سنة 1342 هـ   رواق الشوام بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز المفضال الشيخ محمد بهجة الأثري أمدّ الله في حياته. بعد السلام والتحية أعرض إليكم مشاطرتي أساكم ومصابكم بل فاجعة الأمة الإسلامية بفقد ركن عظيم من أركان حياتها ألا وهو أمامنا الأجل، وشيخنا الأمثل، المرحوم السيد محمود شكري الألوسيّ رضي الله عنه وأرضاه نعيّ ما كاد ناظري يهوي إلى عنوانه (وفاة عالم العراق) في (أهرام) البارحة حتى دبَّ إلى قلبي الاضطراب فإذا ما انتهى إلى اسم الإمام صرت في مهاوى السهام.

أجل يا أخي إننا من بدء الحرب العالمية إلى اليوم في شتى من الرزايا والخطوب وكنا نعلل النفس بالفلاح من مشرق أمثال الإمام المحمود، فإذا ما فوجيء المسلمون بذلك الخطب الأليم انهالت علينا سحائب أشد من الليل، وبتنا كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ولكنه حكم الله الذي لا مردَّ له فلا يسعنا غير الصبر الجميل ضارعين إليه سبحانه أن يتغمد الإمام برضاه، ويجزل له الثواب ويخلد ذكره في الأجيال، بما له من الكتب وصفوة الرجال، وأن يمد تبارك وتعالى في حياتكم تحيون ذلك الذكر المحمود ولنعم خليفة صاحبه أنت. وأسأله تعالى أن يبقي حياة آل الفقيد ويعوضهم عنه كما يعوّض سائر المسلمين من يخلفه من بيتهم إنه رؤوف رحيم. وأرجو إبلاغهم سلامي وتعزيتي.

هذا ونعلم أن للإِمام المحمود كثيراً ناقماً عليه من العلماء وأنهم

لفقده سيشعرون بفراغ كبير كان يشغله الإمام في أمرَيْ الدين والدنيا فيبيتون يتقلبون على أضغاث الآلام وأَسنة الندم كما ترى اليوم جلَّ أعداء الأُستاذ محمد عبده المصريّ من علماء الأزهر. ونحمد الله جلّ جلاله أَنْ ظهر من شباب طلاّبه فريق كبير ينتهز الفرص لبناء ذكراه: العلمية والعملية. إنّ خصوماً كأولئك منتسبين إلى العلم لعلمهم أن الفرقة ولا سيّما إذا طالت حياتها من أعظم الأسباب في تسليط الله على أوطانهم من لا يخافونه ولا يرحمهم، لَجَدِيرٌ بهم ألاّ يلبثوا أنْ يطفئوا تلك النار بمياه إيلافهم أمثال ذينك الإمامين ممن سلف وممن خلف، ولا سيما أنهما على ما نعهد لله وحده كانا حليفَيْ الحق ولو عليهما. كما بادر الإمام المصريّ إلى تصحيح تفسيره «وأما السائل فلا تنهر» في الصحف السيّارة إِذْ نبهه إلى ذلك إمام اللغة العربية الشنقيطي رضي الله عنهما.

نعم لقد آن لأولئك الخصوم أن يقتلوا خصومتهم بسلاح قوة الإرادة والإيمان والعلم فيحل الإنصاف؛ محل الخلاف، والوفاق، محل الشقاق، وخصوصاً نحن المسلمين الذين جعلنا الله بفضله وإحسانه خير أمة أخرجت للناس من أعظم الواجبات الإسلامية علينا أن نكونْ رحماء بيننا لنشر ألوية المجد على أبناء الإنسان. وأعظم مخاطب منا بذلك الواجب هم علماؤنا الذين هم قادتنا وأئمتنا في أمرى الدين والدنيا.

هذه خير تعزية نعزي بها نفسنا، وأتفضل دعوة نوجهها إلى أولئك العلماء في هذا اليوم العصيب ونسأل المولى الكريم أن يوفقنا وإياهم وسائر المسلمين لتأييد الإسلام الحنيف على سنن السلف الصالح فيعيد تبارك وتعالى ـ لنا نحن المسلمين ـ سابق المجد، وسالف الحمد، اللذين بهما يعتزّ أبناء الإنسان فضلاً عنا والحق من وراء القصد. .

راغب القباني

وكتب عالم الكويت لهذا العهد الأستاذ السلفي المفضال الشيخ عبد الله ابن خلف:

من الكويت 18 شوال سنة 1342 هـ 　　　　　　إلى بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

أهدي أفضل سلام، لجناب العلاّمة الهمام، بهجة الزمان، ونابغة الأقران، الأستاذ الأخ السيد محمد بهجة الأثري حفظه الله تعالى ولطف به في كل حال، وبلغه من كل خير منتهى الآمال، آمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإني أرفع إلى كريم حضرتك، وعظيم فضيلتك، - والقلب ذائب، والدمع ساكب، والأسى غالب - التعزيةَ بفقيد العلم والأدب، ومجيد الحسب والنسب، علاّمة العراق، ، وبدر الآفاق، ومن وقع على علمه وفضله الإجماع والاتفاق، سيدي الإمام الأستاذ المحقق المدقق السيد محمود شكري الألوسي تغمده الله برحمته، وأباحه دار كرامته، ونفع بعلومه عموم الخلق، وأحلّه عنده في مقعد الصدق، وكتبه في المهديين، وجعل كتابه في عليين، وأخلف على أهله في الآخرين. إن موت هذا الإمام مصيبة عظمى، وخسارة في العلم كبرى وثلمة في الدين، ورزية للإسلام والمسلمين، وإنك أيها الأستاذ الفاضل أشدهم به مصيبة، وأعظمهم بفقده رزية، حيث إنك حفظك الله تعالى خريج علمه، والمستخرج كنوز تفهيمه وفهمه، والمعتني بنشر تآليفه الحسان، والمعلّق على طروها قلائد الدر والمرجان، وإن القريب من قربته المودة وإنْ بعد نسبه على أن نسب العلم أقوى ، والاتصال به هو السبب الأقوى، لأن آباء الأرواح، أعظم من آباء الأشباح، فأعظم الله أجرك، وأحسن عَزاءك وغفر لميتك وأكرم نزله، وأوسع مدخله، وأعانك على ما بلغنا أنك آخذ فيه من جمع آثاره، ونشر أخباره، ضمن مؤلَّف جامع مانع آتٍ على ترجمة حياته، وبيان مصنفاته الجامعة النافعة، وجمع فتاويه ورسائله،

وأجوبته لمستفتيه وسائله، كان الله لك، وبلغك أملك، وجعلك خير خلف، لذلك الصالح السلف، الذي أصيب به العالم الإسلامي الأجمع، وانهدَّ بموته ركن العلم الأرفع، رحمه الله رحمة الأبرار ونفع بما خلفه من محاسن الآثار، إنه سميع الدعاء، وأسأله تعالى أن يحقق فيك الرجاء... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محبك الداعي

عبد الله بن خلف

❁ ❁ ❁

وكتب الفاضل الأديب الشيخ عبد العزيز الرشيد الكويتي أحد تلاميذ الفقيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الأديب الفاضل الأُستاذ الأجلّ الأخ العزيز الشيخ محمد بهجة الأَثَري المحترم سلمه الله آمين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخي الفاضل قدمت لجنابكم قبل هذا كتاباً أنبأتكم فيه بوصولي إلى الكويت سالماً ولم أشكُ إلا فراقكم. أما الآن فيسوؤني وايم الحقّ أن أكتب إليكم أعزيكم بأستاذنا الألوسي الذي كان لنعيّه في بلدنا رجة كبرىٰ، عوض الله المسلمين عن هذا المصاب، بالصبر والثواب، وإلا فلا أظن أن في عالمنا من يقوم مقامه أو يسدّ مسدّه فأعظم الله أجركم، وأحسن عزاءكم وغفر لميتكم، وإني الآن أسعى في إقامة (حفلة تأبين) لهذا الفقيد العظيم بين شبابنا بعد مضي أربعين يوماً من وفاته وسأوافيكم بعد ذلك بما يدور هنا إن شاء الله تعالى...

محبكم

عبد العزيز الرشيد

وكتب من باريس المستشرق الفرنسي لويز ماسنيون ما نصه بلفظه العربي:

إلى السيد العالم الفاضل محمد بهجة الأَثَري وفقه الله تعالى. أما بعد واجبات السلام والاحترام والتحية فقد نعىٰ إليّ جواب من بغداد الأُستاذ العزيز الصديق الفريد الشيخ محمود شكري الألوسي رحمه الله تعالى. توجعت وتأسفت أي تأسف. نحمد الله سبحانه لما سمعنا من صبره في الشدائد ومن فضائله. هذا فنلتمس من لطفكم أن تكونوا وكيلنا لتقدمة احتراماتنا إلى عائلته الشريفة جمعنا الله تعالى في الخيرات تذكاراً من المرحوم.

إلى تلميذ المرحوم الأخصّ

من أقل تلامذته

يوم الأربعاء 25 حزيران سنة 1924 م	**الفقير الخاضع لربه سبحانه**
20 ذي القعدة سنة 1342 هـ	**لويز ماسنيون**

❀ ❀ ❀

وكتب العالم الإسلامي الكبير السيد رشيد رضا منشىء مجلة المنار بمصر إلى سمينا العالم الفحل الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقي:

«... إن مصاب الأمة العربية، بل الأمة الإسلامية، بفقد علاّمة العراق السيد محمود شكري الأَلوسيّ لعظيم، وإِن نصيبنا نحن منه لأعظم، فهو أخونا الأكبر، وظهيرنا الأعظم، ومرجعنا في إحياء آثار السلف الصالح وأنفع كتبهم التي نعتمد عليها في تجديد أمر الدين، ومقارعة المارقين والمبتدعين. ونحن أولى الناس بتخليد ذكره، وتعطير الآفاق بعبير نشره، وتعريف الحاضرين والآتين بجلالة قدره؛ ونحمد الله

تعالى أن رأينا له خلفاً فِي العراق قبل الفجيعة بفقده وهوأخونا الأستاذ الشيخ (محمد بهجة الأَثَري) سميكم وأشبه الناس بكم في فضلكم وإخلاصكم، فلولاه لكانت المصيبة أعظم، والرزء أوجع، ولَكُنا نعدُّ قطر العراق قد خلا من المصلحين وقضى عليه، ولم يبق فيه أحد يرجع إليه وقد نويت أن أكتب إليه منذ علمت بالمصاب ولما أوفق لذلك.

أكتفي بهذه الكلمة المشتركة بيني وبينك وسائر الأخوان الأثريين في مصر والشام؛ وأما ما يخصّني وحدي فأفوض فيه أمري إلى الله، وإنما أشكو بي وحزني إلى الله وأسأله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أحب أن ترسل إليّ ما لديك من ترجمة فقيدنا العظيم، ثم ما عسى أن يرسله سميك الكريم، ولا أدري أكَتَبَ إليّ شيئاً أم لا؟ فإن عمّال العراق لا يأتمنون على ما يرسل إلي ولا على ما يرسل مني إلى بلادهم»!

❀ ❀ ❀

وكتب العالم المحقق صاحب السعادة أحمد تيمور باشا المصري إلى الأب أنستاس ماري الكرملي:

سيدي الصديق أبقاه الله! قضى **الله ولا راد لقضائه** أن يفجع العلم بإمامه ونبراسه وأن يُحْرَمَ المستفيدون من سندهم في حل معضلاته، ويعلم الله ما كان لهذه المصيبة من الوقع في نفسي، ولكن ما الحيلة وقد نفذ القضاء وطوي الكتاب. وإنا لله وإن إليه راجعون.

أحمد تيمور

وكتب إليه أيضاً الأستاذ الكبير صاحب السعادة أحمد زكي باشا المصري:

أسفت جدَّ الأسف على وفاة علامة العراق، فقد مضى دجلة والحمد لله الذي أبقاك لنا يافرات! كنت والله أقصد برحلتي إلى العراق رؤية السيد الألوسي والاغتراف من بحر علمه، فحالت المنية، دون الأُمنية، فرحمه الله عليه، وعزانا الله عزاءً جميلاً على فقده، ولا أدري أيجيب دعوتي في أن يتمَّ نعمته علينا بخليفة له؟ ولكنني أدعو وأدعو فَأَمِّنْ يا أبتاه، حتى يستجيب الله، وأرجو أن تتفضل بتقديم تحيتي وشكري لتلميذه الجاري على أثره محمد بهجة الأثري جعله الله خلفاً لصاحبنا آمين.

أحمد زكي



وورد من ديوان (المعتمد السامي) ببغداد إلى شقيق الفقيد:

جناب الفاضل الأكرم الحسيب النسيب مصطفى أفندي الألوسي الأفخم:

تلقى فخامة المعتمد السامي بمزيد الحزن والأسف خبر وفاة شقيقكم المرحوم العالم العلاَّمة الإِمام محمود أفندي شكري الألوسي. وقد كان لنعيه رنة أسف شديد في قلوب جميع أصدقائه الذين كانوا بحق يحترمونه ويحبون شخصه الكريم فأسأل الله تعالى أن يمن عليكم وعلى العائلة أجمع في ساعة أحزانكم هذه بالصبر والسلوان، وبقوة الإيمان، تقوية لكم على تحمل هذا المصاب الأليم إذْ ليس للمرء من تعزية حقة أو عزاء صحيح في أوقات الشدة والأسىٰ إلا من لدنه تعالى.

هذا ولما كنت من محبي المرحوم أرجو أن تتأكدوا مشاركتي لكم في الأسى والحزن على هذه الفاجعة الأليمة التي أَلَمَّتْ بكم وأطلب ثانيةً من المولى أن يلهمكم الصبر والسلوان

المخلصة :

كرترودْ بيل

وورد أيضاً من مفتش معارف بغداد مستر سميثْ:

حضرة الفاضل مصطفى أفندي الألوسي المحترم

بعد الاحترام أعزي حضرتكم تعزية مخلص لوفاة المرحوم الفاضل أخيكم محمود شكري أفندي الذي خسر العراق بفقده مرشداً حكيماً ومنشطاً للمعارف كما خسر العلم أجمل حليته وإني لآسف لوفاته كصديق حميم يحبه ويحترمه وأسأل الله تعالى طول بقائكم مع جميع أفراد العائلة .

سميث

ـ 2 ـ

المقالات

التآبين في الجاهلية والإسلام

ـ الخطبة التي افتتحنا بها حفلة التأبين الأربعينيَّة في فناء جامع **الحيدر خانة** في 13 ذي القعدة سنة 1342 هـ وقد نشرتها مجلة الحرية في م 1 ص 59 ـ:

سلام عليكم أيها السادة الأجلة ورحمة الله وبركاته!

أحييكم تحيَّة مهيض جُبرَ كسرهُ، وكئيبٍ أذهب عنه الحزن بعد أن راعه دهرهُ؛ وأشكركم على شعوركم الحي في تقدير نوابغ الرجال والاهتمام بأمورهم: شعرتم بالأمس عند ما حمَّ القضاء ، ونزل البلاء، وغالت المنية رجل الإسلام الفذ، بالفراغ الكبير الذي كان يشغله في عالمي العلم والأدب فهرعتم لتشييع جثمانه الطاهر من كل فج متفجعين، وما فيكم إلا المحوقل والمرجع، والمتأسف والمتوجع، والنادب والمتصدع، والنائح والجازع.

واليوم لبيتم دعوتنا واجتمعتم لتأبينه واستمطار الرحمة لتلك الروح الطاهرة التي خدمت العلم والأدب سبعين حجة واصلة ليلها بنهارها من غير أن يعروها فتور أو سأم إلى أن لبت داعي ربها فذهبت إليه طاهرة زكية.

فنشكركم على عرفانكم للجميل، ووفائكم بالذمة، وتقديركم للعلم، لا جعل الله لعدوكم عليكم سبيلا.

أيها السادة!

إننا لا نريد بهذه الحفلة التأبينية أن نتبرم بالقضاء الواقع، الذي لم يكن له من دافع؛ أو نثير في الأفئدة لواعج الأحزان، وكوامن الأشجان، فننوح ونجزع ونبكي ونندب، أو نلطم الخدود ونشق الجيوب أو ندعو بدعوى الجاهلية كما يتبادر لبعض الناس من معنى «التأبين».

كلا ثم كلا: إننا لأجلُّ وأعظم من أن نتشبث بهذه السخريات المضحكة المبكية فنعقد لها المجالس، وندعو إليها أجلة الرجال. نعم إن القصد لأَعظم مما يتصوره أولئك الذين لا ينظرون أبعد من أرانب أنوفهم، فيرمون بالمروق أو الابتداع كل مَنْ يأتي بما لم يعرفوه في دفاترهم!

القصد من حفلات التأبين جليل، وفيها من الإِجلال والتعظيم للعلم معنى جميل، وهي لا تقام إلاّ لنوابغ الرجال: أصحاب الأعمال السديدة، والآثار الخالدة، والأيادي البيضاء، والمآثر الغراء.

تقام لهؤلاء، وتذكر في مناقبهم ويثنى عليهم بما قاموا به من الخدمات الجليلة في سبيل العلم والوطن حثّاً على سلوك طريقهم، واتباع آثار فعالهم وصنائعهم، ودعوةً للخلف، لإِتمام ما بدأ به السلف...

هذا هو المراد من التأبين، وهذا معناه في لغة العرب. **قال علماء اللغة: «التأبين**: الثناء على الشخص بعد موته. والتأبين: اقتفاء أثر الشيء، ومنه قيل لمادح الميت «مؤبّن» لاتباع آثار فعاله وصنائعه». فهل من بأس أو مخالفة للشرع تترتب عليها مفسدة إذا اجتمع ناس وأثنوا على ميتهم، وذكروا مناقبه وفضائله ومحاسنه ترغيباً للخلف في اتباع

منهجه وسلوك طريقته، وقد ورد في الأثر «أذكروا محاسن موتاكم»؟ وأي ذكر لمحاسنهم أحسن من ذكرها في جمع محتشد يضم المئات والألوف من الشيب والكهول والشباب وكلهم يسمعونها ويستمطرون سحائب الرحمة والغفران لتلك الأرواح الزكية.

إن الشريعة الإسلامية لم تمنع من اجتماعات حيوية كهذه فيها عبرة وذكرى، ولا نهت عنها أو قالت إنها من أعمال الجاهلية يجب استئصالها كما يموّه الممخرقون الذين يرتكبون في كل حين ضروب المنكرات ثم يرون القذى في عيون الناس ولا يرون الجذوع في أعينهم! فحاشا لله أن تكون الشريعة مثلما يصفها الجامدون المقلدون العمى الصمّ البكم. على أن العرب قبل الإسلام ما كانوا يعقدون حفلات تأبينية مثل هذه يثنون فيها على الميت ويتناشدون الأشعار الاستنهاضية التي يرمي فيها مرمى بعيد. نعم: ربما كان وليّ الميت يقوم على سرير فقيده قبل دفنه ويثني عليه ثم يدفنه، وربما كان بعضهم إذا اجتاز بقبر صاحبه وقف مترحماً ومنشداً فيه بعض الأبيات، ثم عقر على قبره ناقته. رُويَ أنَّ بعض الشعراء اجتاز بقبر ربيعة بن مكدَّم فوقف وأنشد:

لا يبعدنَّ ربيعةُ بن مُكدَّم	وسقى الغوادي قبره بذَنُوب
نفرت قلُوصي من حجارة حرّةٍ	نُصبَتْ على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناقُ منه فإنه	شِرّيب خمر مِسْعر لحروب
لولا السفار وطول قفرٍ مَهْمَهٍ	لتركتها تحبو على العرقوب

وأنّ رجلاً وقف على قبر النجاشيّ فترحمَّ وقال: «ولولا أن القول لا يحيط بما فيك، والوصف يقصر دونك لأَطنبتُ بل لأسهبت» ثم عقر ناقته على قبره وقال:

عقرت على قبر النجاشيّ ناقتي	بأبيض عضب أخلصته صياقله
على قبر مَنْ لو أنني متّ قبله	لهانت عليه عند قبري رواحله

(هذا ما كان من أمرهم) ولكن هل أبطلت الشريعة كل ذلك يا ترى؟

إنها لم تبطل إلا العقر، وأما الإنشاء والثناء فلا . . . . **روي أن الإمامَ علياً وقف على قبر فاطمة رضي الله عنها فتمثل:**

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وإن الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد ... دليل على أنْ لا يدوم خليل

ووقفت فاطمة على قبر أبيها رسول الله ﷺ فقالت:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكثب

ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه جاء عليّ فوقف بالباب وقال: رحمك الله أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غنى، وأحفظهم على رسول الله، وأحربهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً . . . إلخ.

ووقفت سيدتنا عائشة على قبر إبيها الصدّيق رضي الله عنهما فقالت: نضّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وكنت للآخرة معزّاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، فإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك، وحسن العوض منك، وأنا أنتجز موعد الله بحسن العزاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك، فعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لك ولا رازئة على القضاء فيك.

ووقفت على قبر أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر فتمثلت بقول متمم ابن نوَيْرة:

وكنا كندمانَيْ جَذيمَةَ حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يصدعا

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا　　أصاب المنايا رهط كسر وتبّعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً　　لطول اجتماع لم تبت ليلةً معاً

وصلى متمم بن نويرة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه الفجرَ في المسجد عقيب قتل أخيه فلما فرغ قام متمم بحذائه واتكأ على سِيَةِ قوسه ثم قال:

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت　　خلف البيوت قتلت يا ابن الأزوّر
ولنعم حشو الدرع كنت وحاسراً　　ولنعم مأوى الطارق المتنوّر
أدعوته بالله ثم غررته　　لو هُو دعاك بذمة لم يغدر

وأومأ إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا غررته. ثم أتم شعره فقال:

لا يمسك الفحشاء تحت ثيابه　　حلو شمائله عفيف المئزر

ثم بكى وانحطّ على سِيَة قوسه وكان أعور دميماً حتى دمعت عينه العوراء فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: وددت لو أني رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك ويروى عنه أنه قال: لو كنت أقول الشعر كما تقول لرثيت أخي كما رثيت أخاك!

ثم ما تقول بلبيد الصحابي الجليل رضي الله عنه حيث أوصى ابنتيه لما حضرته الوفاة أن ترثياه وتؤبناه فقال:

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما　　وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فقوما وقولا بالذي تعلمانه　　ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعرَ
وقولا: هو المرء الذي لا صديقه　　أضاع ولا خان الأمين ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما　　ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

والشواهد كثيرة لا يسعها المقام.

قلنا فيما تقدم أن الجاهلية ما كانوا يعقدون اجتماعاً للأموات

كهذا، ولئن سلمنا جدلاً أنهم كانوا يجتمعون فهل نسلم أن كل عمل كانوا يأتونه أبطلته الشريعة ونهت عنه كما يزعم الجامدون من فريق المقلدة؟ ذلك ما لا أظن واقفاً على مبادىء التعاليم الإسلامية يتفوه به بملء فيه.

ألم يكونوا في الجاهلية يحجون البيت ويعتمرون، ويهدون الهدي ويحرمون ويرمون الجمار ويطوفون، ويسعون بين الصفا والمروة ويمسحون؟

ألم يكونوا يغتسلون من الجنابة ويستنجون، ويحلقون العانة ويقلمون، وينتفون الإبط ويختنون، ويقصون الشارب ويفرقون، ويتسوكون ويتمضمضون ويستنشقون؟

ألم يكونوا يقطعون يد السارق ويصلبون الذين يعيثون في الأرض فساداً؟ ألم يكونوا يحكمون بإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً وللزوجة الرجعة في الواحدة والاثنتين، وتفريق الفراش في وقت الحيض، إلى غير ذلك مما يطول بيانه؟ فهل أبطلت الشريعة كل هذا لكونه من أعمال الجاهلية أم قررته؟ فما لهؤلاء المنتسبين للدين كيف يحكمون؟

هذا ولا يردُ علينا أن هذا العمل من المحدثات وقد ورد في الحديث «. . . شر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة. .» أن المراد بالبدعة في لسان الشرع ما طرأ على الدين - بعد أن أتمه الله - من الزيادات، وليس في عملنا هذا بدعة كما عرفت مما تقدم فضلاً عن أنه لا مخالفة فيه تترتب عليها مفسدة لأنه لا يخرج عن ذكر محاسن الميت وحث الناس على سلوك طريقته السديدة وذلك شيء مأمور به في الشرع فقد ورد في الأثر: **إذكروا محاسن موتاكم**.

نعم يَعد عملنا هذا من البدع من يقسم البدعة إلى خمسة أقسام: واجبة ومندوبة ومباحة ومحرمة ومكروهة، وإلى حسنة وسيئة. ولكن هذا

التقسيم لا دليل لهم عليه من الشرع وليس عليه أثارة من علم، والناظر في كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي رحمه الله يتحقق لديه وجه إنكارنا على القاسمين.

❀ ❀ ❀

أراني قد أطلت أيها السادة فامنحوني عفوكم واسمحوا فإن الضرورة قد ألجأت إلى ذلك. فإن الجامدين ممن تعرفون قد أخذوا يشنعون علينا ويرموننا بالابتداع والخروج عن دائرة الدين حينما علموا بإقامة هذه الحفلة، فإذا سكتنا فربما يتوسعون بعد في اللغو. فرأينا من الواجب أن تلجم أفواههم بالحجة وإقامة الدليل لا أن نغض الطرف عنهم أو نقابلهم بالمثل. واحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الأثريّ

عالم العراق * ورحلة أهل الآفاق[1]

السيد محمود شكري الألَوسيّ

قال رسول اللهﷺ : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

وقد قبض الله تعالى إليه في الرابع من شهر شوال الماضي عالم العراق، ورحلة أهل الآفاق، ناصر السنة، قامع البدعة، مُحيي هدي السلف، حافظ فنون الخلف، علامة المنقول، درّاكة المعقول، دائرة المعارف الإسلاميّة، نبراس الأمة العربيّة حجة العترة النبويّة، عميد الأسرة الألوسيّة، صديقنا وأخانا في الله عز وجل السيد محمود شكري الألوسيّ قدس الله روحه.

كان رحمه الله تعالى إماماً يقتدى به في علمه وعمله وهديه وآدابه وفضائله. وقف جميع حياته على علوم الإسلام وفنون اللغة العربية في هذا العصر الذي قلّ فيه الاشتغال بالعلم والأدب في تلك البلاد بين أهل السنة، وكاد ينحصر في الشيعة. فبعد أن كانت بغداد في عهد العباسيين

(1) العلامة الشهير السيد رشيد رضا منشيء مجلة المنار بمصر صدر بها ترجمتنا للفقيد (المنار م 25 ص 374).

عاصمة العلوم والفنون في الأرض وكانت المدرسة النظامية فيها أول مدرسة جامعة في العالم، ثم بعد أن كان يوجد فيها في كل عصر أفراد نابغون كجدّ الفقيد صاحب روح المعاني «رحمه الله تعالى» استقبلنا هذا القرن الرابع عشر للهجرة من أوله في الاشتغال بالعلم، وصار لنا بنشر المنار وبالسياحة علم واختبار بأحوال الأقطار الإسلاميّة فلم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب السنة صوتاً إلاّ من هذا الرجل، ولهذا لقبناه في مكتوباتنا له بعالم العراق، كما لقبنا المرحوم جمال الدين القاسميّ بعالم الشام. إنما العالم من كان مستقلاً في فهمه واستدلاله على مسائله، وقد مات العلم الحي المنتج في بلاد الإسلام بالتقليد رويداً رويداً حتى صار وجود العالم (المستقلّ) نادراً، وصار إذا وجد متّهماً في دينه من أهل الحشو والجمود من أصحاب العمائم المكورة، والأردان المكبرة، والأذيال المجرّرة!

إن التعليم في المدارس الدينية الإسلامية كله تقليديّ فإذا رأيت عالماً مستقلاً فاعلم أنه لا فضل لمدرسته ولا لشيوخها في ذلك بل سببه استعداد خاص فيه قارنه إرشاد مرشد من غير العلماء الرسميين في الغالب ـ أو اطلاع على بعض المصنفات التي ترشد إلى العلم الصحيح فلقحه فأثمر وأنتج، وحسب فقيدنا الكريم أنه كان في أثناء طلب العلم يراجع تفسير جده أو يطالع كتاب أستاذه وعمّه (جلاءَ العَينين) فهما يرشدانِهِ إلى ترك التزام ما قرره أفراد من العلماء لتسميتهم علماء مذهبه، ونبذ كل ما أثر عن غيرهم من علماء الملة وإن وضح دليلهم لأنهم أئمة مذاهب أخرى أو منسوبون إليها. وما يدرينا لعل عمّه السيد نعمان خير الدين كان يرشده إلى الاستدلال والاستقلال ولو في الأصول، وإن كان كوالده صاحب التفسير يلتزم التقليد في الفروع، فمهما تكن حالهما في التدريس والفتوى فقد كانا غريبين في عصرهما لما أوتيا من سعة الاطلاع وعدم الجمود على المألوف عند الأشياخ، دع التعصب الذميم للمذهب.

والذي يظهر لنا أن الأستاذ رحمه الله لم يعن بالدعوة إلى الاستقلال وترك التقليد وتربية نشء جديد يقوم بذلك على ما كان عليه من الشجاعة وعدم المبالاة بالدنيا وأهلها، ولو عُني بهذا لكان له به شغل عن شرح فاتحة كتاب المطوَّل للسعد وأمثالها[1]، ولعلّ عذره أنه لم يجد في بغداد طلاباً مستعدّين، ولذلك لم نرَ له غير تلميذ واحد يرجى أن يكون خلفاً صالحاً له في التدريس والتصنيف وإحياء موات الكتب النافعة بالتنقيب عنها واستنساخها والسعي لطبعها، وفي غير ذلك من فضائله، ألا وهو الأستاذ الشيخ (محمّد بهجة الأثريّ) - فقد عهد الفقيد إليه بمكاتبتنا بالنيابة عنه لما تناوبته الأمراض في السنين الأخيرة فرأينا من مكتوباته خير مثال لمكتوبات أستاذه في اللفظ والمعنى، وفي الخط أيضاً فخطّه كخطه كأنَّه هو، ولولا آمالنا بهذا لكان حزننا على فقيدنا العزيز مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

مصر (القاهرة) **رشيد رضا**

---

(1) أقول: قد عنى الأستاذ رحمه الله بالدعوة إلى الاستقلال وترك التقليد لساناً وقلماً يوم تحرره إلى يوم وفاته، حتى ناله بذلك من الأذى ما فيما قدمناه غنية عن الأعادة والبيان. وتعرضه لشرح فاتحة المطول وأمثالها لأسباب: منها أنه كتبه في أول عهده بالتأليف. ومنها أن الحاجة كانت ماسة إلى شرح بعض الكتب وتدريسها لأن طلاب العلم كانوا يمتحنون بها لأجل إعفائهم من التجند. ومنها أن مزاولة بعض تلك الكتب ضرورية للناظر في كتب المتقدمين وقد درسني المنطق وطرفاً من الحكمة في حين أنه كان يكتب رداً على المنطقيين وذلك لأن كتبنا مشحونة من اصطلاحات ذينك الفنين ومن لا تكون له خبرة بها يتعسر بل يتعذر عليه فهمها لا محالة. ومنها العذر الذي انتحله له حضرة السيد وهو أنه لم يجد في بغداد طلاباً مستعدين. وقد قدمنا أنه صار في أواخر أيامه لا يدرس أحداً ولا يجتبي تلميذاً ما لم يسبر غوره ويثق من نبله. ونحن نشكر لحضرة الأستاذ الجليل حسن ظنه بنا نفع الله به.

المؤلف

فقيدنا العلامة الألوسي

- بقلم الأستاذ محمد سعيد الباني -

ضاق - وايم العلم - ذرعي، وقض بي المضجع حينما فاجأني خطب فادح ألمّ بي ألمه بغتة قبل أن آوي إلى فراشي بينما كنت أتتبع «المقتبس» الغراء.

وحقيق بمثلي أن يرمضه ويؤرّقه أفول كوكب العلم البازغ في أفق العراق، الهاوي إلى بطن الثرى، عالم القطر بلا مراء صديقنا المرحوم (السيد محمود شكري الألوسيّ) تغمده الله برحمته ورضوانه، وأسكنه بُحْبُوحة جنانه.

ذلكم النابغة الماجد العصاميّ العظاميّ: العصامي بكده وجده واجتهاده، العظامي بأسرته العريقة بالعلم والفضل والمجد. وما أحسن المرءَ إذا أضاف إلى مجد النسب مجد النبل بالعلم والأخلاق والأدب، وما أقبح من أضاع مجد آبائه بجهله وسوء أخلاقه! ولا ريب أن العاطل من مجدي النسب والنبل أقل معرةً من المتمجد بالعظم الرميم وهو خالٍ من كل فضيلة من أنواع الفضائل التي ازدان بها فقيدنا العظيم.

ذلكم العلامة النابغة الأديب الناثر الشاعر، العليم بجوهر اللغة العربية وعلومها وآدابها، الخبير بأحوال العرب وأنساب أحيائها،

وضروب قبائلها وأخبارها، الفقيه بالشريعة الإسلامية ودقائقها وأسرارها، الضليع بالسنة المحمدية وطرقها وأسانيدها وآثارها، الجامع بين ما حكم به الشرع وبين ما يدركه العقل بتأييد السمع، وما أشد احتياجنا في هذا الوقت العصيب إلى رجال يؤيدون النقل بالعقل، ويوفقون بين الدين القويم وبين العلم النافع وفقاً لمقتضيات الزمان والعمران، أمثال فقيدنا النزيه عن الجمود، والحشو، والبدع، والخرافات التي تناقض العلم، وينبوعها العقل، وينبو منها الدين كما يبرأ الهدى من الضلال، والعلم من الجهل.

ذلكم المفضال الكريم اليد بما نمقته أنامله الكريمة، ودبّجته يراعته العسالة من الكتب والرسائل والفتاوي والمقالات والمؤلفات لا سيما كتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) المطبوع في دار السلام سنة 1314 هـ. ألّفه - نوّر الله ضريحه - تلبية لنداء لجنة الألسنة الشرقية المنعقدة في مدينة (استوكهولم) بدعوة (اسكار الثاني) ملك أسوج ونروج الشهير بتفانيه بمحبة العلم وأهله كما قال أستاذنا الشنقيطي الكبير الشهير واصفاً مآدبه بقوله: -

مآدب كل الناس للطعم وحده ... ومأدبتا (اسكار) للطعم والعلم
دعا دعوة للعلم عمت وخصصت ... فأضحى بها اسكار يعلو على النجم

فقد اقترحت هذه اللجنة على علماء الأمة العربية تصنيف كتاب يعرب عن أحوال العرب العرباء وأخبارهم وخصائصهم وسجاياهم وانقسامهم إلى شعوب وقبائل ونحو ذلك، فانبرى إلى إجابة هذا الاقتراح كثير من كتاب العرب ومتمكتبيهم - وما أكثر المتطفلين على موائد العلماء في ربوع تغلّب فيها الجهل على العلم: -

وعرض كل منهم بضاعته على سوق عكاظ تلكم اللجنة النقادة الخبيرة، ولدى نقدها جميع ما عرض عليها بمحك النظر المستقيم أدركت أن الذي أحرز قصب السبق في مضمار الإجادة هو كتاب (بلوغ

الأرب) الذي جاد به وأجاد أحد نوابغ العرب الذي أنشبت المنية أظفارها به هذه الآونة فاستحق الكتاب المدح والتقريظ كما نال كاتبه الجائزة مع التعظيم إذ بعث إليه الكنت (كرلودي لندبرج) في 4 يوليو سنة 1882 م برسالة تقدر المؤلَّف المجيد حق قدره، وتشكر مؤلِّفه المجيد. وما عداه من المؤلفين خسروا الصفقتين، عائدين بخفي حنين، لجهلهم بما تتوق إليه طبيعة علماء الاستشراق.

أسعدني سعود الطالع بالانتظام في سلك أصدقاء ذلكم الحبر الهمام منذ سبعة عشر عاماً وأنا في ريعان الشباب إذ عهد إلي ـ أجزل الله ثوابه ـ النظر بكتاب مخطوط في المكتبة الظاهرية لإتمام ما نقص في نسخته التي حاول إظهارها إلى عالم الطباعة وقد كان ذلك بنشره كتاب (تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة).

عهد إليّ بهذه الخدمة بواسطة تاجر عراقيّ الوالد، شاميّ الوالدة، فأديت المرام ـ بحمد الله تعالى ـ على غاية ما يرام، مع زيادة حواش وتعليقات لم تكن بالحسبان، فكافأني ـ رحمه الله ـ برسالة سداها الشكر ولحمتها التقدير خلع بها عليّ خلعة لا أستحقها لأنها أطول مني إذ كنت في مقتبل العمر، ولكنها دلت على فرط أدبه، وتواضعه، ورقة شمائله، وتقديره الفضل وأهله وتنشيطهم.

مضى وانقضى هذا العهد وصداقتنا غيبية إلى أن ابتسمت دمشقنا الفيحاء بقدوم علامة بغداد الزوراء في السنة الأولى من سني الحرب العامة، فابتهجت بقدومه الزاهر، وتشرفت بلقائه، فألفيت منه رجلاً عالماً، متخلقاً بأحسن الأخلاق، رقيق الشمائل، رحب المحيّا رفيع الأخلاق، عظيم التواضع. (وما أحلى التواضع من أرباب العظمة الحقة!).

تبادلنا الحديث بموضوعات شتى فامتدح مقالتي المنشورة في إحدى الصحف الشامية التي عنوانها (الاتجار بالدين) قائلا: ـ

إن عنوانها وحده يغني عن مضمونها بالإعجاب بها وتقديرها حق قدرها.

فاوضته في الشؤون السياسية فأجمع رأينا على النقمة على حكومة الترك، والرغبة باسترجاع مجد الأمة العربية، لكن لم يصرح كل منا بالدولة التي يعقد العرب آمالهم بمؤازرتها لبلوغ أمنيتهم وأن الحظ كلٌّ منا ما يكنّه ضمير رفيقه بما يبدو أثره على صفحات الوجه، أو من فلتات اللسان.

وقد خطر على بالي بمناسبة هذا المصاب بفقيد العالم الإسلامي عامة، والشعب العربيّ خاصة قول الشاعر:

يا أهل بغداد ويا من بها من فقهاء الناس أو شاعر
فاسترجعوا وأبكوا على دينكم واصطبروا فالأجر للصابر

فواحر دمعاه، ويا أسفاه، على هذا الحبر الجليل الذي تربطني به وشيجة الأدب، التي هي أقوى علاقة من لحمة النسب.

وأنني لا أقبح وجه الدهر كما قال أبو الطيب في رثاء عضد الدولة أبي شجاع، بل أتمثل بما ورد في الأخبار: أن الله تعالى يعجّل بالخيار.

أغدق الله على جدثه شآبيب الرحمة والغفران، وألهم آله وأصحابه الصبر والسلوان.

دمشق　　　　**محمد سعيد الباني**

الإمام السيد محمود شكري الألوسي

للباحث اللغوي الأب انستاس ماري الكرّملي

بعض مقالة مسبهة للأستاذ الباحث اللغوي صاحب التوقيع وصف فيها أولاً وقع نعي الفقيد في نفوس أهل بغداد وتشييع نعشه وصفاً دقيقاً، ثم ما عاناه قبل موته من الأمراض التي كانت سبب موته وقال: «كان في مرض موته لا يفتر عن البحث والكتابة على الأسئلة التي كان يبعث بها إليه غير بائح له بإشارة ولو طفيفة إلى حالته الخطرة ولا إلى مرضه». ثم وصف رسوخه في العلوم منها أنه كان إماماً في النحو واللغة والدين، **ثم وصف مبلغ زهده وورعه وعزوفه عن حطام الدنيا... فاقتطفنا منها ما يلي:**

كان الألوسي إماماً نحوياً... هدم بمعول تبحّره عدداً جماً من القواعد والضوابط (يريد القواعد العربية التي لم تبن على الاستقراء التام لكلام العرب) ثم ضرب بها عرض الحائط لأنه يبيّن ما فيها من الانحلال والفساد مستنداً فيما يقرّره إلى ما يحفظه من كلام الأقدمين وشعرهم ورواياتهم القديمة. إلا أن هذا الطود الراسخ في العلم لم يدوّن تلك الآراء في سِفر على ما أعهده، بَيْدَ أنه فاتحني بكثير منها في زياراتي العديدة له مدة ثلاثين عاماً، وكتب إليّ منها شيئاً غير نزر غير أن ثلاثة أرباع ما بعث به إليّ كتابةً غدا طعمة النار أو أتلف تمزيقاً وسحقا بالأرجل في سقوط بغداد، ولم يبق لي منه سوى ما يؤازي الربع، وهو في مواضيع شتى من لغة ونحو ووصف بلدان وتاريخ وأدب وتحقيق

أمور لم تعنّ على خاطر أحد من السلف. ولو طبع الآن ما أحرص عليه حرصي على أنفس كنز لبلغ مجلداً قائماً برأسه يناطح السماء برفيع فكره ودقيق تحقيقه.

على أن ما لا يدرك كله لا يترك جلّة، ونحن نورد لك هنا كلاماً من تحقيقه لتعلم منزلة الألوسيّ من التثبت، وتقف على أسرار ذلك الاستقصاء للبلوغ إلى قعرها.

وقع لي أنني رددت على أحد أدباء دمشق مبيناً فساد قول من يذهب إلى أن جمع مفعول لا يكسّر على مفاعيل سوى في ألفاظ معدودة وبعد أن أدرج نقدي **أحببت أن أستفتي الإمام في المسألة وطلبت إليه أن يذكر لي «أي الاثنين مصيب في كلامه» فكتب إليّ هذه السطور وأنا أوردها بحرفها:**

نظرت فيما كتبته على لفظ (المشاهير) راداً به على من أنكر هذه اللفظة من أدباء دمشق حيث حكم أنه لا يقال مشاهير إلخ فرأيتك قد وفيت له الكيل صاعاً بصاع، وألجمته بلجام الإسكات والإفحام، غير أن خصمك لا يذعن للحق إما لجهل أو لتجاهل. فإن لفظ مشاهير أشهر من نار على علم، واستعمال البلغاء لها قديماً وحديثاً لا يحيط به نطاق الحصر ولا سيما وجموع لغة العرب لا تدخل تحت قاعدة من القواعد وما ذكروه في هذا الباب إنما هو تقريب لا تحقيق فقولهم: كل ما جرى على الفعل من أسمى الفاعل والمفعول وأوله ميم فبابه التصحيح؛ فاعلم أن هذه القاعدة منقوصة بمئات من الكلمات منها: ملعون ومشئوم وميمون ومسلوخ ومكسور وميسور ومفطر ومنكر ومطفل ومرضع ومجنون ومملوك ومجذوب وموقوت وموعود (ومنه كانت مواعيد عرقوب إلخ) ومصروع ومخدوم ومضمون ومقدور ومعذول ومخنّث، ومسند ومسانيد ومرسل ومراسيل ومجموع ومجاميع ومكتوب ومكاتيب إلى غير ذلك مما لا يقوم به الإِحصاء. فهل يجوز الحكم على جميع ذلك بالشذوذ وهي تجمع على

مفاعيل ويستعمل هذا الجمع فصحاء الأمة العربية صيانةً لما ذكره بعض الأعاجم من القاعدة التي ما أنزل الله بها من سلطان. على أنه لو سلمنا أن هذه اللفظة من الشواذ عن قاعدتهم فلا يجوز الحكم بإنكارها وقد وردت في الحديث النبوي (لفظة المشابيب). فقول خصمكم: إنه ورد الحديث برواية أخرى وأن الدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال؛ مما يدلّ على مبلغ علمه في هذا المقام، فقد ذكر الأئمة أن غلبة الظن في هذا الباب تكفي، فكيف وقد وردت روايات متعددة في غالب ما استشهدوا به من الشعر العربيّ ولم يقل أحد من أئمة العربية إنه لا يصح التمسك بمثل ذلك لأن الدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال. وكل من ذكر هذه القاعدة استثنى ألفاظاً كثيرة منها. فانظر إلى البغية للسيوطيّ وما استثناه وهو كتاب ألفه على الكافية والشافية والألفية والشذور فإنه تعقب كثيراً من قواعدها وما أهمله أصحابها وهكذا شراح التسهيل استثنوا كثيراً من الكلمات من هذه القاعدة.

أفيقال: أن كل ذلك مع أن الشاذ ينحصر في كلمة أو كلمتين أو أكثر ثم إن الشاذ أقسام قسم منه موافق للاستعمال لا يعاب مستعمله فلو سلم أن لفظة المشاهير شاذة فلتكن من هذا القسم. ثم أن منهم منْ يقول إن لفظة المشاهير هي جمع شهير. وشهير لا يجمع جمع السلامة لما في كتب الصرف أن فعيلاً بمعنى مفعول لا يجمع جمع الصحيح فلا يقال جريحون ولا جريحات ليتميز عن فعل بمعنى فاعل. وقالوا: إنْ لم يكن متضمناً للآفات والمكاره التي يصاب بها الحي كالقتل وغيره لا يجمع على فعلي كجريح وقتيل وقتلى فالشهير ليس متضمناً للمكاره فحينئذٍ لا محذور إذا قلنا: وكذا إذا قلنا أن المشاهير جمع لكلمة مشتهر وهذا الجمع لهذا المفرد مما صرحوا به مع حذف بعض الزوائد فكيف ينكر استعمال لفظة المشاهير إذا ادّعى أنها جمع مشتهر؟

فهل وقف أحد على أنهم جمعوا المشتهر جمع سلامة فقالوا

مشتهرون؟ ما سمعنا ذلك من أحد قط فتبين مما ذكرناه أن قد حَكم على من أنكر استعمال هذه اللفظة قدح صحيح، وأن المخالف لكم فيه الحاكم بإنكار هذه الكلمة ليس له وجه وجيه».

انتهى المقصود من إيراده، فالألوسي من الطبقة الأولى بين النحاة، لأنه من المجتهدين فيه غير مقيد بالقيود التي قيَّد بها اللغة أولئك القتلة قتلة الأَحياء.

وإذا كان محمود شكري إماماً متبعاً في النحو فهو إمام أكبر في اللغة ومفرداتها. لا أعلم إذا كنتَ استقريتَ أعمال مدونيّ اللغة، فإنهم كثيراً ما ينقلون كلام من تقدمهم بنصّه وفصه وهم لا يشيرون إليه ولو من طرف خفيّ وكثيراً ما يوردون تعريف الأئمة السابقين لهم وهم لا يفهمون ما يقولون ولا يتصورون مؤدى اللفظ الذي يتوخون شرحه فهم من هذا القبيل عالة بعضهم على بعض. . . والذي يُعنى بتتبع بعض الحروف يقع على شيء جمّ تأخذ مبهماته بالأرواح وتكاد تخرجها من الصدور الهائمة وراء الحقيقة. سألته يوماً هذا السؤال: (قرأت الآن في التاج في مادة حبس «الحِبْسُ سوار من فضة يجعل في وسط القرام وهو ستر يجمع به ليضيء البيت» فما يريد بهذا الكلام؟ ولكم الفضل).

فكتب إليّ ما هذا حرفه:

«هذه عبارة لسان العرب أيضاً والقوم ينقل بعضهم عن بعض من دون أن يتصوروا المعنى، وإلاّ غيّروا ما نقلوه إلى عبارة تفصح عن المعنى المراد ولم يرتضوا أن يجري قلمهم بمثل هذه العبارات الركيكة والجمل المبهمة التي أضاعوا بها العلم وحرموا الناس فهم المراد. وتوضيح هذه العبارة: الحِبْس سوار من فضة وبعضهم يقول المحبس إلخ. أراد بالسوار الحلقة كما تكون حلقة من فضة تكون من نحاس وحديد وغير ذلك تجعل في وسط القرام وهو الستر وعوام بغداد يسمونه (بَرْدَة) توضع على الأبواب والشبابيك. وهذه الحلقة توضع في وسط

البردة وتدخل البردة فيها لتجتمع حتى يضيء البيت ويرتفع الظلام الحاصل من سَدْلها. والآن من الناس من يشد وسط البردة بخيط لتجتمع ويدخل الضوء البيت، ومنهم من يجعل وسطها حلقة، ومنهم من يدق بجنبها مسماراً فيعلق البردة فيه، ومنهم... ومنهم.... فحاصل المعنى أن الحبس حلقة يدخل فيها الستر إلى وسطه ليجتمع بواسطة هذا الحبس ولا يكون مانعاً من دخول الضوء إلى البيت إذ لو كانت الستور مسدولة على الأبواب والشبابيك يكون البيت المعلقة على منافذ الستور المذكورة مظلماً غير مضيء فإذا اجتمعت بواسطة دخولها في الحلقات أو شدّ أوساطها بخيوط أو بنحو ذلك أضاء البيت كما هو معلوم مشاهد للجميع» انتهى كلامه. فأنت ترى من هذا الكلام وضوحاً وجلاء لا تراه في أي معجم من معاجم الأقدمين والمحدثين، وفي دواوين العرب والمستعربين، لا بل إذا بحثت عن معناها نِعِمّت في كتب المتفرغين لهذه المباحث ترى فيها من الخبط والخلط ما يضحك الثكلى. وجمّ غفير من اللغويين المحدثين عرباً كانوا أو علُوجاً أغفلوا شرح اللفظة بهذا المعنى لأنهم لم يحصّلوا من كلام الأئمة الأوائل ما يصوّر لهم الشيء تصويراً يبيّنه لهم.

وقد اكتفيت بذكر شاهد من كلام الإمام المتبَّع إشارةً إلى نوع أسلوبه في تحقيق الحق وإزهاق الباطل وإجلاء المعاني وإظهارها بعبارات تمكن القارىء أيّاً كان من معرفة الشيء جدَّ المعرفة. وله مثل هذه التحقيقات أمثلة لا تحصى وقد اجتزأنا بما ذكرنا إثباتاً لما لأُستاذنا الكبير من المقام القصيّ في هذا المعنى.

وإذا كان للألوسي قدم راسخة في النحو والعلوم العربية واللغوية فقدمه أرسخ في الأمور الدينية. نشأ محمود شكري في بيت دين كان فيه للخرافات مقام ظاهر[1]. إنْ لم يكن كبيراً فلما ترعرع تأصلت تلك

---

(1) كذا وفىٰ حكم الأب هذا نظر ولا أكلفك أكثر من مراجعة ما قدمنا.

الخزعبلات في نفسه النشيطة إلا أنه لما خلا عن الأقران في إبان شبابه وطالع كتب الإمامين الشهيرين المجدّدَيْن تقي الدين ابن تيمية وتلميذه شمس الدين ابن القيّم نفض عنه غبار الجهل وإن شئتَ فسمّه غبار التقليد الأعمى أو الخرافات الرثة البالية، وسلَّ سيفاً جرازاً على كل من قال بها أو اتخذها حجةً على الصادقي الدين الآخذين بالكتاب والسنة. . .

إن صدق تديّن الأَلوسيّ يعرف من كتبه وأعماله: أما كتبه فكانت غارة شعواء على الخرافات المتأصلة في قلوب الجهلة والتقاليد الموهومة الخيالية التي لا نصيب لها من الدين، وقد شبَّ عليها القوم آخذيها من أناس لا دين لهم ولا أخلاق، وإن الأَلوسي اتخذ باروداً ناسفاً لإِزالة ما عمَّره بعض الأَغمار في نفوس القوم، فمؤلفاته: كتاب المنحة، وغاية الأماني، والسيوف المشرقة، وفتح المنان وغيرها من الأسفار الجليلة كلها من باب سوط عذاب لأولئك الجامدين.

وأما أعماله فهي أحسن شاهد على صدق تدينه: كان يقوم بالصلوات الخمس ويصوم رمضان صوماً لا يتساهل فيه، مع أن أولئك المفترين المشنعين المصلحين يظهرون الصوم في الخارج وإذا خَلَوْا إلى بيوتهم أكلوا وشربوا وتنعموا بالطيبات، وإذا خرجوا إلى خارج قطبّوا وجوههم وتظاهروا بالعبوس وقالوا لكل من رأوه «إني صائم»! فمثل هذه المرآة كان يكرهها الأَلوسي أشد الكراهية. وكان الأَلوسي غير متعصب بل كان في نهاية التساهل: المعممون البغداديون لا يقرّون بفضل غير المسلم مهما كان عالماً أو أديباً أو شاعراً أو لغوياً بخلاف الأُمام فإنه كان يجلّ كل من انتمى إلى العلم والأدب. . .! وكان يقوم بأوامر الدين ونواهيه كلما سنحت له الفرصة، وإذا رأى من خرّيجيه أو أصدقائه أو أحبائه بل إذا رأى من المنتمين إلى بيته أعمالاً تخالف أحكام الدين نبذهم نبذ النواة ونسيهم ماحياً ذكراهم من فكره كل المحو. . . فلاجرم

أن من يتصور أن فلاناً معادياً لله ويريد أن يبقى كذلك لا يستحق أن ينال المغفرة. **ومما دلّ على تدينه وزهده أنه كان يأكل فقط ما يسدّ به الرمق ومن الأكل البخس الثمن، وكان لا يلبس إلا الرث البالي وربما تزيّا بثياب لاتستره ستراً كافياً. ورأيته بعد الاحتلال يلبس حذاءً من أحذية جند الإنكليز وكانت تباع رخيصة، فقلت له: يامولاي! أراك تلبس في رجلك ما لم يرِدْ أن يلبسه جند الإنكليز أنفسهم لضخامة هذه الأحذية وشكلها الدميم وللجلبة تحدثها إذا ما سار بها المرءُ. قال: «إِني أقنع، بما بين يدي يقع» ولم يزد على هذا القدر.**

وكان وصل إلى حالة قاصية من الحاجة إلى المال في عهد الاحتلال لأن الأتراك كانوا قد أفقروا البلاد والعباد؛ فلما عرف ذلك **المعتمد السامي (برسي كوكس) أهداه ثلثمائة دينار ذهباً إنكليزياً وكلفني بتقديمها إليه، فلما أتيته بها رفض قبولها بتاتاً، وقال: «خير لي أن أموت جوعاً من أنْ آخذ مالاً لم أتعب في كسبه» فألححت عليه إِلحاحاً مملاّ مزعجاً فأبى وقال «لا تكثر من إِلحاحك لئلا أطردك من بيتي طرداً لا عودةَ إليه».**

إلا أن فاقته كانت وقراً عليّ وعلى محبيه، وطلب إليَّ بعض الأصدقاء أن أَجد له منصباً يثري منه. فتكلمت مع أولي الأمر وتمكنت من أن يعين قاضي قضاة المسلمين في العراق، فلما وقف على تنصيبه أبىٰ وقال لي: إن هذا المقام يستلزم علماً زاخراً وذمةً لا غبار عليها ووقوفاً تامّاً على الفقه وأنا لا أشعر بذلك ووجداني يحكم عليّ بأني غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضي قضاة المسلمين.

والخلاصة: كان الرجل آية في التواضع والفقر، كما كان آية في العلم والدين وعاش مع ذلك سعيداً بل أسعد الناس لأنه لم يكن يحتاج إلى أحد.

وكانت أيامه ثمانياً وستين سنةً لأنه ولد في 14 أيار سنة 1856 م، وتوفى عند ظهر نهار الخميس من شهر أيار سنة 1924 م. فرحمه الله ونفع الناس بتآليفه وحسن أعماله ومبّراته.

الأب أنستاس ماري الكرملي

الألوسي في نظر علماء الاستشراق

كتب صديقنا العالم المستشرق الإفرنسي الشهير لويز ماسنيون (L. Massignon) **فصلاً في تقريظ كتاب الضرائر أحد مؤلفات الفقيد التي عنينا بتوشيتها ونشرها ـ نشرته مجلة العالم الإسلامي: (Revue du Monde Musulman) واستطرد فيه إلى ترجمة الإمام فآثرنا إيراده بعد أن عرّبه لنا صديق حميم، وتصرفنا في تقديم الكلام وتأخيره على الوجه الذي تراه. وإليك: ـ**

«في 8 أيار 1924 توفي العالم البَحْر شكري الألوسي[1] البغدادي الشهير بأبحاثه التاريخية ومجادلاته الفقهية على أثر تسمم بالبول الدموي الذي آلمه إيلاماً شديداً مدة أشهر ولكنه مع ذلك كان يحقق نصّ كتاب الخيل لأبي عبيدة (لأجل أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا[2]) والآلام تشويه وتقليه وهو ينظر إليها نظراً فلسفياً ويتحملها تحملاً زَنُّونياً[3].

---

(1) الألوسي من أسرة شريفة تنتمي إلى الحسين وقد أقام الجد الأعلى في جزيرة ألوس في القرن الثالث عشر (م) وألوس قريبة من عانة على الفرات الأوسط (الكاتب).

(2) كان الأستاذ قد استنسخ كتاب الخيل من مكتبة عارف حكمة بك في المدينة ثم رأى أن يهدي لكل من هذين العالمين نسخة منه فكتبنا كلانا نسخة نسخة وأهدى هو نسخته إلى الأول وأهديت أنا نسختي إلى الثاني.

(3) زنون. فيلسوف يوناني اشتهر بمتانة الأخلاق وتحمل المصائب واقتحام العقبات.

وفوق هذا كله كان يصوم رمضان صياماً لا تخفيف فيه محافظة على الشعائر مما أوجب اندهاش ذوي صداقته وقرابته[1].

وقد أقيمت لذكرى فقده حفلتان تأبينيتان: أحدهما في بغداد (في 16 حزيران) في اليوم الأربعين من وفاته. وكان قد حضرها (350)[2] عيناً من أعيان بغداد في مقدمتهم مندوب عن الملك والوزراء وكبار العلماء، وافتتح الحفلة السيد محمد بهجة الأَثَري. والثانية جرت في دمشق (في 12 آب) وهذه الحفلة كانت مؤثرة للغاية لا سيما لأنها وقعت في اليوم الأربعيَن من وفاة الكاتب المصريّ الشهير المنفلوطي فازدوجت الذكريان معاً في يوم واحد بحضور عدّة ألوف من الأدباء!! وقد خطب فيها كُرْد عليّ رئيس المجمع العلمي، والشيخ بهجة البيطار، وعزّ الدين علم الدين (الذي قفل من بغداد) ونطقا بما أدهش الحضور[3]. وقد قرأ الشيخ البيطار تأبينين لعالمين من علماء بغداد كانا صديقي المرحوم الألوسيّ وهما: الأب أنستاس ماري الكرملي العالم اللغوي من مبعث الكرمليين في العراق (صاحب مجلتي: لغة العرب، ودار السلام). والشيخ محمد بهجة الأَثَرِيّ.

هكذا غاب الألوسي عن الأنظار، وذلك قبل أشهر من فوز الوهابية[4] التي كان عليها اعتماده في إنعاش الإسلام وعودته إلى مظهره الجديد في سالف الأعصار.



---

(1) أقول: ولما مرض في أواخر رمضان أفطر.

(2) بل كان عدد الحاضرين يزيد على ألف وخمسمائة نسمة.

(3) راجع مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية عن سنة 1924 (الكاتب).

(4) راجع مجلة العالم الإسلامي الأفرنسية في م 36 ص 320 وما يليها (الكاتب).

(5) وكذلك كان على هذا الرأي صديقه جمال الدين القاسمي الدمشقي (الكاتب).

ووهابية شكري الألوسي[1] نشأت عن ولعه بإنقاذ الاسلام من الأخطار الدنيوية والبدع المريبة المستحدثة في الأيام الأخيرة. وكان كسائر السلفيين يحب شخصياً حركة المذهب الحنبلي الجديد التي تشاهد في ديار نجد.

ولقد أظهر لجميع أصحاب الحكم في العراق على اختلاف أنواعهم من الأنفة والإباء[2] ما لا ينكره أحد سواء كان أولئك الحكام تركاً أو إنكليزاً أو هاشميين وآباؤه هذا الفذ جلب إليه جميع الأنظار واستحق له شرفاً مزدوجاً **الأول**: أن الحكومة العثمانية نفته لأجل ذلك إلى الموصل نفياً قصيراً (إلى سنة 1902). **الثاني**: لما أحدق الخطر بالإسلام سنة 1915 استدعته الحكومة العثمانية ليعمل لأجل الوحدة الإسلامية فأجابهم وذهب برغم شيخوخته إلى بلاد العرب الوسطى وبذل كل ماله من التأثير والمنزلة لبلوغ أربه ذاباً عن بيضة الإسلام الخطر الذي تهددها ومحارباً الأصفر الرنان الذي يبذله الإنكليز.



وكان شكري الألوسي يبطن تحت مظهر خشن وعنجهية بدويّة إخلاصاً ومودة لا يجاريان لأصدقائه وخلطائه، وكاتب هذه السطور قد شعر بهذه المناقب السامية في سنة 1907 ـ 1908 حينما كان في خطر الموت[3] وكان قد بدأ يعقد عرا الصداقة المحكمة بين هذا الصديق وبين ابن عمه علي بن نعمان الألوسي، وكانت تلك الصداقة مبنية على تفاهم

---

(1) رفض في سنة 1921 منصب قاضي القضاة في العراق «الكاتب».

(2) يشير إلى مواساة الفقيد أباه يوم مرض في بغداد مرضاً مريباً.

(3) كان قاضي الحنفية في بعلبك وعين نائباً عن بغداد في مجلس النواب سنة 1908 ـ 1911 وعين قاضياً لبغداد في سنة 1919 وتوفاه الله في 7 كانون الثاني 1922 «الكاتب».

تفاهم في العقليات ولقد حاياها بمراسلة بقيت حتى وفاتهما. ولا أزل أقر بفضل الألوسيين على ما تفضلا عليّ من الإفادات الجليّ والنصائح الكبرى والوثائق التي كانا يحوّلاني عليها للوقوف على ما جاء في كتب القوم عن الحلاّج ذيّالك الصوفي البغدادي الشهير. ولقد وجدت في النصوص التي عثرت عليها رجلاً كان معجباً بالصوفي وهو ابن عقيل ذلك الحنبلي الصرف مع أن مذهبه كان يعدل به إلى أن لا يحوْل نظره إليه، وكان الألوسي موافقاً لابن عقيل المذكور وإن كان يعتبر العدول الذي أوجب على ابن عقيل كلا عدول، وانتهى الأمر بالألوسي أن قال في الآخر بقول صديقه أمير بهوبال[1] صديق خان مصرحاً بأن القضاء الذي حكم عليه كان شديداً[2] (في التاج المكلّل).

❀ ❀ ❀

ومن مؤلفات الألوسي في (التاريخ) بلوغ الأرب في أحوال العرب «في 3 مجلدات. بغداد سنة 1314 هـ وقد أعيد طبعه حديثاً» ـ أخبار بغداد «في 3 مجلدات وهو مخطوط وعندي منه قطعة تتعلق بمساجد بغداد» ـ المسك الأذفر[3] ـ رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين. وفيه ذكر علماء بغداد الذين عاشوا في القرن التاسع عشر (في مجلدين مخطوطين[4]).

وله في الأدب: كتاب الضرائر للشاعر دون الناثر. يبحث عن

---

(1) لم يكن الأستاذ صديق الأمير بل عمه السيد نعمان الألوسي.

(2) كنت يوماً في مجلس من مجالس الأستاذ جرى فيه ذكر الحلاّج فذكرت قول الأمير صديق خان فقال: هل لك أن تأتيني به لأبعث به إلى لويز ماسينون عاشق الحلاج؟

(3) هذا هو الجزء الثالث من أخبار بغداد وهو الذي ذكر فيه علماء العراق لا كتاب مراسلات المناظرين.

(4) راجع مقالاته في الزوراء قبل ثلاثين سنة «الكاتب».

الضرائر الشعرية التي يرتكبها الشعراء في نظمهم، ولقد سعى في نشره تلميذه محمد بهجة الأثري الذي عُني بتوشية كتاب الصُّولى. وهذا الكتاب آخر مؤلَّف رآه المؤلِّف في حياته مطبوعاً. وله كتاب أمثال العوام في مدينة السلام. وهو مخطوط.

وله في العلم الديني والفقه كتاب ما دلّ عليه القرآن من الهيئة الجديدة (واتفاق ما ورد في المصحف من أنباء علم الفلك الحديث وهو خط). وكتاب عقوبات العرب في الجاهلية وهو خط[1].

وله في المجادلات عدة كتب تدل على نقد شديد ينتقد فيها الشيعة والرفاعيين ويحبب للمسلمين المذهب الحنبليّ على الطريقة الحديثة (وهي المعروفة عندنا باسم الشبيه بالوهابية)، والفقْهَ على الطريقة المذكورة؛ وقد نشر كل هذا باسم مستعار[2]؛ ولا سيما في كتابه الذي أسماه **(غاية الأماني في الرد على النبهاني)** وقد أظهره باسم أبي المعالي السلامي. طبع في القاهرة سنة 1327 هـ في مجلدين...

لويز ماسنيون

---

(1) نشرته بعد وفاته في جريدة العراق.

(2) لم ينشر باسم مستعار إلا غاية الأماني.

المصاب بالألُوسي

للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

إن مصاب العلم والأدب والفضل بإمامها الكبير، ومعلي منارها الخطير، وحامل لوائها الشهير، العلامة المأسوف عليه، والفهامة المعتمد عليه والبحَّاثة المنظور إليه، هو مصاب الشرق بأجمعه، ومصرع الغرب بمصرعه، من مغرب العلم إلى مطلعه.

فلا عجب إذا أدلهمّ النهار، وتفجعت الآثار، وتحيرت الأفكار، وجفّت الأقلام، وناحت الأنام، وبكته الأعلام، فإن لمثله يحق البكاء، وبه يجدر الرثاء وعلى فقده يحرم الهناء.

فلا يظن العراق مهد العلوم، وملاذ المعقول والمفهوم، ومطلع المنثور والمنظوم، أنه قد انفرد بمصابه، ومُني وحده بأليم انتحابه، وفقده إمام مريديه وأحبابه، بل إن الشام قد نابته الآلام، وعرته الأسقام، فهو يشاطر شقيقَه أحزانه، ويكون في المصاب ممن أعانه، وبكى فقيده مقرحاً عليه أجفانه.

ولا نحسب بعض الأدباء قد عرفوا مكانة الفقيد، وأنه بين علمائهم وجهابذتهم بيت القصيد، وأعظم مؤازر وغيور وعميد، ولكننا نَثِقُ إن كثيرين قد عرفوا مقامه، وجرعوا من الحزن الشديد عليه جامه، وأقروا له بالإمامة.

فالشرق مبتلى بداء الإهمال، وإحباط الأعمال، وتكثير الأقوال، إذْ هو في مقدّمة المتخاذلين، والمتحاسدين المتواكلين، والجاهلين المتجاهلين، فهو ينكر كثيراً فضل نجبائه، ويقصّر في تكريم أحبائه، وينوءُ من الجهل تحت أعبائه، أفما حان له أن يفيق من هذا السبات العميق، وينظر بعين التدقيق والتحقيق، إلى ما فيه الإقرار بجميل الرفيق؟

فالعلماء الأعلام الذين نبغوا بين الأَنام، مثل هذا الإِمام، هم قليلون اليوم على كثرة العدَد، وما يجهزونه من العُدَد، وما يُضْمَرُ من الغلّ والحسد.

فعلى من فَقَدْنا السلام، راجين له حسن المقام، وخير الثواب من رب الأنام.

قَمْ أيها الفقيد في ضريحك المحبوب، الذي نكلّله بحبات القلوب، ونضمِّخهُ من طيب آثارك بأعطر الطيوب، وثق أن كثيراً من مريديك، وعدداً غير قليل من محبيك، لا يزالون يفتخرون فيك؛ فإن كنت قد غبت عنهم بالجسم، فقد أحياك الفضل والعلم. وخلدك الذكاء والفهم.

فعليك يهب بليل النسمات، بأطيب النفحات، في نواضر الجنات، ويجود ضريحك شُؤبوب الرحمة، ويتعهدك الإلّه بوافر النعمة، ويسمعك من ألحان الرضى أطيب نغمة، فكن قرير المقلتين في النعيم، جزيل الثواب العظيم، وهذا خير عزاء لنا في مصابك الأليم.

(دمشق) 12 أيار 1924 **عيسى إسكندر المعلوف**

الألوسي في نظر التاريخ[1]

كلمة المؤرخ: عباس العزاوي

بعض خطبة لصاحب التوقيع وصف تأثير الألوسيين على سير العلم ببغداد ومناهضتهم للرأي العام الضالّ سواء في الدين أو العلم أو الأخلاق، ومجاهرتهم بفتح باب الاجتهاد الذي أغلقه جمود المتأخرين قبل أن يجاهر به الشيخ محمد عبده وغيره. ثم أتى على بيان فضائل الأستاذ الفقيد فقال: -

أيها السادة: إن أستاذنا الفقيد يمتاز بصفات أخرى زيادة توارثه آبائه وأجداده الكرام. هي أنه قام بها بمقياس أوسع، وبذلك أوضح محجتهم ورفع الخفاء عنها.. فمن فضائله خدماته التاريخية وإن كتابه بلوغ الأَرب في أحوال العرب الذي حاز قصب السبق في مضمار لجنة الألسن الشرقية في استكهولم معروف ومشهور. وكذا تاريخه المسك الأذفر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر فإن في خلاله وقائع تاريخية مهمة تتعلّق بقطرنا عدا سير الأشخاص والأسر ويقال في كتابيه تاريخ نجد ومساجد بغداد ما قيل في بلوغ الأرب والمسك الأذفر. وهذه التتبعات التاريخية ليستَ بالأمر السهل. ومع هذا فإنها خير واسطة

---

(1) تليت في حفلة التأبين الأربعينية ببغداد.

لمعرفة الحياة العلمية والأدبية والانتقادية مما لا يكاد يعثر عليه في سواها.

ومن فضائله إحياء الكتب الدينية ونشر مذهب السلف فإن له يداً طولى في إذاعتها ونشرها. وكان يعتقد أن مذهب السلف هو الواسطة الوحيدة لتحرير العقول من رق التعصب الذميم وعدم مراعاة الدليل، ولم يكن ليحبّ التبجح والافتخار كما هو شأن التجار وإنما يرمي إلى الحصول على الغرض ولا يهمه ذكر أو لم يذكر. وكذا يقال عن إحيائه كتب الأدب واللغة وكل ما له مساس بالآداب العربية، وتعداد هذه الجهات وإيراد الأمثلة الكثيرة عليها مما لا يسعه المقام وغاية ما يقال أنه سعى ولم يدخر وسعاً في التنقيب والنشر.

ومن فضائله أصول تدريسه. فإنه لا يقلّ فائدة عن الأمور المتقدمة. فإذا كان الأستاذ المرحوم الحاج عليّ الألوسي محبوباً في الإلقاء والتلقين والإفهام بصورة لا تدع ريباً لمستريب، فإن الأستاذ الفقيد لا يقلّ عنه في ذلك بل هو أوسع مادة وأغزر علماً وأكثر تحقيقاً ومن أراد التزوّد فإليه يفزع.

ومن فضائله أخلاقه ويندمج فيها زهده وورعه. فالأخلاق الفاضلة الإسلامية وإن كانت واجباً ينبغي لكل مسلم أن يتصف بها إلا أن الاتصاف بها أصبح نادراً والتهاون بها كبيراً لذلك صرنا نطري من اتصف بها وإن كان الواجب أن يتصف بها الكل. فالأستاذ الفقيد ممثل للأخلاق الإسلامية السامية في عصورها الأولى من زهد وورع وقناعة مع جدّ وعمل صالح وبرّ ومعروف... وصفوة القول أن الأستاذ لم يتصف بما اتصف به متصوفة هذا الزمن الذين اتخذوا الطمع رائدهم والكسل منهجهم وإماتة النفوس ديدنهم لذا نراه يصل الرحم ويعود المريض ويغضب للحق ويصاحب للدين ويعمل لخير المسلمين، وفي سبيل الحق والمجاهرة بالمبادىء الإسلامية الحقة لقي العناء والعذاب كسائر نحارير

العائلة كالسيد محمود شهاب الدين، ونعمان خير الدين، وعليّ علاء الدين. ولم يكن ليثبط عزمه تقول المتقولين ولا إغراء العوام ولا الانتقاد الذي لم يؤيده برهان وعلى كل حال فإننا:

فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من سادتنا بألوف

ثم قال: -

والحاصل أن هذه العائلة منذ نشأت في بغداد منذ قرنين تقريباً إلى يومنا هذا خدمت الحرية الفكرية والوجدانية ودافعت عن المبادىء الحقة واتخذت الوسائل للنهضة العلمية والدينية وفي ضمنها الوطنية العربية، وقامت بأمور ضد ما عرض للديانة الإسلامية الغراء من الجمود والخمول، ولكن الأستاذ الفقيد إمام الكل والصادع الأعظم بالحق ولصيحته دويّ هائل، وهو أكبر من بث روح النهضة سواء في الوطنية العربية البحتة أو في المبادىء الإسلامية الفاضلة فهو أهل لأن يدعي (بالمصلح العربي الكبير).

هذا ولا محل لتعداد كل فضائل الأستاذ وإنما اقتصرت على الإشارة. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ونفع بعلومه آمين.

المحامي عباس العزاوي



القصائد



قصيدة معروف الرصافي

- 3 -

واشيخاه[1]!

أزمعت عنّا إلى مولاك ترحالا ... لما رأيت مناخ القوم أوحالا
رأيتنا في ظلام ليس يعقبه ... صبح فشمَّرت للترحال أذيالا
كرهت طول مقام بين أظهرنا ... بحيث تبصرنا للحق خُذّالا
ولم تَرُقْ نفسك الدنيا ونحن بها ... لسنا نؤكدّ بالأفعال أقوالا
وكيف تحلو لذي علم إقامته ... في معشر صحبوا الأيام جهّالا
لذاك كنت أعتزلت القوم منفرداً ... حتى أقاربك الأدْنَين والآلا
وما ركنت إلى الدنيا وزخرفها ... ولا أردت بها جاها ولا مالا
لكن سلكت طريق العلم مجتهداً ... تهدي به من جميع الناس ضلاّلا
(مَحْمُودَ شُكْرِي) فقدنا منك حبر هدى ... للمشكلات يحسن الرأي حلاّلا
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلاً ... إذا تقسَّم فيها كان أجبالا
وبحر علم إذا جاشت غواربه ... تقاذف الدرّ في لُجَيْهِ مُنْهالا
يا من بشوال قد شالت نعامته ... نغّصت بالحزن شهر العيد شوالا
أَعظم برزئك في الأيام من حدث ... هزت علي به الأيام عسّالا

(1) أنشدت في دار الإمام الفقيد.

أمست لروعته الأبصار شاخصة أما القلوب فقد أجفلن إجفالا
طاشتْ حصاة العلى لما نعيت لها وكلّ ميزان علم بالأسى شالا[1]
إذا نعيّك وافى (مصر) منتشراً جثا (أبو الهول) يشكو منه أهوالا
وإنْ أتى البيتَ (بيتَ الله) رجَّ به وأوجس (الركن) من منعاك زلزالا
أمّا (العراق) فأمسى (الرافدانِ[2]) به سَطرَيْنِ للدمع في خدَّيه قد سالا
بكى الورى منك حبراً لا مثيل له أقواله ضُرِبت في العلم أمثالا
بكوك حتى قد احمرَّت مدامعهم كأنّهم نضحوا فيهنّ جِرْيالا[3]
ولو لفظنا لك الأرواح من كَمَدٍ لم نقضِ من حقك المفروض مثقالا
ولا نخصّص في رزءٍ بتعزيةٍ إلا علوماً أضاعت منك مفضالا
فإن رزءَك عمّ الناس قاطبةً يا أكرم الناس أعماما وأخوالا
شكراً لأقلامك اللآئي كشفت بها عن أوجه العلم أستاراً وأسدالا
كتبن في العلم أسفاراً سيدرسها أهل البسيطة أجيالا فأجيالا
أمددتها بمدادٍ ليس يعقبه دمع الأنام وإنْ يبكوك أحوالا
وكنت أنت نطاسيّ العلوم بها وكنَّ في سَبْر جرح الجهلِ أميالا[4]
يا مطلعاً في سماءِ الفكر أنجمه تهدي إلى العلم رحّالاً وقفّالا
لو إنني بلغتْ زهر النجوم يدي نحتّها لك بعد الموت تمثالا
ما ضرَّ من بعد ما خلَّدت من كتب أنْ لا نرى لك بين الناس أنجالا
إذا ذكرناك يوماً في محافلنا قمنا لذكراك تعظيماً وإجلالا
إني أخفّ لدى ذكراك مضطرباً وإنْ حملت من الأحزان أثقالا
لأشكرنك يا (شكْري) مدىٰ عمري وأبكينّك أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذي لقَّنتني حكماً بها اكتسبت من الآداب سربالا

---

(1) الحصاة: العقل والرأي. والطيش: ذهاب العقل.

(2) دجلة والفرات.

(3) أي صبغا أحمر.

(4) النطاسي: العالم والسبر: امتحان غور الجرح وغيره.

أو جرتني من فنون العلم أدوية شفت من الجهل داءً كان قتالا[1]
فصحَّ عقلي وقبلاً كنت مشتكياً من علّة الجهل أوجاعاً وأوجالا
أنا المقصّر عن نعماك أشكرها ولو ملأت عليك الدهرَ إعوالا
فاغفر عليك سلام الله ما طلعت شمس وما ضاءَ بدر الليل أو لألا

معروف الرصافيّ

(1) أوجره الدواء: سقاه إياه.

واحر قلباه![1]

كلمة العلامة: محمد بهجة الأثري

أتيت بالعيد أَهْني العيد شوّالا ... والظن أنك قد أبللت إبلالا

فعدت والقلب ملتاع بلوعته ... والعين ترسل فيض الدمع إرسالا

فوالدهري! أما يكفيه ما فعلت ... صروفه فيّ حتى كرَّ صيّالا

بالأمس صاح بإِخواني فأخمدهم ... واليوم صال الأُستاذ فاغتالا

يا راحلاً جدَّد الأَحزان مصرعه ... نغصت عيشي وزدت البال بلبالا

قد كنت بّراً لا تنثني حدباً ... فمالك اليوم تجفو الصحب والآلا؟

سئمت منافا زمعتَ السرى عجلاً؟ ... أم قد رأيت مصير القوم ممحالا؟

أم لم يرقك مقام بين أظهرنا ... لما رأيتَ رعاء الشاء أحطالا؟

عليهم من جلود الشاء أردية ... يخادعُون بها الأَغنام خُتّالا

آلت إليهم مقاليد الأمور وهم ... لا يرقبون سوى أحوالهم حالا!

بالأمس كانت إلى جنكيزَ نسبتهم ... واليوم صاروا إلى قحطان أنجالا

حال لعمرك تبكي كل ذي بصر ... وتذهل العاقل الفكّير إذهالا

باسم العروبة قد باعوا مواطننا ... وحملونا على الأثقال أثقالا

وأرهقونا على الإِذلال إذلالا ... وطوَّقونا على الأغلال أغلالا

❀ ❀ ❀

---

(1) أنشدت في حفلة تأبين بغداد.

يا نائياً عن ديار ودَّ ساكنها ... لو كان يزمع عنها اليوم ترحالا

رحلتَ فانصَّبت الأحزان زاخرة ... عليَّ حتى بها سربلت سِربالا

حاستكَّ سمعيَ وانشقّ الفؤاد أَسىً ... وكدت لولا الأُسى أتلوك إرقالا[1]

مَنْ ذا يمرُّ أنيني في مسامعه ... ولا ترى دمعه كالقطر منهالا؟

ما بعد يومك قلب لم يذب كمداً ... وأيّ جفن بفيض الدمع ماسالا

دوى نعيّك في الأقطار فاضطربت ... وضجَّ من هوله السكّان إعوالا

ففي (العراق) حزين لا قرار له ... وفي (الشآم) كئيب أفقد البالا

وفي (الجزيرة) مفجوع أخوشَجَن ... بادٍ وفي (مصر) باكٍ ذاق وَلْوالا[2]

لا غررَ إمَّا بكاك الناس قاطبة ... أو أوجسوا من أليم الخطب جِئْلالا[3]

فأنت أنت الذي جيد العلوم به ... زها وقد كان منها الجيد مِعْطالا

وأنت أنت الذي قد كان «منتظراً» ... فكم «هديتَ» إلى الإسلام ضُلاّلا

وأنت أنت الذي من بأسه ارتعدت ... فرائص الكفر تشكو الدهر أوجالا

وأنت أنت الذي دانت لهيبته ... قبائل العرب أذواءً وأقيالا[4]

قد خفت ربك في سر وفي علن ... فخافك الدهرَ من مأوىٰ ومن مالا[5]

وكم أمامك قد ولّى ذوو شبه ... كما تولى جبان راءَ رئبالا[6]

وما وكنت إلى غير العلوم ولا ... دنستَ عرضاً ولا جمّعت أموالا

---

(1) استك السمع: وأسى الأولى بفتح الهمزة. والثانية بضمها جمع أسوة وهي ما يأتي به الحزين.

(2) الولوال: البلبال.

(3) الجئلال: الفزع.

(4) الأذواء ملوك اليمن الذين أسماهم ذو رعين وذو كلاع وذو يزن. والأقيال: ملوك حمير.

(5) أي: من شك في الحق ومال عنه.

(6) راء: بوزن راع والأصل رأى قدم الألف وأخر الهمزة ضرورة. قال أبو الطيب المتنبي:

كيف ترثي التي ترى كل جفن ... راءها غير جفنها غير راقي

والرئبان: الأسد.

وراودتك ذِهِ الدنيا بزينتها ... فانصعت عنها وما دنّست أذيالا[1]
بتتّها وكفيت النفس غائلها ... فعشت ما عشت فيها ناعما بالا
وقد عجمت بني الدنيا بأجمعهم ... عجماً فأجفلت منهم بعدُ إجفالا[2]
فعشت منفرداً من غير صاحبة ... تستّت الهم أو توليك إجمالا
مضيتَ من بعد ما أحييت من سنن ... دُرْس وبددتَ في الأعناق أغلالا
وطار صيتك في الآفاق قاطبةً ... حتى به ضربوا للناس أمثالا
إن الآلى حسداً كادوك أو سفهاً ... ساؤوا لعمرك عند الله أعمالا
تبّاً لهم من شياطين مسلّطة ... عاشوا مدى الدهر ضُلاّلاً وجُهّالا
عاشوا نشاوىٰ بخمر الجهل تحسبهم ... ـ وهم يجرون ذيلَ الأزر ـ أبدالا
ليسوا من الدين في شيء وإن سجدوا ... أو سبحوا الله أبكاراً وآصالا
إن يسمعوا رنة الدينار مضطرباً ... خرّوا سجوداً إلى الأذقان إجلالا
فهم بما قدموا من موبقاتِهِم ... ساؤوا النبيُّ ساؤوا الصحب والآلا
أما الإمام فقد أولاه صالحة ... وناله ربه من لطفه نالا

❀ ❀ ❀

يا شامتا راح مسروراً بمصرعه ... مهلا فلم يعدم الرئبالُ أشبالا
إن كنت تفرح من فقدان سيدنا ... فسوف تلقى من الأشبال أهوالا
إذا اليراعة هزتها يدي رعفت ... سما زعافا يهرّي الجسم أوصالا
وإنْ لسانيَ يوماً كان منصلتاً ... حسبته صارماً يهتزّ عسّالا

❀ ❀ ❀

ما أنسَ لا أنسَ[3] أياماً بصحبته ... حَلَتْ، فمرّت وساءت بعد أحوالا
صحبتُ (شكري) من الأعوام أربعة ... حتى بلغتُ به في العلم آمالا

---

(1) أنصاع: انفتل راجعاً مسرعاً.
(2) عجمه: بلاده واختبره.
(3) «ما» شرطية: و«أنس» فعل الشرط، و«لا أنس» جوابه: والمعنى: أن نسيت شيئاً لا أنس كذا.

لـولاه لـولاه لـم أدرك بـلـوغَ مـنـى ... والبـدر لـولا سنـاء الشمس ما لالا
إنـي لأبـكـيـه مـا نـاحـت مـرزأة ... ثـكـلـى تـرنّ مـدى الأيـام إعـوالا
لـو وجّه الناس منهـم نـحـوه حزناً ... إزاء حـزنـيَ مـا سـاووه مـثـقـالا
يا عـين لا تـرقئي من واكـف غـدق ... يا عـين سحّي عليه الـدمع هطّالا
بـات الـخـليّ عـلى وجـدي يفنّدني ... لـم يـدر أيّ عـظـيـم ويـحـه زالا
جلّ المصاب وإنْ أحزن فلا عجب ... إنـا فـقـدنـا إمـامـاً كـان مـفـضـالا
مـا راعـني الـدهـرُ إلا يـومـه ولـكـم ... جـرى سـواه ومـا قـد راع أو هـالا
قـد كـان حصناً حصيناً لـي ألـوذ بـه ... فـصـرت فـي حـرة جـرداء حـلالا

❀ ❀ ❀

بغدادُ قد أقفرت من بعد مصرعه ... فقلقل الراكب عن بغداد إهبالا(1)
يا (بَهْجُ) أزمع إلى مصر فلست ترى ... بـعـد الإمـام بـهـا مـاءً ولا آلا
هذي المدارس أضحت وهي باكية ... من بعد شيخ بني الآداب أطلالا
زُمَّ الـمـطـيَّ ودع بـغـدادَ مـوحـشـة ... إنـي أرى فـي عـريـن الـلـيـث ذيّـالا

❀ ❀ ❀

يـا سـيـداً آثـر الأخـرى فـفـاز بـهـا ... وسـار عـجـبـاً بـهـا لله مـخـتـالا
إن بِنْتَ عنا فلم تبرح بخاطرنا ... كـأنـمـا فـيـه قـد صـورت تـمـثـالا
أو ضمّك القبر في أثرائه فلقد ... نـشـرت مـن غـرر الآثـار أزوالا
لو يعلم القبر مَنْ وارىٰ لتاه على ... ما حوله من قبور الناس إدلالا
فاذهب عليك سلام الله في دعةٍ ... ما أشرق البدر في الظلماء أولالا
وجـاد قـبـرك غـيـث مـسـبـل غـدق ... دانٍ مُسِفٌّ يسح المزنَ إهضالا(2)

25 شوال سنة 1342 ... **محمد بهجة الأثري**

---

(1) أهبل إهبالا: أسرع.

(2) أهضاب السماء أهضالا: سحت بمطرها.

في موقف الأسى

للشاعر معروف الرصافي

لمن تركتَ فنون العلم والأدب؟ أما خشيتَ عليها من يد العطب؟
تلك المدارس قد أوحشتها فغدت خلواً من الدرس والطلاّب والكتب
ما إن تركت لها في العلم من وطر ولا لمنتابها في الدرس من أرَب!
إنَّ (الألوسيَّ محموداً) عرته لَدُنْ لاقاك (محمود شكري) خفَّة الطرب
فاعتز لابنٍ أبٌ في قبره وغدا يُبدي الحفاوة خير ابن لخير أب
بحرين في العلم عجّاجين قد ثُويا فانصبّ مضطرب في جنبٍ مضطرب
من فخر أزماننا في العلم أنهما علاّمتا هذه الأزمان والحقب
عليك (شكري) غدتَ شكرَى مدامعنا تكفيك أدمعها السقيا من السحب
ما كنت فخر (الألوسيّين) وحدَهُمُ بل كلّ من ساد من صُيّابة العرب[1]
ولا رزأت النُهى والعلم وحدهما بل قد رزأت صميم المجد والحسب
ولم يخصَّ الأَسى داراً نُعيتَ بها بل عم مبتعداً من بعد مقترب
من (العراق) إلى (نجد) إلى (يمن) إلى (الحجاز) إلى (مصر) إلى (حلب)
لقد ترحلت في يوم بنا انقلبت حوادث الدهر فيه شرّ منقلب
حتى تقدم ما في القوم من ذَنَب فصار رأساً وصار الرأس في الذنب

(1) الصياب والصيابة بضمهما ويخففان: الخالص والصميم والأصل والخيار من الشيء (القاموس).

وبات يحسو الطِّلا بالكأس من ذهب ... من كان يشرب رنق الماء بالعلب
فاذهب نجوت رعاك الله من زمن ... من عاش فيه دعا بالويل والحربِ
تستثقل الصدق فيه أذن سامعه ... وتطرب القوم فيه رنَة الكذب
والخير قد ضاع حتى إن طالبه ... لم يلق منه سوى المسطور في الكتب
أما الرجال فنار الشر موقدة ... فيهم وهم بين نفّاخ ومحتطب
أفعالهم لم تكن جداً ولا لعبا ... لكن تراوغ بين الجد واللعب
إذا جلست إليهم في مجالسهم ... تلقى القوارص فيها ذات مصطخَب
أرقى الصحائف فيما عندهم أدباً ... ما شذَّ منها بهم عن خطة الأدب
قد يربطون لشتم المرء صاحبه ... كأنما الشتْم مدعاة إلى الطرب
ويستلذون من قوم سبابهم ... كما استلذَّ بحك الجلد ذو جرب
لا يغضبون لأمر عم باطله ... كأنهم غير مخلوقين من عصب
وليس تندى من النكراء أوجههم ... كأنما القوم منجورون من خشب

❀ ❀ ❀

يا راحلاً ترك الآماق سائلة ... يذرفن منسكباً في إثْر منسكب
أجبت داعيَ موت حُمَّ عن قدر ... وأيّ نفس لداعي الموت لم تجب؟
والناس أسرى المنايا في حياتهم ... من فاته السيف منهم مات بالوصب
هذي جيوش الردى في الناس زاحفة ... لكنهن بلا نقع ولا لَجب
بين الدواء وبين الداء معترك ... فيه قضى ربنا للداء بالغَلَب
والناس فيه عتاد للحِمام فلا ... ينجون من عطب إلاّ إلى عطب
وإن للموت أسباباً يسبِّبها ... مَنْ سدَّ كل طريق عنه للهرب
لا يخلق الله مخلوقاً يجول به ... دم الحياة بلا أمّ له وأب
ولا يميتُ بلا داءٍ ولا سقَم ... ولا يُعيش بلا كدّ ولا تعب
وليس ذلك من عجز بخالقنا ... عن أن يزجّ بنا في قبضة الشَجَب
لكنه جعل الدنيا مسببة ... لكل أمر بها لا بدّ من سبب

❀ ❀ ❀

يا من إذا ما ذكرناه تقوم له ... على الأخامص أو نجثو على الركب

لقد تركت يتيم العلم منتحباً ... والكتب راثية منه لمنتحب

إن كنت في هذه الدنيا لمنقطعاً ... إليه عن كل موروث ومكتسب

أعرضت عنها مُشيحاً غير ملتفتٍ ... إلى المناصب فيها أوْ إلى الرتب

أُولعت بالعلم تنميه وتجمعه ... منذ الشباب وما أولعت بالنشب

فعشت دهراً حليف العلم تنصره ... حتى قضيت فقيد العلم والأدب

معروف الرصافي

للشاعر الدمشقي عز الدين علم الدين
على ذلك الثاوي العظيم تحية[1]

كفى حزناً أني أرى اليوم راثيا ... وعهدي بدمعي أنه كان آبيا

حوادث دهر يصدع الصخر وقعها ... فكيف بقلب يخفق الدهر داميا؟

لقد كنت جلداً في الخطوب نوازلاً ... وراجح حلم في الكروب عواديا

ولكن هذا الخطب زلزل راسياً ... وأورث أشجاناً وأجرى مآقيا

فأمسى الذي ما قابل الناس باكياً ... يروح ويغدو موجع القلب باكيا

خليليَّ، إنْ لم تسعدا فتعطَّفا ـ ... على مرخصٍ سوم الدموع غواليا

أَلِمَّا فهذا مأتم العلم والهدى ... نعينا به للعالمين المعاليا

ألا في سبيل الله نفس تقطعت ... على الدين يلقى من ذويه الدواهيا

ألا في سبيل الله نفس عليمة ... أبانت من الأسرار ما كان خافيا

ألا في سبيل الله روح الذي قضى ... كريماً وأفنى أنفس العمر هاديا

نعى البرق للأقوام علماً وحكمة ... وللدين مشحوذَ الغِرارين ماضيا

فلست ترى في الناس إلا نواعيا ... عرفناك أخلاقاً زكت ومباديا

ولا يبعدنك الله شكري فإننا ... رأيناك روضا ينبت الفضل زاهيا

ولا يبعدنك الله شكري أخا العلى ... فقد عشت للآداب والعلم داعيا

---

(1) الأستاذ الأديب الدمشقي صاحب التوقيع أنشدها في حفلة تأبين المجمع العلمي العربي بدمشق.

بكيتك في (الزوراء[1]) أمس مدامعاً ... وها أنا في (الفيحاء) أبكي مراثيا
ترى القوم في النادي حيارى من الأسى ... ورسم الأسى في أوجه القوم باديا
فما فيهم طرف من الدمع ناضباً ... ولا فيهم قلب من البث خاليا
لئن لبست فيك (العراق) حدادها ... لقد لبسته (الشام) أسودَ ضافيا
عزيز علينا أن نرى السيف مغمداً ... وقد فلَّ بالأمس السيوف المواضيا
وأن نجد الغيث الذي كان شاملاً ... تقشع لا يروي من القلب ظاميا
وكيف يضم اللحد جثمان سيد ... هو البحر علماً والبلاد أمانيا؟
لمنطقة فصل الخطاب فإن نضى ... له قلما خلت الجراز يمانيا
وتحسب أسفار الإمام سوافراً ... بتبيانه والمعضلات عواريا
ترى البحث فيها مجتنى العقل ناضجا ... تودّ به لو أن للبحث تاليا
أبى طبعه تقليد من جاء قبله ... وهل قدَّس العقلُ العظامَ البواليا؟
فما إنْ قضى من راح بالعلم خالدا ... وعاش على التقليد في العلم قاضيا
ومجتهداً في دينه عن بصيرةٍ ... وعن زخرف الدنيا المخادع لاهيا
غدا الوهد في أسماله وهو زائل ... وراح بمنسوج المحامد باقيا
تعرضتِ الدنيا له مستميلةً ... فآثر أخراه وأعرض نائيا
وقال لمعطيه الدنانير: عُذْ بها ... لصاحبها إذ عزة النفس ماليا
هجرتك إن لم ترجع المال هجرةً ... بها لا ترى بيتي (أَنَسْتَاسُ) ثانيا
لأَحوج للدينار منى مفيده ... إذا كان للدينار يرمي المراميا[2]

❀ ❀ ❀

فهل لرجال الدين يحذون حذوه ... لكيما يصونوا أوجهاً ونواصيا،
أرى الدين بالأخلاق قام عموده ... وليس سوى الأخلاق للدين واقيا
فلا دينَ للمرء الذي ساء خلقه ... ولم يحمدوا منه التقى والمساعيا

❀ ❀ ❀

---

(1) يشير إلى خطبته التي ارتجلها في الحفلة التي أقمناها ببغداد.

(2) مضى شرح هذه القصة العجمية في تأبين الأب انستاس الكرملي.

ولـولا رجـاءٌ لـي بـأنـصـار فـضـلـه و(بَـهْـجَـتِـهِ) مـا كـنـت لـلـحـزنْ سـالـيـا
لأَذويـت مـغـروس الأمـانـي لأمـتـي وأطـلـقـت مـحـبـوس الـمـدامـع هـامـيـا
ولـو كـان (شـكـري) مـوتـه مـوت غـيـره (بـبـغـداد) مـا ألـقـيـتـمـونـي شـاكـيـا
عـلـى ذلـك الـثـاوي الـعـظـيـم تـحـيـة وجـادت ثـراه الـمـعـصـرات غـواديـا

(دمشق) **عز الدين علم الدين**



مَنْ لي مِنْ بعدك؟

إنِـــي أرى (بـــغـــدادَ) نـــوّاحـــةً كـــأَنـــهـــا قـــامـــت عـــلـــى قـــبـــر
تـــقـــول مـــن وجـــد ومـــن تـــرحـــةٍ مَـــنْ لـــيَ مـــن بـــعـــدك يـــا (شـــكـــري)

عز الدين علم الدين



عالم العراق وأديب مصر[1]
الألَوسي والمنفلوطي

للشاعر بدوي الجبل

الـلـيـل بـعـد الـراحِـلَـيـن طـويـل أو مـا لـصـبـغـك يـا ظـلام نـصـول؟
يطـوي الـزمـان الـنـابـغـين فـيـنـطـوي لـذهـابـهـم أمـم ويـهـلـك جـيـل
ولـربّ نـعـش غـاب فـي طـيّـاتـه فـتـح أغـرّ ومـوطـن وقـبـيـل
والـنـاس أسـيـاف: فـمـنـهـا مـغـمـد صـديء، ومـنـهـا الـصـارم الـمـسـلـول
فـي كـل يـوم لـلـجـزيـرة كـوكـب يـهـوي، وسـيـف يـعـتـريـه فـلـول
قـبـر بـعـاصـمـة الـرشـيـد، وآخـر فـي مـصـر حـق سـتـوره الـتـبـجـيـل
بـدران قـد بـكـر الأفـول عـلـيـهـمـا ولـكـل بـدر طـلـعـة وأفـول
ومـشـيـعـان إلـى الـقـبـور بـمـوكـب يـرتـدّ عـنـه الـطـرف وهـو كـلـيـل
فـيـه رعـيـل مـن مـلائـكـة الـعـلا ومـن الـجـدود الأكـرمـيـين رعـيـل
عـيـسى وأحـمـد والـكـلـيـم عـصـابـة فـيـهـا الأمـيـن الـمـنـتـقـى جـبـريـل
مـا لـلـجـزيـرة؟ أيـن نـور نـبـوغـهـا؟ الـزيـتُ جـفّ وأُطـفـيء الـقـنـديـل
بـغـداد شـاكـيـة ومـصـر مـرنّـة والـشـام حـاسـرة الـقـنـاع ثـكـول

(1) من قصيدة طويلة لصاحب التوقيع أنشدت في حفلة المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد اقتطفنا منها ما يتعلق بالرثاء فقط.

تـلـك الأقـانـيـم الـثـلاثـة واحـد   بَـرَدى، وشـاطـىء دجـلـة، والـنـيـل
لا تـنـكـروا حـقّ الـحـيـاة لأمّـة   فـيـهـا الـنبـوغ عـلـى الـحـيـاة دلـيـل
لـم تـخـبُ أنـوار الـنـبـوغ وإنـمـا   عـدد الأُلـى قـدروا الـنـبـوغ قـلـيـل

بدوي الجبل

فيا ويح بغداد![1]

للشاعر محمد بهجة البيطار

أعـلاّمـة الإسـلام كـهـف زمـانـه ... قُمِ اليوم أنقذ أهله من نطى الخطب
فـلـلـهـدم مـا شـادتـه آل أمـيّـةٍ ... ومُلك بني العباس للسلب والنهب
رأيـنـا بـك الإخـلاص لله رائـداً ... وآثـرتَ فـي كـل الأمـور رضـا الـربّ
طويتَ بِبُرْدَيكَ السماحة والتقى ... فـأذكـرتـنـا أيـام أحـمـد والـصـحـب
زهـدت بـدنـيـا نـالـهـا كـل بـائـع ... لها الوطنَ المحبوبَ من أمم الغرب
وهل يستوي الخصمان: راضٍ عن العدا ... يسومونه سوءاً، وغضبان للشعب
ومـا يـسـتـوي الـبـحـران: هٰذاك مالـح ... أجاجٌ، وهـذا أعـذب سـائـغ الـشـرب
فـيـا ويـح بـغـداد إذا جـدَّ جـدُّهـا ... وأعوزها التحقيق في النازل الصعب
لَتَسوية الحبر (الألوسي) بغيره ... لدى مشكلات العلم من أبين الكذب
إذا مـا بـكـاك الـحـق «شـكـري» وأهـلـه ... فقد كنت شمس الحق تجلو عمى القلب
ستبكيك يا شكري المعاهدُ بعد ما ... بك ابتسمت حيناً طوته يد الكرب
سيبقى لك التاريخ ذكراً مخلداً ... رفـيـعـاً بـمـا أخـلـدتَ من أثـر عـذب

❀ ❀ ❀

---

(1) بعض قصيدة لحضرة الأستاذ الجليل صاحب التوقيع. وما جاء فيها من الثناء على تبعاً لرثاء أستاذنا الإمام فقد اضطررت لذكره ولولا رغبة السمى الصديق في إثباته لاستغنيت عنه فأشكره على حسن ظنه.

ألا رحـم الله الألـوسـي شـيـخَـنـا فقد حلَّ في دار النعيم على الرحب
وما ماتَ من كـان «الـسـميُّ» مريده ووارثه في الـديـن والعـلـم والـحـبّ

❀ ❀ ❀

أيـا «بـهـجـةَ» الآداب زيـنـة أهـلـهـا لقد ردّ روضَ العلم فضلُك من خِصْب
ومـالـيَ لا أثـنـى عـلـيـك وإنـمـا عليك لقد أثنت علومك في الكتبِ
كـأنَّ تـآلـيـفَ الألـوسـيّ روضـة مبلّلة من شرحكم بندى السحب
أنَاطت يد التحقيق منك بجيدها قـلائـد مـن مـاسٍ ومـن لـؤلـؤ رطـب
كأن شبا أقلام (بهجةَ) في الوغى قواطع تردي الخصمَ كالسمر والقضب
إذا هزها فوق الطروس حسبتها قذائف من (منطادَ) تقذف في الحرب
وقـفـتَ لأصـحـاب الـرذيـلـةِ وقـفـةً أعـدَ بـهـا أيـام أحـمـد والـصـحـب
يـريـدون مـن لـيـلـى وهـنـد ومـريـم سـلـوك سـبـيـل خـطـهـا نـسـوة الـغـرب
يعاقرن بنت ألحان في ألحان جهرة ويرقصن في الملهى مع الرجل الخبِّ
بربك هل هم مسلمون؟ وهل هُمُ من العربِ؟ حاشا أن يكونوا من العرب!
فـلـو بـرزوا قـدمـاً عـلـى عـهـد يـعـربٍ لشنَّ عليهم غارة الطعن والضرب!

دمشق **محمد بهجة البيطار**

❀ ❀ ❀

أسى الفيحاء[1]

للشاعر نافع الحلي

دموعك أرسلها فأكبادنا حرَّى | فما ثَمَّ من لوم فنلتمس العذرا
عفا ربع ليلى والليالي تصرَّمت | فديتك قف بي ريثما «نبك من ذكرى»
أتملك دمعاً من مآقيك بعدما | شهدت أسى (الفيحا) ونوح بني (الزورا)
وقد أصبح الدينُ الحنيفي سارياً | أمام إمام الناس سبحانَ مَنْ أسرى
على هذه الدنيا العفا إن حلوها | لمرٌّ ولكن نحن نستعذب المرّا
لها كل يوم جولة بين معشر | «فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى»
تداوي كلوماً من دماء قلوبنا | إذا سالمت زيداً فقد كافحت عمرا
يعزّ على العليا مصاب محنك | له همة تستنزل الطائر النسرا
إمام به قد كان شرع محمد | يشد الجاحدين له أزرا
تغيبت يا بدر الدجنَّة بعد ما | رأى الملحدون النجم من غيظهم ظهرا
عييتُ فقل لي ما أقول فإنني | فقدت شعوري يوم فقدك والشعرا
يكلفني صبراً «هذيم» وما درى | بأن رزايا الدهر تحتدم الصبرا
على منبر التدريس بعدك وحشةٌ | وقد قوس المحراب من حزنه الظهرا
بنفسي ذاك الحبر من كان قابضاً | على دينه والناس لا تقبض الجمرا
يبيت يجافي جنبه عن فراشه | لتأويل نص أو لفلسفة أخرى

---

(1) أنشدت في «فاتحة» الحلة الفيحاء.

لقد كان بحراً في الحقيقة قاذفاً لمستمنح الإرشاد من كنزه الدرا
وكان (جمال الدين) مقول أهله وكان لهم يمنى وكان لهم يسرى
عليه رضا الرحمن من متزود من العلم والتقوى ولم يقترف وزرا
تسربل أبراد العفاف تكرماً ولم يشتك يوماً كأضرابه الفقرا
همام إذا ما المنكرات تزاحمت يرد على الأعقاب جحفلها قهرا
يسل على الباغين مرهف عزمه فتأتي له الأغيار طائعة قسرا
فكم طاعن في الدين قد جاء جاحداً فآمن لما أن رأى الآية الكبرى
فكل قياس من قضاياه موصل إلى الحق لا كبرى تعاب ولا صغرى
وبرهانه اللمي يشرح كنهه يراع له قد قارع البيض والسمرا
قضى نحبه ذاك اللسان وأصبحت ربوع المعالي اليوم من بعده قفرا
قضى نحبه والعلم حول سريره يكفكف وكف الدمع من عينه العبرى
قضى نحبه والروح راح بروحه لمقعد صدق لا يجوع ولا يعرى
ووافاه رضوان بروح مبكراً وحيته بالريحان حوراؤه العذرا

الحلة

نافع الحلي

ما مات شكري[1]!

للشاعر ناجي القشطيني

لا السجن يبكينا ولا التبعيد ... كلاّ ولا الإرهاب والتهديد
سنظلّ نهزأ بالخطوب تجلّداً ... هتفت إليها في الصدور كُبُود
إنا تحالفنا على نيل المنى ... وتسجلّت منا بذاك عهود
والصبر شيمتنا وليس يهمنا ... إن قال فينا ما يشاء حسود

❀ ❀ ❀

لكنما تهمي مدامعنا على ... شيء يُراع لهوله الصنديد
شيء فقدناه بيوم كريهة ... لم يكفه نوح ولا تعديد
فقد العميد وتلك أعظم نكبة ... هيهاتَ ما يعد العميد عميد
إن لم تجد عيني عليه بدمعها ... فلأيّ شيء بعد ذاك تجود؟
وإذا أنوحُ فلست أول نائح ... قد ضاع منه طارف وتليد

❀ ❀ ❀

كان العراق محطّ آمال الورى ... تأتيه من أقصى البلاد وفود
أيام كان العلم يزهو روضه ... وله على هام النجوم بنود
فاستهدفت بغداد فاجعة بها

(1) أنشدت في الحفلة التأبينية ببغداد.

استوْلى على تلك الحياة جمود

فغدا العراق مقيداً بعوائد ... جاءت إليه بها الخطوب السود

والقيد مهما أُحكمت حلقاته ... لا بدَّ أنْ ينتابه التبديد

❁ ❁ ❁

في فترة العلماء أنجب قطرنا ... حرّاً يذب عن الهدى ويذود

فاستبشر الأجداد في أجدانهم ... أكرِمْ بعهد ترتضيه جدود

«محمود شكري» أنت ناصر ديننا ... لله درّ أبيك يا محمود

أحييت بالتنقيد ميت عقائد ... ما مسَّها فحص ولا تنقيد (؟)

ومشيت نحو الحق مشية وازع ... ما صده عما أراد (مُريد)

فتجدد الإسلام فيما جئته ... لبني الهدى، يا حبذا التجديد

قلتَ ٱرجعوا يا قوم عن أوهامكم ... فالدين غاية أمره التوحيد

لم يثنك الحكام عن إرشادنا ... حتى أطاحت في حماك جنود

ونفيت عن بغداد غير مروع ... حاشا تراع من الذئاب أسود

ولكم أهين المصلحون لغاية ... فنيت وهم في العالمين خلود

وبرغم ما صنع العداة رأيتهم ... بعدوا كما بعدت هناك ثمود

ورأيت (شكري) في العراق تحفه ... بعد الملائك أمة ووجود

ألقى إليه المسلمون قيادهم ... وبذاك تمَّ لهم به التقليد

❁ ❁ ❁

ستون عاماً في المدارس عافها ... للعلم يرشد قومه ويفيد

وماذا أقول وهذه آثاره ... كالشمس لم يطلب لهنّ شهود

أسفي على تلك المعالي أصبحت ... تحتاطها بعد الطروس لحود

والله لو أن المنية تُفتدى ... لفداه منا سيّد ومسود

❁ ❁ ❁

ما مات شكري حيث خلّف بعده علماً على طول الزمان يزيد
فعليه ما بكت العيون تحية نفحاتها التقديس والتمجيد

ناجي القشطيني



وا إماماه![1]

للشاعر عبد الرحمن البناء

مات الإمام ولا سواه إمام ... فبكى عليه الدين والإسلام
ليت السماءَ قد انطوت لمصابهِ ... والأرض قد خسفت وعمَّ ظلام
من ظن أن الشمس تكسف في الضحى ... والبدر يلقى الخسف وهو تمام؟
ويغور بحرٌ ما له ساحل ... ويضمُّ (رضوىٰ) جندل ورجام
(محمود شكري) قد قضى نحباً وقد ... ناحت عليه العرب والأعجام
عشرون ألفاً شيعوه لقبره ... مثل الملائك خلفه وإمام!
ودويّ تهليلاتهم وصلاتهم ... كدويّ نحلٍ هاج فيه ضرام
فسرى كنوح والسفينة نعشه ... والدمع طوفان عليه سجام
هذا سليمان وذاك بساطه ... والريح أكتاف الورى والهام
قد كان حراً مطلقاً بعلومه ... ما قيدت أفكاره الأوهام
قد كان يرجو للبلاد تقدماً ... ومُناه فيها ألفة ووئام
يمضي في الأزمات غير مقصرّ ... عن أمة منها الحقوق تضام
قد طلق الدنيا ثلاثاً أنه ... ما غرَّه عرض بها وحُطام
وعلى محبَّته القلوب تزاحمت ... والمورد الصافي عليه زحام
نِطْس ذكيْ عبقريّ متقن ... عفّ الضمير وفي الدجى قوَّام

---

(1) أنشدت في حفلة التأبين ببغداد.

تبدو البساطة والوقار ببرده وبوجهه الإجلال والإعظام

ما مات من أحيا العلوم صلاحه وكذاك موت المصلحين منام

خرّي سجوداً واركعي فبموته قد غاب عنك العلم والإلهام

يا قائد العلماءِ بالرأي الذي يعنو إليه الجيش وهو لهام

أنت الإمام ابن الإمام المرتجى من شأنك الإخلاص والإقدام

لله ما ألفت من كُتُبٍ لها تصبو العقول وتهتف الأفهام

لك مثل (أحوال الأعاريب) التي (ببلوغها) تتفاخر الأقوام

جئناك يوم الأربعين ودمعنا يجري على الوجنات وهو سجام

جئنا نؤبّن منك روحاً ضمّها لسنا على بيع النفوس نُلام

أعلِمْتَ ما خلَّفتَ (شكري) في الورى؟ خلفت ما خضعت له الأحكام

ولطالما هزت عروش ممالكٍ هٰذي الدواة وهٰذه الأقلام

من بعد فقدك يا ابن آلوس العلى كسر اليراع وأغمد الصمصام

نم واسترح فالدهر غير سالم والقبر فيه راحة وسلام

الموت يجري في الأنام ولم يكن فيه لهم نقض ولا إبرام

مشت الأنام على الأنام وبينهم صلة بها تتأصل الأرحام

أقدامهم سارت على قدمائهم واليوم تمشي فوقهم أقدام

أنَّتْ عظام جدودهم من تحتهم وجميع ما فوق العظام عظام

لا ميت يبقى ولا حيّ بها فكأننا وكأنهم أحلام

فالكل موتى لا تعذر بينهم لولا الحمامُ كفى الأنام حمام

الناس تمشي والليالي مثلها ولكل شيء في الحياة قيام

نم في جوار الله (شكري) آمنا فعليك من رب السماء سلام

عبد الرحمن البناء



وا إماماه[1]

للشاعر عبد الرحمن البناء

أي خـطـب عـرا وأيّ مـصـاب ... هـدّ طـود الـعـلـوم والآداب
هـدّ ركـنـاً لـلـديـن كـان قـويـمـاً ... ورمـى ربـع مـجـده بـخـراب
فـادح فـي الأقـطـار ألـقـى دويـاً ... كـاد يـقـضـي عـلـى ذوي الألـبـاب
هـزّ بـغـداد والـشـآم ومـصـر ... ورمى الـبـيـت والـصـفـا باضـطـراب
هو موت الإمام (محمود شكري) ... قـد أذاب الـقـلـوب قـبـل الإهـاب
إن (شـكـري) قـد كـان خـيـر إمـام ... وهـمـام مـا كـان بـالـمـرتـاب
نـفـع الـمـسـلـمـيـن بـالـعـلـم مـنـه ... وسـقـاهـم من ورده الـمـسـتـطـاب
وهـداهـم إلـيـه صـراطٍ سـويّ ... وتـفـانـى لـهـم بـغـيـر حـسـاب
كـان حـرّ الـضـمـيـر حـبـراً تـقـيّـاً ... عبقريّ الـخـصـال رحب الـجـنـاب
راح لله طـاهـراً وزكـيـاً ... بـعـد مـا خـطّ مـنـهـجـاً لـلـصـواب
كـان لـلـنـاس بـحـر عـلـم وفـهـم ... كيف قد غاض فيضه في التراب؟
كـان بـالـحـلـم والـرزانـة طـوداً ... فـطـواه الـمـنـون طـيّ كـتـاب
فـكـأن الـحـيـاة لـمـحـة نـورٍ ... تـتـجـلـى أو لـمـعـة مـن سـراب
خير ندب قضى لدى الحق نحباً ... بـعـد مـا قـضـى حـقـوق انـتـداب
قـوضـت بـعـده الـمـدارس حـزنـاً ... وتـداعـت دعـائـم الـكـتـاب

(1) أنشدت في «فاتحة» حي الحيدرية ببغداد.

لطمت وجهها الطروس عليه ... وكذا الكتب أعولت بانتحاب
ونعاه الركوع لله ليلاً ... وبكاه السجود في المحراب
خطفته المنون بالرغم عنا ... ثم مرّت به مرور سحاب
فكأن المنون آراه شعب ... ونفوس الأخيار كالأحزاب
فلهذا اختارت يد الموت (شكري) ... فسقانا مصابه كأس صاب

❀ ❀ ❀

أيها الموت بالأعاظم رفقاً ... إن هذا يا موت منك تحابي
كل يوم تختار منا إماماً ... كل يوم تأتي بشيء عجاب
كل يوم من أفق (آلوس) شمس ... تتوارى وقت الضحى بضباب
فرقد إثر فرقد يتهاوى ... وشهاب يخرّ خلف شهاب
أنت منا قد انتخبت عظيماً ... للمنايا وذاك شر انتخاب
واغتصبت الفذّ الأبيَّ اغتصابا ... ويك هذا يا موت شر اغتصاب
قد جرحت الأكباد بالرزءِ منا ... وتركت الدموع ذات انسكاب
حينما قد فجعتنا بإمام ... خاض بالاجتهاد كل عباب
فيلسوف الإسلام في الشرق طراً ... لم يخالف أحكام آي كتاب
إن أقلامه لدى الذب عنا ... هي تغني عن الظُّبا والحراب
ذو علوم أفكاره قد أماطت ... عن شؤون الإسلام كل نقاب
إن ما ألف الفقيد مفيد ... لذوي اللبّ من بني الآداب
حيث في الدين صالحات هداه ... باقيات على مدى الأحقاب
حاملات إلى الشعوب بياناً ... ذا معان قشيبة الجلباب
حارب الجهل والأولى اتبعوه ... بيراع ما كان بالهياب
كم حديث رواه عن دين طه ... باختصار يشف عن إسهاب
وعن الفقه كم قيود رماها ... هي كانت سلاسلاً في الرقاب
يعده النحو بات مثل جريم ... علقته المنى من الأهداب

❀ ❀ ❀

يـا إمـامـا يـد الـمـنـون رمـتـه — بـمـصـاب أعـظـم بـه مـن مـصـاب

قـد جـرعـنـا عـلـيـك كـاسـات صـبـر — وشـربـنـا الأسـى بـلا أكـواب

غـبـت عـنـا وأنـت مـنـا قـريـب — تـسـمـع الـصـوت مـن وراء حـجـاب

كـنـت فـيـنـا (أبـا الـمـعـالـي) رشـيـداً — لـمـلـوك الأحـسـاب والأنـسـاب

كـم تـرامـتِ عـلـى يـديـك ثـغـور — كـترامـي الـعـطـاش فـوق الـشـراب

نـم هـنـيـئـاً فـالـنـاس بـعـدك مـوتـى — كـل شـيء مـصـيـره لـلـتـراب

عبد الرحمن البناء

الإمام الألُوسي[1]

للشاعر إبراهيم منيب الباجي

سار في هيبة له ووقار ... قاصداً بالمسير غير ديار
سار لا ماشياً على الأرض لكن ... رفعته أنامل الافتخار
سار في موكب يموج كبحر ... هاجه عاصفٌ من الأكدار
كَرِه العيش في ديارٍ رآها ... خاليات من مثله أحرار
فامتطى النعش وهو مركب مَنْ لا ... يرتضي عيش ذلّةٍ واسار
قدس الله سرَّهُ من أبيّ ... ما ارتدى في الحياة ثوب صغار

❀ ❀ ❀

رضع العلم وهو طفل إلى أنْ ... شبّ فيه ذا مكنة واقتدار
فتجلّى من بعد عشرين عاماً ... وهو ذاك النحرير في الأمصار
مصلحاً مرشداً فقيهاً حكيماً ... عالماً عاملاً هفيف الإزار
سابقاً في حلائب الفضل من كا ... ن مجدّاً في ذلك المضمار
من يجاريه يا ترى وهو بحر ... ما له من نهاية وقرار؟
ولدينا آثاره شاهدات ... له بالسبق بين كل مجاري

❀ ❀ ❀

---

(1) أنشدت في حفلة التأبين ببغداد.

كدت أقضي من شدة الحزن لمّاً أن نعته النعاة في (أيّار)
وسرى نعشه الموقّر ما بين دويّ التهليل والأذكار
ليت يدري ذيّالك النعش ما كان حواه من سؤدد وفخار
ما حوى غير بحر علم وفضل وعجيب إذ ضمَّ وسع البحار

❀ ❀ ❀

لا تقولوا مات الإمام كمن ما ت وأمسى في غارب الاندثار
ما أراه تنقّل من دا ر فناءٍ إلى ديار قرار
فهو يحيي في جنة الخلد الآ نَ مع الصالحين والأبرار
سارحاً مارحاً بأهنأ عيش في رياضٍ مزدانة بالجواري
غير راءٍ هناك ما كان يشكو في الدُّنا من ضلالة الأغرار
فعليه السلام ما جنَّ ليل وتزاهت كواكب ودراري

إبراهيم منيب الباجچي

يوم التأبين

للشاعر عبد الكريم العلاّف

جئنا نقيم بهذا اليوم تأبينا والدمع كالغيث يجري من مآقينا
جئنا نجدّد ذكرى ما ألم بنا من المصاب لو آن الذكر يجدينا
جئنا نشاهد آثاراً مخلدة تهدىٰ إلينا ونهديها لتالينا
جئنا نعزي المعالي والعلوم بمن إلى طريق الهدى قد كان يهدينا
الله أكبر مات العلم واندرست آثاره وخلت منه نوادينا
الله أكبر ما للدهر يفجعنا ما إن نصادقه إلا يعادينا
لا تعتبن على دهر يفرقنا فشيمة الدهر تفريق المحبينا

❁ ❁ ❁

يا كوكباً غاب في الأحداث منطفئاً وجوهراً بات تحت الترب مدفونا
لئن نسيت عهوداً في محبتنا فنحن لسنا لعهد منك ناسينا
بعدت عنّا ولم تسمع تحيتنا وطالما كنت يا (شكري) تحيينا
قم من ضريحك وانظر أمة وقفت تبكي علاك وتبكي العلم والدينا
قم من ضريحك وانظرنا بعين رضا فنظرة منك بعد اليوم تكفينا
مذ سرت سار الهنا عنّا وودَّعنا والحزن ظلَّ مقيماً في نواحينا
تركت أنجالك الطلاب في جزع مشتتين مدى الأيام باكينا

❁ ❁ ❁

كـانـت أمـانٍ لـنـا يـا قـوم زاهـيـة بموت (شكري) لقد ضاعت أمانينا

عزوا المحافل عزوا اليوم (بهجتها) عـزوا المـدارس بـل عـزوا الـدواويـنا

عـزوا تـلاميـذه الأنـجـاب قـاطـبـة وعـزوا أسـرتـه الـغـر الـمـيـامـيـنـا

عبد الكريم العلاف

وامصيبتاه[1]!

للشاعر عبد الكريم العلّاف

صبراً وإن كان المصاب جليلا ... قد طبق الدنيا بكاً وعويلا

ويلاه من هذا الزمان فإنه ... لم يدر إلا الغدر والتنكيلا

أبداً يريش نباله لكنه ... لم يصم إلا أصيداً ونبيلا

لله أي مصيبة ورزية ... أضحى لها طرف العلوم كليلا

يا أيها النبأ المغادر دجلة ... عزَّ الفرات وعز النيلا

اليوم قد رزىء العراق بفقد من ... مقلُ الورى سَحَّت عليه سيولا

اليوم بيت العلم طاح عماده ... فأنهار من بعد السمو مهيلا

اليوم أقفرت المدارس وانمحت ... منها الرسوم وعطلت تعطيلا

اليوم أقفلت النوادي كلها ... اليوم أصبحت الديار طلولا

اليوم شمل العلم عاد مشتتاً ... مذ بات عقد نظامه محلولا

هيهات بعد (أبي المعالي) أن نرى ... لعلومه بين الأنام مثيلا

من ذا ترى (للحيدرية[2]) بعده ... في العلم والتقوى يكون بديلا

يا راحلاً والمكرمات تحفّه ... يمّمت ظلاً في النعيم ظليلا

مالي أراك وأنت تسرع في السرى ... هلاّ وقفت إلى الوداع قليلا

---

(1) أنشدت في دار الإمام الفقيد.

(2) أي مدرسة جامع الحيدرية الذي شاده الوزير داود باشا.

ما شيّعوا للقبر نعشك وحده ... بل شيعوا التكبير والتهليلا

قد كنت للزوراء أقوى ساعد ... واليوم ساعدها انثنى مشلولا

سلَّ الزمان عليك عضباً مرهفاً ... يا ليت مرهفه انثنى مفلولا

مولايَ يومك ما أجلَّ مصابه ... أذهلْت فيه من الأنام عقولا

إني وددت بأن أكون لك الفدى ... لو كان يرضى الموت فيّ بديلا

وأبيت قلبك في التراب مغيباً ... لو أنني ألقى لذاك سبيلا

فلأرثينك ما حييتُ على المدى ... ولأبكينّك بكرة وأصيلا

عبد الكريم العلاف

الرزء الفادح

للشاعر فاضل الصيدلي

من سميري على السهاد الطويل ... ومعيني على البكا والعويل؟
من نصيري على خطوبٍ توالت ... وشريكي لدى الأَسى وزميلي
يا خليليّ إن في القلب ناراً ... تتلظىٰ من فرط حزن دخيل
يا خليليَّ فالمصاب عظيم ... وجليل لفقد شيخ جليل
فدح الأمر، ربِّ هوّن وسلّم ... ربِّ وابعث لنا بصبر قليل
أيموت الشيخ الذي كان فينا ... لسبيل النجاة خير دليل؟
بمن اليوم نقتدي ثم نهدى ... ونولّى وجه المنىٰ والسول؟
فلدار السلام سار وقد كا ... ن بدار السلام خير نزيل
برّد الله في القلوب لهيباً ... لفقيد ما إن له من مثيل
طيب الله من ثراه طهوراً ... بنسيم من النعيم بليل
وسقى الله القبر برداً ... من معين الرضا ومن سلسبيل
لك يا منتهى الرجاء سلام ... واحترام مدى الزمان الطويل
وثناء ورحمة لك تهدىٰ ... كل يوم وغدوة وأصيل
كم شجيّ لهول منعاك فينا ... وعليل من الأسى كم عليل
فتهنّأ بالنوم بعد سهاد ... كنت لازمته بخير سبيل

❀ ❀ ❀

فات عينيَّ مشهد سار فيه الشيخ والصبر والنهى في رحيل

وكـأنـي بـالـنـعـش فـوق رقـاب   مـن ألـوف الـرجـال فـي تـبـجـيـل

قـد أحـاطـوا بـه بُـكـيّـاً حـيـارىٰ   فـي ضـجـيـج الـنـواح والـتـرتـيـل

يـتـرامـون كـالـسـيـول فـمـا بَـيْـنَ نـشـيـج وزفـرة وذهـول

ذاك يـــوم وأي عـــظـــيـــم   ربّ يـــوم مـــن الـــزمـــان مـــهـــول

فـعـلـيـك الـسـلام مـا غـاب نـجـم   مـثـلـمـا غـبـت، وانـتـهـى لـلأفـول

الموصل **فاضل الصيدلي**

❀ ❀ ❀

عالم العراق[1]

للشاعر عباس العبدلي

بعضُ قصيدة:

أيّ حر لم تعره الأتراحُ ... ومن الدهر لم تصبه جراح
قلبته الأتراح بطناً لظهر ... بعد ما قد طابت له الأفراح
ويعيش الإنسان كالطيف عيشاً ... حيث يودي به القضاء المتاح
فلك الكائنات تم انتظاماً ... فهدوء طوراً وطوراً صياح
وانقضاء الأيام إمَّا هناء ... أو عناء أو فرحة أو نواح
في الورى للخطوب أمر ونهي ... طاوعتها الأجسام والأرواح
ولهذي الحياة أيّ ازدهاء ... قلّما في صفائها نرتاح
في الجسوم الأرواح تزدان شكلاً ... معنوياً وهكذا الأشباح
وطراد المنون في الخلق يجري ... مثلما في الفضاء تجري الرياح
كل فرد لا بد يلقي براحاً ... وحريّ عن الحياة البراح
هل صباح لا يعتريه مساء ... ومساء لا يعتريه صباح
للمنايا على الأنام هجومٌ ... ليس يغني عنه هناك سلاح
كيف لا والزوراء أمسى لديها ... طافئاً بعد ضوئه المصباح

---

(1) أنشدت في حفلة التأبين ببغداد.

قد توارى في الترب بدر كمال | فتوارى تقى الورى والصلاح
ذاك (شكري أبو المعالي) المفدى | مَنْ لصدر الإسلام فيه انشراح
هو في عالم الديانة حبر | ولأبواب سرها مفتاح
غمر الناس علمه وحجاه | فله ألسن الثناء فصاح
جهبذ في العراق كان وحيداً | وإمام يزينه الإيضاح
هدَّ ركن الإسلام (محمود) لما | زعزعته من المنايا رياح
شرعة المصطفى لقد ندبته | واإماماه أين هذا الرواح؟
هل نرى بعد فقدك اليوم ندباً | بهداه لنا يتم النجاح؟
مات والله من به فقد النو | رُ لدينا واطفىء المصباح
إنما المسلمون لو شيّعوه | ببكاءٍ لما عليهم جناح
هو نبراس طلعة النجم زاهٍ | ولزند الفخار فيه انقداح
وهو روض بزهرة العلم يزهو | ولفرع الأصول ماء قراح

❁ ❁ ❁

لك (بغداد) حسرة بعد شكري | وبكاء وصفقة ونواح
فعليه دارَ الخِلافة نوحي | [ما على كل من يموت يناح]

❁ ❁ ❁

يا ضريحاً قد ضمَّ محمود شكري | إنما أنت في ثراك الضراح
أين ذاك التدريس أين القراآ | ت وأين اللغات والإصلاح؟
أين ذاك الإيمان في قلب حرٍّ | أين ذاك الكمال أين الصلاح؟
قد مضى للجنان أرخ: ببشر | ولشكري وسط الجنان نجاح

البصرة: 1342 **عباس العبدلي**

فقد الهادي

للشاعر كاظم الدجيليّ

خطبٌ أَلَم ففتّ في الأَعضاد | وأسال دمع العين من بغداد
ومن الرزية للبلاد وأهلها | كثر الضلال بها وفقد الهادي
فقد العراق بفقد (شكري) والورى | [رجل الرجال وواحد الآحاد]
ونعاه لي طير البريد عشيةً | [فرأيت كيف خبا ضياء النادي]
قد كنت يا (شكري) إمام أئمة | وحكيم فلسفة وحبر رشاد
قد كنتَ خرِّيت الصنَّاعة ماهراً | بالفن مجتهداً بكل سداد
وسرى حديثك في البقاع جميعها | حتى روته حواضر وبَوَادي
لله درك من مشيد مجده | بيديه لا بمآثر الأَجداد
ما للألى قد شيعوك إلى الثرى | طراً قد ازدحموا على الأعواد
تبكي عيونُهُم عليك وهم على | قسمين فيك مسالم ومعاد
ما ذاك إلا لارتقائك ذروةً | للمجد لفت طارفاً بتلاد
وكذا العظيم بموته وحياته | له (؟) حرمة عظمى بكل فؤاد
والمرءُ في هذي الحياة مسافر | فليجعلنّ الذكر خير الزاد

❀ ❀ ❀

إني إذا أرثيك لست بخاسر | إذ أَرثي (؟) منك خصائل الأمجاد
والفضل والعلم الغزير وما حوى | منك الفؤاد من الذكا الوقّاد

مَنْ للشوارد بعد يومك جامع | من كل فصحى من بنات الضاد
قد عشت في دنياكَ غير مهنأٍ | وكذا حياة العالم النقّاد
ستنال في أخراك غايات المنى | وتحوز ما ترجوه في الميعاد
بلّت ثراك مدى الزمان سحائب | تبكيك بين روائح وغوادي

نزيل لندن: كاظم الدجيليّ

الإمام المجدد

للشاعر عبد العزيز الرشيد

بعضُ قصيدةٍ:

أرى الدهر لا يختار إلا مسوَّداً ... لحا الله دهراً مولعاً بالمسوّد
ففي كل يوم منه نرمي بنكبة ... ولكنها ـ واحسرتا ـ في المجدّد
ألا إنَّ موت المصلحين مصيبةٌ ... ولا سيما موت العظيم المسدّد
فقدنا بفقد الحبر محمود شكرنا ... مناهلَ تروي كل صادٍ بفدفد
أخو عزمات لا تلين لغامز ... وقد كان يسعىٰ دهرَهُ للتجدد
ويسعى لتنوير العقول بعلمه ... وتكسير أغلال الجمود المقيّد
فمن بعده يحمي الشريعة إن سطا ... عليها ذوو الإِرجاف من كل معتدي؟
لقد نكب الحق المبين بموتِهِ ... فخرَّ صريعاً كالهشيم المبدّد
فوالهفي مُذْ غيبوا منه أبحرا ... من العلم في ذاك التراب المحدّد
ووالهفي! والمجد أصبح بعده ... يطوف على الأقطار للفضل يجتدي
فما فقده فقدان فرد من الورى ... ولكنه فقدان جمع مؤيَّد
وكم ذاهب في إثْره ألف ذاهب ... ولكنهم لا يوزنون بمفرد

❀ ❀ ❀

فيا راقداً من بعد طول انتباهه ... لتهنك جنات النعيم المخلَّد
ويهنك عفو الله والرحمة التي ... ستكسى بها ثوب الجلال المؤبد

الكويت ... **عبد العزيز الرشيد**

❀ ❀ ❀

رثاء الإمام الألوسي

غبت عنّا أيها البدر المنير   فـــدهــــيــــنـــا

وعرا أوطاننا الخطب العسير   فــبــكــيــنـــا

كم بعثت النور يجلو الظلمات   فــي الــلــيــالــي

أسئمت العيش في هذي الحياة   بــانــعــزال؟

قد يغيب البدر في جوف الغمام   ثــم يــطــلــع

ويواري كوكب الليل القتام   ثــم يــســطــع

كنت أنت النيّر الباهي الطلوع   بــازدهــار

أيها الراحل عنا : هل رجوع   لــلــديــار؟

كنت سامي الروح محمود الخصال   غــيــر ســاه

لم ترم غير ثواب ونوال   مــن إلــهــي

أصحيح غبت عنا نائيا؟   لا لَــعَــمْــرى!

سوف يبقى كل آن زاهيا   اســم (شُــكْــرى)

بغداد!   **(ابن السموأل) أنور شاؤول**



دمعة الكرخي

للشاعر الشعبي عبود الكرخي

الشعر العامي أوسع صدراً وأفسح مجالاً من الشعر الفصيح في تمثيل الشعور وبسط المقاصد وسرد الحقائق كما يشاء المرء من غير أدنى تكلف. فلذلك كانت له عند علماء الاجتماع وفضلاء الباحثين في آداب الأُمم وأحوال الشعوب منزلة لا تقلّ عن منزلة الشعر الفصيح، والأَدب الصحيح، وربما كان عند بعضهم أفضل منه بكثير. وقد تنبه إلى ذلك مؤسس علم الاجتماع العلامة ابن خلدون فاستشهد به في مقدمته على كثير من حوادث المغرب الأَقصى.

وقد رأينا أن تكون إحدىٰ قصيدتَيْ شاعر العراق (الكرخيّ) في رثاء الإِمام، مسك الختام. قال:

مَنْ يعزّي المصطفى سَيْد البشَرْ　　بالألوسي السَيِّد الشيخ الأَغرّ

❀ ❀ ❀

مَنْ يعزّي المصطفى خير الأنامْ　　ويُبَلِّغُهُ عن الأُمَّة السَّلام

ثم يخبرْهُ: الإِمام ابن الإِمامْ　　قد قضى، مَنْ كان أهلاً للفَخَرْ

قوموا عزّ الكون إن البدر غابْ　　هزّ منه الفلك الأَعلى اضطرابْ

في أمور الدين صار الانقلاب　　زَهَقَ الحقْ بعدَهُ الباطِلْ ظَهَرْ

كان وَجْه العلم فيه دائماً　　يَتَلالأ نوره مُبْتَسما

مُـحْـدِقَـهْ فـيـهِ مـلائِـكْـةُ الـسِّـمـا حـآفّـيـن الـنَّـعْـشْ تـلـقـاهـم زُمَـرْ

❀ ❀ ❀

أيها المجتهدْ والشيخ الخطيبْ قم بنا وارْقَ على المنبر خطيب

صاحب البرهان والفكر المصيبْ خيـر مـن حـجَّ ولـبَّـى واعـتَـمَـر

رزؤكم سهمَه بالشرع الشريف قد أصاب وخَرَقَ الدين الحنيفْ

كنت بالإسلام يا شيخي كليفْ حِـكْـمَـهْ قَـوْلَـكْ وبـلاغٌ مـخـتـصـر

أنت واحِدْ من رجال الموزمَهْ[1] كـم لـكـم يـا سـيـدي مـن مـكـرمَـهْ

فهل ممكن نحسِب نجُوم السِّمَه[2] أم مـن الـمـعـقـول إحـصـاء الـدرر؟

علمكمْ قد شاع في كل المللْ طالما بعلْمَكْ يضربُونِ المَثَلْ

لا أرى غيرَكْ إلى العلم أهَلْ ولا وَرَبْ مكـهْ وَزَمْـزَمْ والـحـجـرْ

أن سوق الأَدَبْ من بعدَكْ كَسدْ غـيـركـم لـيـس لـه كـفـواً أحَـدْ

فـالـبَـحَـرْ عـاداتُـهُ جـزرٌ ومـدّ فقطْ علمكْ يستحيلْ من الجَزِرْ

❀ ❀ ❀

لـم تـلِـدْ قـطـعـاً ولا تـأتـي الـنـسـاءْ مـثـلـكـم لا والـذي مـدّ الـسـمـاء

فـعـلـى الـدنـيـا وأهـلـيـهـا الـعـفـاءْ الأَدَبْ والعلم آنْفَصَمْ منها الظَّهَرْ

وارث الـعـلـيـاء مـن أبٍّ وجـدّ وَهْـوَ أنـت الـشـبْـلُ مـن ذاك الأَسَـدْ

بـكُـمُ - والله - تِـنْـحَـلّ الـعـقـدْ وبكم في المَحْشرِ يزُول الخَطَرْ!

فـي الأنـام الـيـوم أزكـاهـم أبـا بـالـورى أعـلـى وأرقـى حـسَـبَـا

أسـرةُ الـمَـجْـد وأشـرفْ نـسـبـا إمْنِ[3] النبيِّ المصطفى صحّ الخبر

العِلِمْ في بَيْتْكُمُ وحِلْم وصلاَحْ هُـوَ يـأتـيـكـم غـدوّاً ورواح

بعدكم يسمعْ لَهُ ضجه وصياح والأدبْ قـوَّض وراكـم بـالأثـر

❀ ❀ ❀

---

(1) أي من الرجال القائمين بأعباء الأمة.

(2) أي السماء وقد يقولون (السما) بكسر السين وبالقصر كما مر في البيت الثالث.

في فلَسْطينِ ويْمَنْ رزؤكُمْ عَمّ ... والحجازِ وسُوريْا وهِنْدِ وعَجَمْ
والعراقِ ومِصْرْ أدهى وأمَرّ ... ونَجدْ والأحساءْ ورِياضِ وقَطَرْ

❀ ❀ ❀

(الأثري بَهْجةُ) و(مَعْروف) الفحولْ[1] ... علماءُ وشعراءْ أهل العقولْ
لقَّنِتْهُم إِنتَ آدابُ وأُصول ... مِنْ جنابَكْ حازَوُ العزّ والفَخَرْ

❀ ❀ ❀

مِنَ المرسل قد سمعنا جدّكم ... أَلْمَوْتُ لا بُدْ يلتقطْ أخياركم
صدق الله الذي لقنكم ... كلّ شيءٍ بقضاءٍ وَقَدَرْ
سيّدي (شُكْري) وَيا ربّ الفطنْ ... هٰذِهِ الدنيا عبارَهْ عنْ فتنْ
أنا شاهدتِ الأسى في هلْ زَمَنْ[2] ... حبّذا ميّت وَنا[3] عمرى شَهَرْ
أنتَ طِب نفساً وقر عيناً لقد ... جاوَرت مولاكُم ٱلفرد الصمدْ
نَحنُ في الدنيا بقينا للشِّددْ[4] ... ونُقاسى مِنِ الدَّهرَ هَمٌّ وقَهَرْ
سَعَد دعني من الدنيا ذَنَب ضّبْ ... عندك نمُوذَج عسى تنفي الكُرَبْ
الشوك والصفصافْ والطرفَهْ وغَرَبْ ... ما حدَّ يرجِمَه خالي منِ الثَمَرْ
البَحَر في أسفلَه الدر ٱنصِدَف ... وترى من فوقِهِ تعلو الجِيَف
هل طرق سمعك على النجم انكِسفْ ... أولاْ تظنّ يكسف سوى الشَمسِ وقَمَرْ

❀ ❀ ❀

فإن تبكيك شريعة أحمدا ... فلقد أبكتك أعلام الهدى
لو أرى الموت يوافقْ بالفدا ... في ملايين أفتديكْ مِن البَشَرْ

---

(1) أي من النبي وقد يلفظونها على الوجه الصحيح.
(2) يشير إلى مؤلف هذا الكتاب وإلى الشاعر معروف الرصافي، والعامة تستعمل صيغة الجمع للتثنية.
(3) أي في هذا الزمن.
(4) وأنا.

كُنتُ أُفدي لَكَ عمومَ البخلاء — وكذا كل الوحوش الأغبياءْ
وهُمُ الخانُو وطَنْهم[1] حمقاء — لِمنافع ذاتهم هَلْ كم نَفَرْ[2]
يدّعون الوطنيَّة وصادقين — كَذبُوا والله ما فيهم أمينْ
الْكُل منهمْ خائنُ وناعم متين — بهم قد صح المثل «خيط الوَبَرْ»
أُو صارْ في عقلي خلل من هَلْ مصيرْ[3] — شاهَدِتْ تاجِرْ قَبِلْ هذا أجيرْ
يركبِ السيّارَهْ غاطسْ بالحرير — إوْ كانْ يمشي حافياً يلبس شعَرْ
الْكانْ يشربْ ماي[4] في علبةِ خِشَبْ — صارْ يتْزقْنَبْ[5] بكأس من ذَهَبْ
من[6] أقول الحق سبّيت[7] العنب — أُوْ ضَجهْ صارَتْ بالبَلَدْ عبدكْ كفرْ
إلْكلبْ من ماي الصفا[8] حالاً وردْ — والأسد ظمآن بالهيمه شرْد
والحمار اليوم يلعبْ مُنْطرَدْ[9] — والحصان إجلالْ ما فوقَهْ وْنُفرْ
ما بُقتْ قيمه إلى العلمْ وْأدَبْ — أُو صارْ رأس الكانْ بالماضي ذَنَبْ
والدخيل اْجتاز من أعلى الرُّتَبْ — والأسد (يا شيخْ) فرّ مْن البقر
النسْرُ والعنقاء مأكلْ للجرادْ — صارَوُا وْفرخ القطا شاهينه صادْ
والجحشْ حطّوا عَلَيْهْ سرج الجياد — وابْنُ آوىٰ صارَ حارسْ بالخُضَرْ
من أريدْ أنظم الحق واستدلّ — وإذا صاحوا: كِذِبْ أنتَ تزلّ
يصير رُمْحُ طْويلْ يْضُمَّه عِدِلْ — أوْ طرقْ سمعك يشفْ ماي البَحَرْ
يصير بالمنخلِ تُسِدْ عين الشّمِسْ؟ — يصير عالمْ من غبي ياخذْ دَرِسْ؟

---

(1) للشدائد.

(2) وهم الذين خانوا وطنهم.

(3) هل هنا بمعنى هؤلاء. وقد استطرد الشاعر هنا إلى وصف الحالة الحاضرة وانقلاب الأوضاع الاجتماعية رأساً على عقب مما لم يسبق له نظير، وذلك هو دأبه في كل موقف يقفه لا يخشى سلطة ولا يبالي بشيء!

(4) أي: وصار في عقلي خلل من هذا المصير.

(5) أي: الذي كان يشرب ماء إلخ.

(6) بمعنى يأكل أكلاً غير سائغ.

(7) معنى من: مدّ.

(8) أي: سببت.

أنـا لـو خـيّـرت شـنـقـاً أوْ حَـبـسْ　　كـنـت أخـتـار الـشَّـنِـقْ فـيـه الـفَـخَـرْ

في مـحـرمْ عـشـرهْ عـاشـور أيـن مـن　　قـاتـل الأبـطـالْ أبـا الـسـبـط الـحَـسَـنْ

وعشرهْ في ذي القعدة عاشور الوطن　　هــذه فـــي الـــنـــاس أدهـــى وأمـــرّ

هِـلْ عـزاء الـديـنـي مـا فـيـه كـلامْ　　والـعـزآء الـوطـنـي يـلـزمْ دوامْ

يـقـتـضـي أنْـقـيـم الـمـآتـمْ كـلّ عـام　　أُو نُصْبْغ أثْيابِ الحُزُنْ مدى الدَهَرْ

---

(1) من الماء الذي صفا من الكدر.

(2) يقولون لميدان السباق «منطرد».

(3) يشير إلى حادثة سياسية خطيرة ثار لها الشعب وكانت في نظر شاعرنا أدمى من مقتل الحسين رضي الله عنه، وهي تصديق مجلس الأمة معاهدة الانتداب البريطاني.

كلمة الختام

إلى هنا وقفنا جواد القلم. وكنت قد بدأت بتأليفه على أثر وفاة الإمام ثم شغلتني عنه شواغل إلى سنة 1925م ـ 1344هـ فقصدت الرحلة إلى الشام للنزهة وللوقوف على حالتها ومثافنة علمائها وأدبائها، فقضيت في دمشق وبيروت نحو شهرين. ثم رجعت أدراجي إلى بغداد وقد ألمَّ بي مرض كاد يقضي عليَّ باجتناب العمل ومراعاة الراحة، ولكن نفسي صارت تنازعني لاتمام ما بدأت به وأبت عليّ إلا المضيّ في العمل. فاستأنفت الكرة متوكلاً على الله سبحانه وثابرت على الكتابة، ولكن في أوقات متقطعة، إلى أن فرغت منه في أواخر شعبان سنة 1344 هـ

وبحمد الله وشكره تتم الصالحات.

محمد بهجة الأثري



الفهرس

المقالة الأولى

المقالة الثانية

المقالة الثالثة

3 ـ القصائد

في زمن سادت فيه الجهالة، وانتشرت الضلالة، وكان العراق فيه أشد ما يكون حاجة إلى رجال مخلصين يسيرون به على النهج السوي، وينهضون بجناحه المهيض من حضيض المكانة الى مطار السّؤدد والمجد، - **فقدت الأمة رجلاً** - والرجال قليل - هو ذخرها الباقي، وعزاؤها الوحيد، عما خسرت من تراث ومقوّمات ومشخّصات، بل هو كل أملها، ومناط رجائها، في إصلاح حياتها العلمية والعملية، فكان لمنعاه من الوقع ما هزّ عالم العلم من مطلعه إلى مغربه، ومن الدوي ما ردّدت صداه ضفاف النيل، وشواطئ بردى، وصحارى الجزيرة العربية.

ذلكم هو أستاذنا **الإمام الجليل السيد محمود شكري الألوسي**، وكفى باسمه غُنية عن الإشادة بذكره. ولما كنت أشد الناس اتصالاً به ومثافنة له، ومعرفة بأحواله، فقد بعثني باعث الواجب والوفاء له وللتاريخ معاً على أن أشرح سيرته العلمية والعملية وأخدم بها التاريخ الحديث، فقمت بذلك في أوقات مختلفة كنت أختلسها من سوانح الدهر على قدر ما وسعني وبلغت إليه يد الإمكان، ثم صدّرتها بمقدمة وشرحت بها تاريخ أسرته ورهطه الأذنين وذيلتها من كلمات التعازي وتآبين العلماء والشعراء بشذرات هي إلى الحقيقة أقرب منها إلى الخطابة والشعر، فتألف منها هذا الكتاب الذي بين يديك.

محمد بهجة الأثري